العلامة الأستاذ محمد تقي مصباح اليزدي

على بابِ الحَبيبْ



ترجمة: د. السيد حيدر الحيدري

أشرف على الترجمة: الشيخ عبد المنعم الخاقاني

دار الولاء لصناعة النشر

www.daralwalaa.com

دار الولاء
لصناعة النشر
الرويس، شارع الرويس، بيروت - لبنان
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com
P.O. Box: 307/25 | www.daralwalaa.com

ISBN 978-614-420-368-2

على باب الحبيب

المؤلف: العلّامة الاستاذ محمد تقي مصباح اليزدي.
ترجمة: الدكتور السيّد حيدر الحيدري
حقق الترجمة و صحّحها: الشيخ محمد عبدالمنعم الخاقاني

الناشر: دار الولاء لصناعة النشر.
الطبعة: الأولى بيروت_لبنان ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

إخراج فني وتنفيذ:
eight
press & production
www.8eightproduction.com | 00961 3 017 565

على باب الحبيب

تأليف

آية اللّٰه الأستاذ محمد تقي المصباح اليزدي

ترجمة: الدكتور السيّد حيدر الحيدري

حقّق الترجمة و صحّحها:
الشيخ محمد عبدالمنعم الخاقاني

دار الولاء
لصناعة النشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

في خِضَمّ مسيرة الحياة واضطراباتها، ومُرّ وحلو حوادثها يصيب الإنسانَ أحياناً نوعٌ من الإرهاق الروحيّ والإعياء النفسيّ فلا تستطيع معه أيُّ وسيلة مادّية أن تبعث في قلبه الراحة والسكينة، ولو وُضعت قدراتُ كلّ أرباب القدرة، وثرواتُ جميع أصحاب الثروة، وكلّ ما في الأرض من وسائل المتعة والرفاهية تحت تصرّفه فإنّها لا تخفّف مثقال ذرّة من آلام روحه وعذاب نفسه.

في مثل تلك الحالات قد يلجأ الإنسان إلى أحبّ صديق، أو أقرب قريب، أو أعزّ امرئ لديه ليبوح له بمكنونات قلبه. وقد لا يهتدي إلى أيّ شخص يكون أهلاً لثقته وصاحباً لسرّه، فيعتزل الخلق في زاوية يخلو فيها إلى ذاته ويناجي نفسه. ومهما كان، فإنّ السبيل الوحيد لبُرء جرحه وطمأنينة قلبه هو الأنس بالمحبوب والبوح بكلّ أسرار القلب للمعشوق.

ولكن إذا كان اغتمام الإنسان وإحساسه بقسوة قلبه ناتجاً من كدورة القلب بسبب القبائح ورَيْن المعاصي والآثام إلى درجة

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

التنفّر من الذات والفرار منها، فإلى أين يفرّ ولمن يبوح بما يعتلج في صدره؟ هنا لابدّ للإنسان أن يلجأ إلى مَن هو منبع كلّ حُسْن، وأصل كلّ طهارة، وخالق المحبّة والصفاء، وخالقه هو، ليطمئنّ قلبه بذكره، وعشقه، والحضور في مجلس سروره.

أيّ طمأنينة ولذّة أكبر من أن يرى العبد الذليل نفسه في حضرة المعبود العزيز، ليتطهّر قلبه الملوّث بمعين صحبته، وتسكن روحه المضطربة إلى ذكر ذلك الواحد الأحد. إنّ هذه هي من أفضل وأعظم الثمار الطيّبة للدعاء.

وبالرغم من أنّ الدعاء، بالاصطلاح الدارج، يفسَّر بأنّه «طلب العبد لحاجته»، إلاّ أنّ المعنى الحقيقيّ للدعاء والمناجاة هو: «دعوة المحبوب من قبل العبد المحبّ العاشق، وخلوته مع المعشوق، ومجالسة الرفيق والمؤتَمَن على السرّ ومجاورته في خلسة العرفاء الطالبين للحقّ والحقيقة». حينذاك، وعندما يشاهد العبد الذليل الحقير أنّ فضاء قلبه المليء بالمعاصي بعيد عن مظهر الطهارة والحسن والجمال، يفتّش عن الطريق الموصل إلى قرب الحبيب ومجالسة المعشوق ويقف متحيّراً متسائلاً: أين يا ترى بإمكانه أن يخلو بمعبوده؟ فيأتي النداء عندئذ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[1]؛ إنّني قريب من كلّ عبادي. والحقّ إنّه لا معنى للمسافة والفاصلة في مرافقته: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2]. فإذا طرأت على عبد مثل هذه الحالة، وأحسّ بدفء القرب من الحقّ، واقترب خطوة من محفله، حينئذ

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

(٢) سورة ق، الآية ١٦.

يصبح المعبودُ محبّاً له، ويصبح هذا العبدُ محبوباً للحقّ، فيصل النداء: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾[١].

جعلنا اللّه من العارفين الحاضرين في محفل الدعاء الذين لا يطلبون في محضر الحقّ إلاّ ذاته، إذ أنّ الحصول على معرفة الحقّ تمثّل أقصى درجات استجابة دعاء العبد.

أمّا الكتاب الذي بين يدي القارئ فهو مستقى من عدد من محاضرات في موضوع الدعاء لسماحة الأُستاذ آية اللّه الشيخ محمّد تقي مصباح اليزديّ.

ويتضمّن الكتاب أربعة فصول، كُرّس الفصل الأوّل منها لمناقشة موضوعات عامّة بخصوص الدعاء اقتبست من بضع محاضرات لسماحة الأستاذ في هذا المجال. أمّا الفصلان الثاني والثالث فيشتملان على خمس عشرة محاضرة ألقاها سماحته خلال شهر رمضان المبارك من عام ١٣٩٨ هـ.ق في مدرسة «المهديّة» في مدينة قمّ، تمّ تدوينها مع شيء من التصرّف. بينما يختصّ الفصل الرابع ـ الذي أضيف لاحقاً إلى الكتاب ـ بشرح مقاطع من دعاء مكارم الأخلاق.

وبالنظر إلى طبيعة الحضور في تلك المحاضرات الذي كان يتألّف من طبقات مختلفة من الناس، جاء مستوى الحديث متناسباً مع ذلك الجمع على الرغم من احتوائه ـ في ذات الوقت ـ على الكثير من الإشارات والالتفاتات القيّمة والمفيدة. ومن الواضح أنّ المحاضر

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

في أثناء الإلقاء لا يستطيع أن يتحدّث بنفس الأسلوب الذي يكتب فيه.

ومن الجدير بالذكر أنّ الفصل الثاني يُعنى بشرح مقاطع مختارة من دعاء الافتتاح، والثالث بتفسير مقاطع من دعاء أبي حمزة الثماليّ.

آمل أن يسدّ الكتاب حاجة لإخواننا المؤمنين ويكون ذا فائدة لهم.

عبّاس قاسميان
شعبان/ ١٤١٨ هـ

الفصل الأوّل

بحوث في الدعاء

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾[1].

إنّ من أبسط العلاقات التي تربط الإنسان بربّه وأكثرها طبيعيّة هي ذكر اللّه الذي من ثماره توجّه القلب إلى اللّه اختياراً، ممّا يلقي بالأثر على الروح فتتجلّى آثار هذا التوجّه على اللسان أحياناً.

إنّ الدعاء هو سلاح المؤمن، ووسيلة التقرّب إلى اللّه، وحقيقة العبادة، وذكر الحقّ تعالى، وحوار مع ربّ العالمين. وطلب الحاجة ذريعة للوقوف على باب الحبيب والمناجاة مع الواحد الغنيّ. والدعاء أيضاً مدعاة لنشاط الروح وحياة القلب، ومفتاح لعطايا الإله. والدعاء كذلك انصهار في رحمة الحقّ تعالى وسبب لنزول البركات الإلهيّة.

الدعاء هو من المسائل التي هي مثار اهتمام عظيم ومحطّ تأكيدٍ كبيرٍ في الثقافة الإسلاميّة، الأمر الذي يستدعي مِنّا إلقاءَ بعض الضوء على حقيقة الدعاء وماهيّته.

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٧٧.

هناك جملة من البحوث تطرح في باب الدعاء؛ منها: ما هي حقيقة الدعاء؟ هل الدعاء سبب مستقلّ للإجابة أم إنّه واحد من جملة الأسباب والعلل الطبيعيّة والعاديّة؟ وإذا كان سبباً مستقلاً، ألا يستوجب الاستثناء في السنن الإلهيّة التكوينيّة؟ ألا يؤدّي الدعاء إلى تكاسل الإنسان وتقاعسه؟ ما هي آثار الدعاء، وإلى أيّ حدّ يمكن أن تصل؟ ما فائدة الدعاء، وما هو الدور التربويّ الذي يمكن أن يضطلع به في حياة الإنسان؟ هل إنّ أثر الدعاء - كما يقول البعض - هو في مضمونه فحسب؛ أي إنّ للدعاء تأثيرات تلقينيّة وهي التي تؤدّي إلى حركة الإنسان نحو مطلوبه، أم إنّ له آثاراً أخرى أيضاً؟ لماذا نلاحظ أنّه قلّما تُستجاب دعواتنا في حين أنّ اللّه قد وعد في كتابه أن يستجيب لدعوات عباده؟ هل للدعاء آداب وشروط؟ وإذا كان الجواب بنعم، فما هي شروط الدعاء وما هي شروط استجابته؟ ما معنى الاستكبار عن الدعاء الذي نهى عنه القرآن الكريم؟ وهكذا. هذه جملة من القضايا التي ستتمّ مناقشتها في هذا الفصل من الكتاب.

ما هي حقيقة الدعاء؟

إنّ طبيعة الحياة الدنيا تجذب انتباه الإنسان - إلى حدّ ما - إلى الأشياء الماديّة، طوعاً أو كرهاً، في حين أنّ الواقع هو أنّ السبب الحقيقيّ من وراء خلقة الإنسان هو التقرّب إلى اللّه، وأنّ عليه الإفادة من كلّ جانب من جوانب الحياة لنيل هذا المقصود. إنّ إحدى أفضل السبل لهذا الهدف هي أن يخصّص المرء في كلّ يوم لحظات من عمره يقضيها في الالتفات بإخلاص إلى الحضرة الإلهيّة. وهذا الالتفات يتجلّى أشدّ ما يكون التجلّي أثناء الصلاة؛ ففي الصلاة

هناك أدعية يُدعَى بها حال القنوت وفي أحوال الصلاة المختلفة، ناهيك عمّا ورد في الروايات من أدعية أخرى يُدعى بها قبل الصلاة وبعدها، بل إنّ نفس الصلاة يمكن اعتبارها ضرباً من ضروب الدعاء إذ أنّ مفردة «الصلاة» في اللغة هي بمعنى الدعاء.

إنّ حقيقة الدعاء هي التوجّه إلى حضرة المعبود، وهذا ـ بحدّ ذاته ـ يعدّ نوعاً من العروج الروحيّ والمعنويّ بالنسبة للإنسان المؤمن. فالدعاء ليس تلفّظاً بكلمات ومراعاة لجملة آداب خاصّة فحسب، بل إنّ حقيقة الدعاء وروحه تكمنان في التوجّه القلبيّ للإنسان إلى إله الكون، وإنّ قوّة هذا التوجّه إنّما تتحدّد بمدى معرفة الإنسان بربّه وحبّه له، الأمر الذي يتطلّب الإلتفات إلى صفات الباري عزّ وجلّ قبل البدء بالدعاء وفي أثنائه.

هذا الكلام يقودنا إلى القول بأنّ الدعاء ـ في الحقيقة ـ ليس إلاّ عبادة، بل وقد يرجح على الكثير من العبادات الأخرى لما ينطوي عليه من توجّه للباري تعالى عند ممارسته. ففي الحديث الشريف عن النبيّ ﷺ ورد قوله: «**الدعاءُ مخُّ العبادة**»[1]، وفي القرآن الكريم نلاحظ أنّ اللّه سبحانه وتعالى عندما يتناول قضيّة الاستكبار عن الدعاء يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2]، فلم يقل اللّه جلّ وعلا: «يستكبرون عن دعائي» بل عبّر عن الدعاء بـ «العبادة» وعرّفه صراحة بهذا المعنى واعتبره من لوازم العبوديّة، لأنّ التهديد بنار جهنّم

(١) بحار الأنوار (للعلامة المجلسيّ)، ج٩٠، الباب ١٦، ص٣٠٠، الحديث ٣٧.

(٢) سورة غافر، الآية ٦٠.

ـ الوارد في الآية ـ لتارك الدعاء إنّما يتناسب مع ترك العبادة لا ترك الدعاء[١].

وهنا قد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: كيف يمكن تصوّر أن يكون الإنسان عابداً لربّه حينما يطلب منه شيئاً؟ وكمقدّمة للإجابة على هذا السؤال لابدّ من تقديم توضيح لحقيقة العبادة.

إنّ حقيقة العبادة هي أن يَعدّ الإنسان نفسه عبداً للّه مملوكاً له، لا يرى لنفسه ملكاً ولا إرادة مستقلّة في مقابل اللّه عزّ وجلّ بل يرى أنّ ذاته وكلّ ما يملك هي منه سبحانه، مسلّماً لإرادته تسليماً كاملاً معترفاً بكونه عبداً له، مُظهراً لعبوديّته التكوينيّة تجاه اللّه بصورة اختياريّة. وبعبارة أخرى؛ أن يبيّن أمام اللّه: إنّك أنت الربّ وأنا عبدك، أنت العزيز وأنا الذليل، أنت المالك وأنا المملوك، أنت الربّ وأنا المربوب: «**إلهي أنت الخالق وأنا المخلوق، وأنت المالك وأنا المملوك، وأنت الربّ وأنا العبد.... وأنت القويّ وأنا الضعيف**»[٢]. فلو تأمّلنا في حقيقة الصلاة مثلاً لرأينا أنّها إظهار لنفس هذا المعنى؛ أي: إلهي، أنا عبد، والعبوديّة من شأني، وأنت مالكي.

العبادة في الواقع هي إظهار لهذا المعنى، سواء ما كان منه من خلال التوجّه القلبيّ، أو عبر البيان اللسانيّ، أو بالإشارة بوساطة الأعضاء والجوارح. فالركوع والسجود إن عُدّا عبادة فهو من باب كونهما مبيّنين لتلك الحالة القلبيّة، ألا وهي إظهار الذلّة أمام العظمة الإلهيّة اللامتناهية. والذكر اللسانيّ أيضاً يحكي هذه الحقيقة. وهكذا

(١) تفسير الميزان، ج٢، ص٣٣.

(٢) مفاتيح الجنان (للشيخ عبّاس القمّي)، مقاطع من مناجاة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

فإنّ أصل جميع العبادات وروحها هو ذلك التوجّه والالتفات القلبيّ وإنّ الحركات والذكر اللسانيّ هي تجلّيات لهذه الحقيقة.

والدعاء أيضاً هو علامة على الاعتقاد بمالكيّة اللّه وربوبيّته وعزّته وقدرته. فالشخص الذي يرفع يديه إلى حضرة الإله، مائلاً برقبته، مطأطئاً رأسه، معفّراً جبينه بالتراب، ذارفاً دموع مقلتيه على وجنتيه، سائلاً إيّاه حاجته بدعائه، فإنّه - في مقام العمل - يظهر غاية انكساره وتذلّله تجاه عظمته سبحانه، ويرى نفسه فقيراً، ضعيفاً، ذليلاً، مسكيناً ويرى اللّه غنيّاً، قويّاً، عزيزاً، قادراً؛ أي إنّه يظهر هذه الحقيقة من خلال حالته تلك.

وعلى الرغم من أنّ الدعاء - في ظاهره - هو طلب قضاء الحوائج، سواء الماديّة منها أو المعنويّة، وأنّه يأتي في العادة على هيئة كلمات ملفوظة، إلاّ أنّه، في واقع الأمر، اعتراف من الإنسان بعبوديّته وفقره وعجزه، وإنّ هذه الكلمات في الحقيقة تفصح عمّا يجول في الضمير والخاطر وليس لها أصالة بذاتها، إذ ليست القضيّة أنّ لنوع هذه الألفاظ وطريقة أدائها تأثيراً على مجريات الكون بحيث أنّ التلفّظ بها من قبل أيّ شخص كان يصبح ذا وقع وتأثير. وبعبارة أخرى؛ الدعاء مسألة قلبيّة واللسان فقط يحكي ما في القلب. وبناءً على هذا، فلابدّ أن يكون الدعاء نابعاً من قلب الإنسان وروحه، وأن يكون مصحوباً بحاجة قلبيّة جدّية ومُلحّة، إذ أنّ الاقتصار على التفوُّه بجملة كلمات بمعزل عن أيّ التفات من القلب لا يعدّ دعاء.

إذن أصبح جليّاً ممّا تقدّم أنّ حقيقة الدعاء هي عبادة ليس إلاّ، بل

إنّ الدعاء هو من أسمى العبادات، وبتعبير الحديث الشريف «مخّ» جميع العبادات، وإظهار للعبوديّة أمام مالكيّة اللّه المطلقة.

التأثير المستقلّ للدعاء

هل يا ترى من الممكن أن يكون الدعاء سبباً للإجابة على نحو مستقلّ وأن تتحقّق ظاهرة وجوديّة مّا نتيجةً لمجرّد الدعاء من دون أن تتدخّل الأسباب العاديّة في ذلك؟ هذا البحث يدخل في سياق البحوث العقائديّة والفلسفيّة حيث يناقش هناك بشكل مسهب، إلاّ أنّنا سنشير إليه هنا مجرّد إشارة:

إنّ الجواب على هذا السؤال، من وجهة النظر القرآنيّة، هو بالإيجاب، فهناك أمثلة ذكرها القرآن كان الدعاء فيها سبباً لتحقّق أمور من دون تدخّل الأسباب الظاهريّة. فدعاء النبيّ زكريّا عليه السلام، الذي كان سبباً لأن يرزقه اللّه ولداً يُسمّى يحيى عليه السلام على كبر من سنّه، هو مثال على ذلك، وهناك أمثلة أخرى في القرآن تحقّقت فيها أمور من دون تأثير العوامل الطبيعيّة كان الدعاء السبب الوحيد في تحقّقها. إذن فهذه المسألة، وحسب الرؤية القرآنيّة، غير قابلة للإنكار. لكن، ألا تستدعي هذه المسألة وجود الاستثناء في السنن الإلهيّة؟ ثمّ ألا تستلزم نقضاً لقانون العلّية؟ حيث إنّ إرادة الباري جلّ شأنه، اقتضت أن تسير الأمور وفقاً لعللها: «**أبى اللّه أن يُجري الأشياء إلاّ بالأسباب**»[1]!

وفي الجواب على ذلك نقول: إنّ هذه المسألة هي من قبيل الكرامة والإعجاز. فكما يقال في الإعجاز بأنّه سُنّة حاكمة على

(١) بحار الأنوار، ج٢، الباب ١٤، ص٩٠، الحديث ١٤ والحديث ١٥.

السنن الطبيعيّة والعاديّة، فإنّ إجابة الدعاء هي أيضاً سُنّة إلهيّة حاكمة على السنن الأخرى. وكما أنّه لا يصحّ الاستدلال بالآية الشريفة: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[1] على نفي الإعجاز، فإنّه لا يصحّ - ولنفس الأدلّة المذكورة في محلّها - الاستدلال بالآية والحديث الآنفي الذكر على نفي تأثير الدعاء. وعلى كلّ حال فإنّ إنكار الأحداث الخارقة للعادة لا ينسجم مع القرآن.

ولإلقاء المزيد من الضوء على هذا الموضوع نقول: إنّ أحد أصول الرؤية الدينيّة الإلهيّة هو الاعتقاد بمسائل كالإعجاز والكرامة وما شابه ذلك. وهذا الاعتقاد لا وجود له في المدارس المادّية، بل إنّه يمثّل واحداً من المآخذ التي يُشكِل بها أتباع تلك المدارس على أصحاب الديانات الإلهيّة، ولاسيّما الإسلام، ويتّهمون المعتقدين به بنقض أصل العلّية. فهؤلاء يقولون: إنّ الإيمان بمثل هذه المواضيع يوجب النقض لأصل العلّية. فإن سلّمنا بأصل العلّية، فلا يمكن لأيّ شيء أن يوجَد إلاّ عن طريق العلّة وضمن ظروفه الخاصّة، وإلاّ فمن المحال تحقّقه، إذ كيف يمكن القول بتحقّق ظاهرة أو شيء مّا بعيداً عن تدخّل الأسباب العاديّة؟! إذن فهذا الاعتقاد منافٍ لأصل العلّية.

هل الدعاء ينافي أصل العلّية؟

هل الاعتراف بالمعجزة أو الأمور الخارقة للعادة هو بمعنى إنكار أصل العلّية؟ وهل إنّ أصل العلّية هو قانون عامّ بحيث يستلزم الاعتراف به إنكارَ المعجزة ونفيَ تأثير الدعاء؟

---

(١) سورة فاطر، الآية ٤٣.

إنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ أصل العلّية أصل ضروريّ وعامّ ولا يقبل الاستثناء. بالطبع إنّ معالجة هذا الموضوع تتطلّب بحوثاً فلسفيّة عميقة وهي خارجة عن نطاق بحثنا هذا، لكنّنا سنورد هنا إشارة عابرة له من أجل التوضيح فحسب.

السؤال المطروح هنا هو: إذا كان أصل العلّية أصلاً كلّياً وضروريّاً، فكيف يمكن الاعتراف بالمعجزة وبتأثير الدعاء؟ للجواب على ذلك لابدّ لنا من مقدّمة:

هناك فرق بين القبول بأصل العلّية والقبول بالعلل الخاصّة في كلّ مورد معيّن واعتبار العلّة منحصرة بالعلل المعروفة. في الواقع هناك خلط بين هذين الموضوعين.

نلاحظ في الفلسفة وجود أصل بديهيّ غير قابل للإنكار ألا وهو أصل العلّية الذي مفاده: إنّ بعض الموجودات في عالم الوجود مفتقرة في وجودها إلى وجود موجودات أخرى بحيث إنّ وجود الموجودات المفتقرة لا يتحقّق مع غياب الموجودات الثانية. على سبيل المثال، الإرادة التي هي معلولة للنفس ومرتبطة بها. والقاعدة الفلسفيّة لهذا البحث هي كما يلي: إنّ الموجود الفقير والمعلول الممكن الوجود يحتاج إلى موجود يُؤَمّن له حاجته؛ أي إذا رأينا أنّ حاجة موجود محتاج قد أمّنت، فإنّه يصبح من المعلوم لدينا أنّ هناك علّة قامت بسدّ حاجته تلك. واستناداً إلى ذلك، فمن أجل تحقّق الظواهر المختلفة وظهور كلّ ما يفتقر بذاته إلى الوجود لابدّ من تأثير وفعل عامل آخر.

هذه القاعدة بديهيّة ليس فيها مجال للشكّ، وعلى أساسها فإنّ

كلّ عالِم في أيّ فرع كان من فروع المعرفة هو في الحقيقة يبحث عن علل الأشياء. وإنّ جهود العلماء على مرّ التاريخ في كشف علل الظواهر الوجوديّة ترتكز على هذا الأصل، وهو أنّه لا يمكن للمعلول أن يكون من غير علّة، بل إنّ كلّ ما توصّلت إليه البشريّة كان ببركة هذا الأصل المهمّ.

إنّ الخلط الحاصل في هذا المضمار هو في معرفة العلل الخاصّة. فبعد الإقرار بهذا الأصل وهو أنّ المعلول لا يمكن أن يتحقّق من غير علّة، يأتي الدور إلى تعيين ومعرفة العلل الخاصّة بكل معلول وظاهرة على حدة، وهذا أمر خارج عن نطاق الفلسفة ويدخل في حيّز العلم. إذن القانون الفلسفيّ للعلّية يؤكّد على أنّ كلّ معلول فهو محتاج إلى علّة، بَيد أنّه لا يحدّد العلّة الخاصّة للمعلول المعيّن ملقياً بهذه المهمّة على عاتق العلم للقيام بالتوصّل إلى العلل من خلال التجربة (وقد قيل في محلّه: إنّ السبيل إلى معرفة العلل هو إيجاد العوامل والظروف وإزالتها، وبعبارة اخرى هو التغيير فيها).

إنّ أصل العلّية - باعتباره قانوناً عقليّاً - يقول: إنّ وراء كلّ موجود، محدود، مشروط، مفتقر لابدّ من وجود شيء آخر يتمّ، من خلال الارتباط به، تحقّق وجود الأوّل. أمّا؛ ماهي خصوصيّات ذلك الشيء؟ وما هو الأثر الذي يمكن أن يكون له؟ فهذا ممّا لا يجري إثباته بواسطة قانون العلّية. بتعبير آخر: إنّ معرفة العلل الخاصّة لكلّ ظاهرة لا تتمّ عن طريق قانون العلّية بل، كما أسلفنا، إنّ التوصّل إلى ذلك هو من مهمّة التجربة والعلم، وإنّ قانون العلّية هو قانون عقليّ متقدّم على التجربة ومستقلّ عنها.

وعلى سبيل المثال، لو أنّ عالِماً منهمكاً في مختبره في كشف علل ظاهرة مّا عن طريق تغيير الظروف، وفجأة تحدث ظاهرة جديدة؛ كأن يسطع نور أو ينبثق صوت أو تحدث ظاهرة مادّية أخرى، فإنّه - وبمجرّد السماع أو الرؤية - سوف يعلم بوجود تلك الظاهرة ويدرك على الفور أنّها ليست من دون علّة. فإنّه يفهم هذا الموضوع وفقاً لقانون العلّية العقليّ، ولا حاجة به إلى التجربة. أمّا لمعرفة ماهي علّة بروز هذه الظاهرة؟ فهو يحتاج لذلك إلى التجربة والمختبر ولا سبيل للعقل إلى تشخيص ذلك بمفرده، وإلاّ لما كانت هناك ضرورة للتجربة أساساً ولكان العقل وحده كافياً لأن يكتشف علّة حدوث هذه الظاهرة أو تلك. إذن فالتعرّف على العلل الخاصّة هو من مهمّة التجربة والعلم وليس العقل.

والبعض عندما لا يعرف علّة ظاهرة مّا أو لا يتوصّل - ضمن نطاق تجاربه - إلى ما يستطيع به تفسير كيفيّة حدوثها، فهو يتوهّم بأنّ قانون العلّية قد لَحِقَه الاستثناء. ففي عالمنا اليوم، هناك بعض الفيزيائيّين، وبسبب عدم قدرتهم على اكتشاف علل بعض الظواهر الخفيّة (مثلاً، السبب من وراء خروج إلكترون مّا من مداره في الذرّة) يقولون: بأنّ تلك الظواهر لا علّة لها ويعتقدون بأنّ قانون العلّية قد نُقض في مثل هذه الموارد، من دون الالتفات إلى حقيقة أنّ قانون العلّية لا يقبل النقض. إنّ ما ينبغي لهؤلاء معرفته هو العلل الخاصّة للظواهر، وإنّ عدم توصّلهم لمعرفتها إنّما هو ناشئ من النقص في ميدان التجربة.

وبناءً على هذا الكلام فإنّ التوصّل إلى معرفة العلّة الخاصّة مرهون بالتجربة. بيد أنّ القضيّة المهمّة هنا (الخلط الآخر الحاصل) هي إنّه:

هل بمقدور التجربة أن تثبت أنّ علّة ظاهرة مّا هي علّة منحصرة؟ فلو أجرينا تجربة تحت ظروف خاصّة وثبت لدينا من خلالها أنّ ظهور شيء مّا هو رهن بوجود شيء آخر، وأضحت العلاقة بينهما واضحة؛ مثلاً: لو توصّلنا بالتجربة إلى أنّه في أيّ وقت يوجد فيه «أ» يتحقّق «ب» وكلّما أزلنا «أ» اختفى «ب»، فهل لهذه التجربة أن تقدّم لنا دليلاً قطعيّاً على عدم إمكانيّة تحقّق «ب» من غير طريق «أ»؟

لقد مرّت قرون طويلة والإنسان يستخدم وسائل خاصّة لإشعال النار. فهل يا ترى يمكنه الادّعاء ـ بسبب ذلك ـ أنّه يستحيل أن توقد النار بأيّ طريقة إلاّ باستخدام تلك الوسائل؟ وإذا كنّا نستعين عادة بالنار لإنتاج الحرارة، فهل يحقّ لنا القول بأنّه من غير المستطاع الحصول على الحرارة من أيّ مصدر آخر؟ هل يجوز لنا الادّعاء بأنّ السبيل الوحيد لإنتاج الحرارة في أيّ زمان وفي أيّ مكان من العالم هو النار؟ هل تعطينا التجربة مثل هذه النتيجة ياترى؟ أم إنّ كلّ ما يمكننا قوله هو: إنّ علّة إنتاج الحرارة، بحسب ما توصّلنا إليه من علم، هي النار، لكن لا يحقّ لنا أن ندّعي أنّه لا وجود بتاتاً لأيّ عامل آخر من شأنه أن يوجد النار وأنّ من المحال أن يكون لهذا العامل وجود على الإطلاق. إنّه لَمِن الجهل بمكان وهو بعيد عن شأن المحقّق والباحث الادّعاء بنفي تأثير عامل مجهول وغير محسوس.

وبناءً على ما مرّ، فليس بمقدور التجربة (أو العلم) إخبار الإنسان عن كون علّة الأشياء منحصرة بعلّة معيّنة. فالتجربة باستطاعتها أن تثبت ما يقع في حيّز إحساس الإنسان وليس لها أن تنفي ما وراء ذلك. إذن، فالادّعاء بأنّ العلم ينفي التأثير الاستقلاليّ للدعاء أو

يفنّد ما جاء به الأنبياء من أمور، إنّما هو كلام فارغ. فالعلم يستطيع أن يقول: إنّه - وبحسب ما تشير إليه التجربة - فإنّ إيجاد أيّ فرد من البشر يكون بوسيلة والديه، لكن ليس من حقّه القول: إنّ إيجاد الإنسان من غير هذا الطريق محال. بل إنّ التجربة أساساً لا يمكنها، بإيّ شكل من الأشكال، إثبات استحالة أمر مّا، إذ أنّ كون الشيء محالاً ليس مفهوماً تجريبيّاً وإنّما هو مفهوم فلسفيّ، ولا يتمّ إثباته إلاّ عن طريق العقل. فما يتمّ إثباته بالتجربة هو عدم وقوع الشيء، أمّا كونه محالاً فليس للتجربة سبيل إلى إثباته. إذن، فأيّ علم، مهما بلغ من تقدّم وتطوّر، ليس بمقدوره أن يفنّد مسائل من قبيل الإعجاز وتأثير الدعاء وأمثالها ويقول: إنّ مثل تلك الأمور هي مستحيلة.

يتّضح من المقدّمة السالفة الذكر أنّ القبول بالإعجاز أو بأيّ أمر خارق للعادة لا يعني بأيّ حال من الأحوال إنكار أصل العلّية أو القبول بإمكانيّة الاستثناء فيه؛ وذلك لأنّ هذه الأمور منتسبة إلى اللّه، فهي إذن تنطوي على العلّة المُفيضة المُوجِدة؛ أي إنّ فرض قبول مثل هذه الأمور هو فرض لقبول علّية اللّه عزّ وجلّ. أمّا فيما يخصّ العلل الطبيعيّة، فإن وُجد معلول من دون علّة طبيعيّة معروفة، فهل يعني ذلك نقضاً لقانون العلّية؟

إذا أخذنا المقدّمة المذكورة بنظر الاعتبار فإنّه لا يمكن الادّعاء بأنّ العلّة الطبيعيّة لإيجاد معلول تنحصر فيما نعرفه نحن ولا يوجد طريق آخر لإيجاد هذا الموجود، وذلك لأنّه في بعض الموارد التي يتحقّق فيها أمر خارق للعادة قد توجد هنالك علل غير اللّه، وفي طول وجود اللّه، تكون بعيدة عن إدراكنا. وعلاوة على ذلك،

فإنّه ـ وفقاً لقانون العلّية ـ ليس بالمستطاع إنكار علّية الأمور غير الطبيعيّة بالنسبة للأمور الطبيعيّة، إذ ليس لأيّ علم أن ينفي تأثير أمر غير طبيعيّ في تحقّق أمر طبيعيّ، بل إنّ العلم يُثبت أيضاً هذا التأثير. فالأشخاص الذين يمارسون الرياضة الروحيّة وتنمو عندهم قواهم النفسيّة، يصبح بإمكانهم التصرّف في بعض الظواهر المادّية ويقومون ببعض الأعمال التي لا يتيسّر القيام بها عن طريق الأسباب الطبيعيّة. فأمثال هذه المسائل لا تقبل الشكّ في وقتنا الحاضر.

وبناءً على ما تقدّم، فإنّ ظهور الأمور الخارقة للعادة لا يعني نقض قانون العلّية (أي القانون الفلسفيّ للعلّة والمعلول). وعلى هذا، فإنّ كلام أولئك الذين يستدلّون بالآية الشريفة: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1] على إنكار الخوارق للعادة ليس صحيحاً، إذ أنّ تحقّق المسائل الخارقة للعادة لا يستلزم نقضاً للسنّة الإلهيّة. أضف إلى ذلك أنّ تلك الآية الشريفة جاءت بخصوص المجتمعات البشريّة لبيان هذه القضيّة وهي: كلّما تمادى الناس بالعصيان وكذّبوا بآيات اللّه ووصلوا إلى حدّ إنكارها، فإنّه يشيع الفساد في المجتمع وتُسدّ سبل الحقّ والصلاح فيلتبس الأمر على الآخرين فلا يهتدون إلى سبيل الحقّ والرشاد، فالسنّة الإلهيّة، في مثل هذه الحالات، لا تمهل مثل هؤلاء الناس بل تفنيهم بصنوف العذاب السماويّ أو الأرضيّ أو ما شابه ذلك. فالآية هذه تشير إلى أمثال هذه القضايا ولا صلة لها بالقوانين الطبيعيّة لتقول: إنّ مقتضى السنّة الإلهيّة هو أنّ كلّ ظاهرة

(١) سورة فاطر، الآية ٤٣.

مادّية لا تنشأ إلاّ من علّة مادّية، وأنّ الحرارة ـ على سبيل المثال ـ تتولّد دائماً من النار.

وحتّى لو فرضنا أنّ الآية المذكورة قابلة للتعميم على كلّ القوانين المسيطرة على الكون فنحن نسأل: هل إنّ القوانين الإلهيّة تنحصر فيما نعرفه نحن منها؟ أم إنّ هناك قوانينَ أخرى لم نتوصّل إليها نحن البشر تقع أيضاً ضمن إطار القوانين الإلهيّة؟ إنّ من بين السنن الإلهيّة هي حدوث أشياء خارج نطاق المجرى الطبيعيّ لسير الأحداث كلّما اقتضت المصلحة والضرورة ذلك. إذن أين أثبت العلم أو الفلسفة أنّ مقتضى السنّة الإلهيّة هو أنّه لابدّ لكلّ ظاهرة طبيعيّة أن تحدث فقط من خلال العلّة المادّية المعروفة؟!

بناءً على ذلك، فإنّ إثبات المعجزة وتأثير الدعاء لا يعني نفي العلّة لظاهرة متحقّقة فعلاً، بل هو بمعنى إثبات علّة هي وراء العلل التي يعرفها عامّة الناس. لذا، فإنّه من الممكن الجمع بين أصل العلّية بعنوان أنّه أصل ضروريّ وكلّي، والمعجزة والأشياء الخارقة للعادة، ولا وجود لأيّ تناقض بينهما(١).

هل يؤدّي الدعاء إلى تكاسل الإنسان وتقاعسه؟

من البحوث التي تُعالَج في باب الدعاء هي ما يتعلّق بجوانبه الاجتماعيّة وتلك المتّصلة بعلم النفس. فالبعض يثير مثل هذه الشبهة وهي: إنّ الناس إذا اعتقدوا بتأثير الدعاء فسوف يؤدّي ذلك إلى تكاسلهم في أداء أعمالهم ونشاطاتهم اليوميّة، سواء على

---

(١) راجع كتاب «معارف القرآن»، وهو للمؤلّف نفسه، وقد ترجمه إلى اللغة العربيّة الشيخ محمّد عبد المنعم الخاقانيّ.

الصعيد الشخصيّ أم ضمن الإطار الاجتماعيّ، وهذا التكاسل والتقاعس - شئنا أم أبينا - سينحدر بالمجتمع نحو هاوية التخلّف ويعطي ذريعة جيّدة بيد الأعداء الذين سيحاولون إلهاء الناس بالدعاء والأعمال العباديّة ليتفرّغوا هم لنهب ثرواتهم.

بيد أنّ الواقع يقول: إنّ كلّ حقيقة قد يُساء استخدامها بشكل أو بآخر. فإذا ما أسيء استخدام حقيقة مّا فلا ينبغي أن يُصار إلى إنكار تلك الحقيقة من الأساس. فالدعاء لا يعني أن نتخلّى عن السعي والبناء، سواء كان في البُعد الفرديّ أو الاجتماعيّ، بل إنّ مفهوم الدعاء هو أن يعتقد الشخص المؤمن أنّ المؤثّر الحقيقيّ في الوجود هو اللّه، وإنّه كلّما أحسّ بالحاجة فإنّ عليه أن يتوجّه إلى اللّه لسدّ حاجته تلك، هذا مع الإفادة - على قدره وضمن حدوده - من الأسباب المادّية التي سخّرها الباري تعالى له لمثل تلك الأغراض، ذلك لأنّ اللّه هو مَن أراد وقدّر هذا، فهو (الإنسان المؤمن) لا يعدّ تلك الأسباب مستقلّةً في التأثير، وعلى الرغم من إفادته من الأسباب المادّية، إلاّ أنّ اعتماده لا يكون عليها. فتكون النتيجة أن لا يتسرّب اليأس إلى داخله إذا لم تتهيّأ الأسباب المادّية، لأنّه على يقين من أنّ اللّه قادر أيضاً على قضاء حوائجه حتّى من خلال طرق غير عاديّة. وبالالتفات إلى هذه الحقيقة فاعتقاد الإنسان المؤمن بأثر الدعاء ليس فقط لا يؤدّي إلى تكاسله وتقاعسه، بل إنّه سيدفعه أيضاً إلى سعي أكثر ويزرع في نفسه أملاً أكبر.

فإذا انحصر اعتماد الإنسان على الأسباب المادّية فسوف لن يبدأ نشاطه وفعاليّته إلاّ عندما يكون أمله متعلّقاً بتوفّر وتحقّق تلك

الأسباب، غير أنّ الإنسان المؤمن لا يعتريه اليأس حتّى مع علمه بعدم توفّر الأسباب المتعارفة.

ففي واقعة بدر وعندما كان المسلمون في منتهى الصعوبة والضيق وكانت قوّتهم وعُدّتهم الحربيّتان أدنى من تلك التي للعدوّ بكثير، رفعوا أيديهم بالدعاء وتضرّعوا إلى اللّه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾[1] فاستجاب اللّه دعاءهم وأرسل ألفاً من الملائكة لنصرتهم، فانتصر المسلمون في تلك الواقعة. فلو لم يكن المسلمون معتقدين بالدعاء فلربّما كانوا سيفقدون معنويّاتهم القتاليّة فيتراجعون ويُهزمون.

نستنتج من ذلك أنّ الاعتقاد بالدعاء لا يقود الإنسان إلى الفشل والتخلّف بل - على العكس - إنّ عدم الإيمان بتأثير الدعاء قد يؤدّي إلى الفشل في بعض الأحيان. وفي الحقيقة إنّ هذه الشبهة نابعة من فقدان المعرفة الدقيقة بمفهوم الدعاء. فتصوُّر أنّ على الإنسان فقط أن يدعو بدلاً من إنجاز أيّ عمل أو نشاط آخر لا يحكي هذا التصوّر في الواقع المفهومَ الحقيقيّ للدعاء. إذ لابدّ لنا، حينما نسأل اللّه شيئاً، أن نعتقد من صميم قلوبنا بأنّه هو المؤثّر الحقيقيّ، وإنّ ما يوجد في متناول أيدينا إنّما هو منه، لا أن نعتبر كلّ ما نملك هو من أنفسنا، ثمّ نسعى لطلب المساعدة من اللّه عبر سبل أخرى. أليس وجود الإنسان وكلّ ما يمتلكه متعلّقاً باللّه سبحانه وتعالى؟

وليس المراد من الدعاء أن يطلب الإنسان من اللّه أن يفعل شيئاً عبر طريق غير الطرق العاديّة، فهذا إنّما هو بمثابة تحديد الواجب للّه عزّ وجلّ؛ كما لو أنّ شخصاً، يوجَد الخبز على مائدته لكنّه يقول: إلهي،

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٩.

ارزقني عن طريق آخر غير هذا. فهذا النمط من الدعاء ليس واقعيّاً. فلو كان الإنسان بحاجة إلى شيء من ربّه حقّاً، ويعتقد أنّ اللّه هو المدبّر والحكيم، فعليه أن يفيد ممّا وضعه فعلاً تحت تصرّفه، ثمّ إن شعر بنقص فيما بين يديه، فهو يسأل اللّه أن يؤَمّن له هذا النقص. من هنا إذا واجهنا شخصاً وهبه اللّه نعمة البصر فعمد إلى إغماض عينيه مخاطباً ربه: إلهي، سوف أسير مغمض العينين، فأوصلني أنت إلى مقصدي، فلابدّ أن نقول له: ألم يمنحك اللّه عينين لتستعملهما؟!

إنّ الدعاء لا يعني أن نزيح النعم التي أعطانا اللّه إيّاها بحكمته جانباً، ثمّ نطلب منه: إلهي، هب لنا نفس تلك النعم من غير هذا الطريق. هذا الكلام هو - في الحقيقة - بمثابة القول: إلهي، أنا لا أوافق على تدبيرك؛ أنت قلت: انظر بعينك، لكنّني أريد أن أنظر بأذني! رُوي أنّ موسى عليه السلام اعتلّ بعلّة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علّته، فقالوا له: لو تداويت بكذا [نبتة معيّنة] لبرئت. فقال: «**لا أتداوى حتّى يعافيني اللّه من غير دواء**». فطالت علّته، فأوحى اللّه إليه: «**وعزّتي وجلالي، لا أُبرئُك حتّى تتداوى بما ذكروه لك**». فقال لهم: «**داووني بما ذكرتم**»، فداووه فبرأ. فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى اللّه تعالى إليه: «**أردتَ أن تبطل حكمتي بتوكّلك عليّ! فمَن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟**»[1].

من الطبيعيّ أنّ اللّه عزّ وجلّ لم يجعل تدبيره الحكيم تابعاً لأهوائنا: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ...﴾[2]، لذا فعلينا أن

(١) جامع السعادات، محمّد مهدي النراقي، ج٣، ص١٨٣.
(٢) سورة «المؤمنون»، الآية ٧١.

نستفيد بالشكل المطلوب ممّا سخّره لنا وأن نذعن لتدبيره وحكمته، فهو سبحانه لا يقوم بأيّ عمل عبثاً ومن دون حكمة. فالأسباب والوسائل التي أودعها اللّه في الكون إنّما هي بمقتضى حكمته، وجميعها تصبّ في مصلحتنا ولها كلّ الأثر في حلّ مشاكلنا، فلا ينبغي لنا أن نُعرض عنها ونطلب منه تعالى أن يأتينا بالرزق من خلال طرق وسبل أخرى. فاللّه بيده التدبير، ولابدّ لنا أن نطلب منه هو، إلاّ أنّه جلّ وعلا يتخيّر السبيل الذي يراه مناسباً لتحقيق فعله. فلو أنّنا أفدنا ممّا وضعه في متناول أيدينا من أسباب، لالتفتنا إلى أنّ اللّه قد هيّأ لنا سبل الإجابة مسبقاً وما علينا إلاّ سلوكها.

وبطبيعة الحال فإنّ اللّه غير عاجز عن توفير أسباب فعله عبر قنوات أخرى (غير تلك الطبيعيّة)، بيد أنّ عدم استخدام الأسباب الطبيعيّة التي هيّأها للإنسان لا يمتّ، هو الآخر، إلى الدعاء والتوكّل بِصِلة، بل هو لا يعدو أن يكون إساءة تطبيق أو إساءة تفسير للمفاهيم الإسلاميّة ممّا ينحو إليه البعض. فليس التوكّل هو أن يكون اعتمادنا على اللّه من غير أن نفيد من الأسباب المادّية، إذ لم يهيّئ اللّه عزّ وجلّ تلك الأسباب إلاّ لنستفيد منها.

وتأسيساً على ما مرّ ذكره، فإنّ المتوكّلين الحقيقيّين هم الأكثر والأفضل من سائر الناس في مقام النشاط والعمل. فالمجاهدون الذين يتوجّهون إلى ساحات الحرب والوغى بتوكّلهم على اللّه ليقاتلوا العدوّ يكون سعيهم أكثر من الآخرين، إلاّ أنّهم، في ذات الوقت، يرون أنّ النصر من عند اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ

ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[١]. فالمجاهد الحقيقيّ إنّما يستمدّ النصر من عند اللّه لكنّه، في الوقت نفسه، لا يتجاهل ما منحه اللّه من الأسباب ويسعى إلى الإفادة منها. من هنا نفهم أنّ الدعاء الحقيقيّ إنّما يصدر من الإنسان الذي يستفيد من الأسباب والوسائل التي قدّرها الباري تعالى له، لا أن يدعها جانباً ثمّ يطلب إجابة دعائه عبر منافذ أخرى، فدعاء مثل هؤلاء الأشخاص - طبقاً لمضامين الأحاديث التي وردتنا - غير مستجاب. جاء في الروايات[٢] أنّه كان لرجل امرأة غير صالحة وكان يدعو اللّه أن يخلّصه من شرّها، إلاّ أنّ دعاءه لم يكن لِيُستجاب لأنّ اللّه قد جعل الطلاق خياراً لحلّ مشكلته، فإن كانت غير صالحة حقّاً وكانت الحياة معها لا تنسجم مع المصلحة الدنيويّة أو الأخرويّة، فبمقدوره أن يطلّقها. إذن لا معنى لدعائه. نعم، إذا كان غرضه من الدعاء أن يعينه اللّه على تحمّل أذاها ليرتقي هو في سلّم الكمالات المعنويّة، أو أن يصلح اللّه له زوجه، فإنّ مثل هذا الدعاء راجح ومطلوب، لكن إذا كان دعاؤه في غير تلك الموارد فلن يكون ذا معنى حينئذ، لأنّ سبيل النجاة من شرّ تلك المرأة متوفّر وهو الذي لا يسلكه. فإن كان هذا الرجل جادّاً في حاجته وطلبه، فلابدّ له أن يستخدم الوسيلة التي جعلها اللّه في متناول يديه.

نُقل عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: «**الداعي بلا عمل كالرامي بلا**

(١) سورة آل عمران، الآية ١٢٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، الباب ٢٢، ص٣٥٤، الحديث ٣ :«**عن الصادق** عليه السلام، **قال رسول اللّه** ﷺ **: أصناف لا يستجاب لهم، منهم .....ورجل تؤذيه امرأته بكلّ ما تقدر عليه وهو في ذلك يدعو اللّه عليها ويقول: اللهم أرحني منها، فهذا يقول اللّه له: عبدي أوَما قلدتك أمرها، فإن شئت خلّيتها وإن شئت أمسكتها.....**».

وتر»[١]، ونُقل عنه ﷺ أيضاً في حديث آخر أنّ خمسة لا يستجاب لهم أحدهم: «... **ورجل جلس في بيته وقال: اللهم ارزقني ولم يطلب**»[٢]. نفهم من ذلك أنّ الإسلام لم يجعل الدعاء أصلاً كبديل عن الأسباب والعلل المتوفّرة للإنسان، بل أراد إفهام البشر أنّ تلك الأسباب ليست مستقلّة بذاتها وأنّ تأثيرها جميعاً بيده سبحانه. من هذا المنطلق، لابدّ أن يكون توجّه الإنسان والتفاته إلى اللّه، فيطلب كلّ ما هو بحاجة إليه منه حتّى وإن تهيّأت أسبابه العاديّة. فالإنسان الموحِّد، حتّى وإن وُجد الخبز على مائدته، تراه متوجّهاً إلى اللّه، طالباً منه هو أن يسكت عنه ألم الجوع، إذ إنّ كلّ شيء في نظره هو وسيلة وإنّ المؤثّر الأساسيّ والنهائيّ هو اللّه. لذا فإنّ الدعاء مطلوب سواء توفّرت الأسباب والعلل الطبيعيّة أم لم تتوفّر. فعندما تكون الأسباب العاديّة مهيّأة، يأتي الدعاء كتعبير عن عدم اعتبار الاستقلاليّة لتلك الأسباب، والاعتقاد باستقلاليّة الخالق في التأثير، وحاجة الإنسان الماسّة إلى تفضّله ورحمته. وحيثما انعدمت الأسباب العاديّة يكون الدعاء إشعاراً بعدم محدوديّة القدرة الإلهيّة في هذه الأسباب المعروفة والاعتقاد بأنّ الباري تعالى قادر على تأمين حوائج الإنسان الداعي حتّى عبر الطرق التي لا علاقة لها بالأسباب الطبيعيّة. إذن، فالدعاء مطلوب في كلّ حال.

فإذا كان الإنسان الجائع يتمتّع بإيمان راسخ، فهو يتوجّه أوّلاً إلى اللّه سائلاً إيّاه أن يشبع جوعه، ومن ثمّ يجلس على مائدة الطعام فيأكل، وفي هذه الحالة لا تعارض ولا تزاحم على الإطلاق بين

---

(١) بحارالأنوار، ج٩٠، ص٣١٢، الحديث ١٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٥٦، الحديث ١٠.

تناوله للطعام ودعائه، لأنّه يعتبر أنّ المؤثّر الحقيقيّ والوحيد في سدّ حوائجه هو اللّه ويعتقد بكون الطعام إنّما يُشبِع لأنّ اللّه قد اقتضت مشيئته أن يجعل هذا الأثر (أي الإشباع) فيه. ومن هذا المنطلق تراه يلجأ إلى تناول الطعام، وإلاّ فالأمر بالنسبة له سِيّان؛ وُجِد الطعام أم لم يوجد، لأنّه واثق كلّ الثقة من أنّ اللّه قادر على سدّ جوعه عن أيّ طريق شاء.

لقد أوحى اللّه فيما أوحى إلى نبيّه موسى عليه السلام أن: «**يا موسى، سلني كلّ ما تحتاج إليه، حتّى علف شاتك وملح عجينك**»[1]. إنّ طلب الإنسان من ربّه كلّما يحتاج إليه ليس بمعنى أن يتوقّف الإنسان عن الكدّ والسعي وبذل الجهد ويقول: علينا فقط أن نطلب من اللّه وهو الذي عليه أن يسيّر الأمور. هذا الطراز من التفكير خاطئ. إذ أنّ حقيقة الدعاء والسؤال هي أن يدرك الإنسان ويعترف بأنّه لا يملك شيئاً من نفسه وأنّ كلّ ما لديه فهو منه سبحانه. فإنّ الذي حباه القدرة على العمل والسعي هو اللّه، وإنّ الذي هيّأ له أسباب العمل ومعدّاته هو اللّه، وإنّ الذي وهبه قوّة الفكر والتعقّل هو اللّه أيضاً. فكلّ هذه الأمور هي نعم الإله على الإنسان وعليه أن يستعملها في تأمين حوائجه.

في الواقع إنّ المفهوم الحقيقيّ للطلب من اللّه هو إقرار الإنسان بأنّ كلّ الوسائل هي من اللّه، وهذا يقودنا إلى فهم حقيقة العبوديّة التي تستلزم من البشر الطاعة والخضوع.

بناءً على ما تقدّم، فإنّ الاعتقاد بالدعاء لا يبعث على التكاسل

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، الباب ١٦، ص٣٠٣، الحديث ٣٩.

والتقاعس، ليس هذا فحسب، بل إنّ هذا الاعتقاد ـ بحدّ ذاته ـ يشكّل طاقة محرّكة تدفع بالإنسان نحو المزيد من الجدّ والاجتهاد.

آثار الدعاء

[١] الآثار التربويّة

ما هو دور الدعاء من الناحية التربويّة؟ وهل للدعاء ـ أساساً ـ دور في حياة الإنسان؟

يتصوّر البعض أنّ الأثر التربويّ للدعاء هو من باب تلقين النفس ليس إلاّ؛ بمعنى أنّ الإنسان عندما ينطق بعبارات حسنة فهو يلقّن نفسه بأنّه لابدّ أن يكون هكذا؛ فمثلاً قراءتنا لدعاء «مكارم الأخلاق» هي بمثابة تلقين أنفسنا بضرورة إصلاح أخلاقنا، واكتساب الصفات الفاضلة، ونبذ الخصال الرذيلة. هؤلاء يعتقدون بأنّ الأثر التربويّ للدعاء ينحصر في هذا الجانب ويصنّفون الأدعية الفاقدة لهذه المضامين في باب الأدعية الاستعماريّة!

هذا التصوّر نابع من قصور في الفهم ونقص في الإطّلاع على المعارف الإسلاميّة. إنّ أعظم أثر للدعاء هو تلك الحقيقة العباديّة الكامنة فيه والتي من شأنها أن تقود الإنسان إلى تكامله المعنويّ وإنسانيّته. بالطبع من الممكن أن تكون لبعض الأدعية آثار في تلقين النفس وما إلى ذلك، ولكن يمكن تشبيه تلك الآثار بحركة الفكّين أثناء تناول الطعام، حيث إنّها في الوقت الذي تقوم فيه بمضغ الطعام فهي تمارس حركات رياضيّة تساعد على تقويتها أيضاً. لكن لا يمكن اعتبار هذه الرياضة هي الفائدة الحقيقيّة من وراء تناول الطعام إذ أنّ

الفائدة الحقيقيّة لتناول الطعام تكمن في تأمين الموادّ الضروريّة للبدن. والفائدة الحقيقيّة للدعاء أيضاً هي التوجّه إلى اللّه والعبوديّة له سبحانه، وليس لمثل تلك الآثار [التلقينيّة] التي تترتّب على بعض الأدعية إلاّ فوائد ضئيلة جدّاً ولا تدخل في الحسبان إذا ما قورنت بالفائدة الأساسيّة.

إنّ كمال الإنسان يكمن في إدراك فقره تجاه اللّه واعترافه بهذه الحقيقة(١). فإن لم يعترف الإنسان بهذه الحقيقة فإنّه لا يدرك فقره على حقيقته ولا ينال الكمال الإنسانيّ. إنّ من الأمور التي تقرّب الإنسان من هذه المعرفة أو تُكَمِّل ما لديه منها هو الدعاء. فالدعاء بذاته عبادة وإنّ السبيل الوحيدة لتكامل الإنسان هي العبادة. إذن فالدعاء يمثّل إحدى السبل للوصول إلى التكامل الإنسانيّ.

وفي الآية الشريفة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾(٢) يقول الباري عزّ وجلّ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ثمّ يضيف: إنّ الذين يتهرّبون من العبوديّة لي، ويرون أنفسهم أكبر وأرفع من أن ينحنوا إجلالاً وتعظيماً للعظمة الإلهيّة، ويرفضون عبادتي بتكبّر، سيدخلون جهنّم ببالغ الذلّة والمهانة. فالجملتان المذكورتان في الآية الشريفة تمثّلان صغرى وكبرى القياس؛ فالدعاء هو عبادة الباري سبحانه، والذي يتكبّر عن عبادة اللّه سيُبتلى بعذاب أليم ومخزٍ؛ إذن: إنّ مَن يتكبّر عن الدعاء سيكون مصيره العذاب الإلهيّ.

وكما تقدّم فإنّ الفائدة والأثر الأصليّين للدعاء هو ذلك التكامل

(١) سورة فاطر، الآية ١٥: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.
(٢) سورة غافر، الآية ٦٠.

المعنويّ الذي يظفر به الإنسان من العبوديّة والاعتراف بالذلّ في مقابل اللّه تعالى. بيد أنّ هناك أيضاً آثاراً جانبيّة وفرعيّة تترتّب على الدعاء يمكن الإشارة إلى بعضها فيما يلي:

[٢] الآثار الجانبيّة

١. معرفة اللّه: إنّ من أبرز دواعي المناجاة والدعاء هي معرفة اللّه التي هي أساس كلّ السعادات ومنشأ جميع الإصلاحات.

جاء قوم إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام يشكون عدم استجابة دعواتهم قائلين: ندعو فلا يستجاب لنا. فقال: «**لأنّكم تدعون من لا تعرفونه**»[١].

إنّ جميع أسماء اللّه المباركة التي ندعوه ونثني بها عليه[٢] مفعمة بمعانيَ كثيرة وتكرارها ينطوي على فوائد جمّة من جملتها الالتفات إلى مدلولاتها الوصفيّة وتكميل معرفة الإنسان باللّه سبحانه. فحينما نطق بأسماء اللّه تعالى؛ من قبيل: الرحمن، الرحيم، السميع، البصير، المنعم، الغفور، ..الخ، نلتفت إلى أنّ لنا إلهاً رحيماً، سميعاً، بصيراً، غفوراً ممّا يجعلنا راجين رحمته وغفرانه. وعندما يتدبّر الشخص الداعي في هذه الصفات ويتعمّق بها فإنّه يعيش الارتباط بربّ لا يقف أيّ عسير أمام قدرته، بل لا وجود للعسر واليسر أساساً في قاموسه. هذه المسألة تبعث أملاً ونشاطاً متجدّداً في نفس الإنسان الذي فقد الأمل في كلّ ما حوله. وتوخّياً للإيجاز فإنّه لا داعي هنا للتذكير بمدى تأثير الأمل في حياة الإنسان ونشاطه وعمله وتحمّله للشدائد.

(١) بحار الأنوار (العلامة المجلسي)، ج٩٠، الباب ٢٤، ص٣٦٨، الحديث ٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٨٠: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

كذلك فإنّ التفات الداعي إلى حقيقة أنّه سبحانه يرى نشاطه ويسمع مقاله من شأنه دفع ذلك الإنسان إلى فعل كلّ حسن والاجتناب عن كلّ قبيح في الكلام والتصرّفات. علاوة على ذلك فإنّ بعض الأدعية تمثّل دورة دراسيّة كاملة على مستوى عال في معرفة اللّه والتوحيد. فالأدعية من قبيل دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، ودعاء الصباح، ودعاء أبي حمزة الثماليّ، والكثير من الأدعية غيرها - لاسيّما تلك الواردة في الصحيفة السجاديّة - هي من هذا الطراز.

٢. اكتساب الأخلاق الإلهيّة: لقد وردت في التعاليم الدينيّة والأحاديث الشريفة التوصية بالتخلّق بالأخلاق الربّانيّة: «**تخلّقوا بأخلاق اللّه**»[١]. فالداعي يسعى لإيجاد وتنمية الصفات الإلهيّة في نفسه. فكما أنّ اللّه عزّ وجلّ يتّصف بالرأفة والصفح، فهو يبذل جهده في أن يكون رؤوفاً متسامحاً مع الآخرين.

٣. النزاهة والطهارة: من آداب الدعاء أن يكون لباس الداعي طاهراً، وطعامه حلالاً، والمكان الذي يدعو فيه مباحاً. عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**من أحبّ أن يستجاب دعاؤه فليُطَيِّب مَطعَمه ومَكسَبه**»[٢]. حينما يكون المرء مقيّداً بعدم الإرتزاق عن طريق الحرام والابتعاد عن الكسب الباطل فإنّه سيصل إلى الكمال المعنويّ. فلو انهمك أفراد المجتمع في مثل هذا الدعاء فسيكون هذا المجتمع سعيداً، وستكون هذه المدينة فاضلة!

(١) بحار الأنوار (للعلامة المجلسي)، ج٥٨، الباب ٤٢، ص١٢٩.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، الباب ٢٤، ص٣٧٢، الحديث ١٦.

٤. قمع النفس: إنّ من أهمّ فوائد الدعاء بل حتّى سائر العبادات هي الوقوف أمام طغيان النفس. يتعرّض الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في أحد مقاطع خطبته القاصعة بشكل مفصّل إلى ذمّ الكِبر واصفاً هذه الخصلة الذميمة بأنّها من أكبر مكائد الشيطان وأقوى أسلحته في الخداع(١).

إنّ دحر الأنانيّة هو بمنزلة اجتثاث كلّ جذور الرذائل الأخلاقيّة وتهيئة النفس لاكتساب جميع الفضائل. يقول اللّه في كتابه العزيز: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾.(٢) فالمناجي بوقوفه في حضرة اللّه، والتفاته إلى كبريائه وعظمته، ووضع ضآلة نفسه وحقارتها نصب عينيه، يُظهر ما يستولي على تمام وجوده من الفقر والفاقة أمام ربّه، فيرى نفسه مستغنياً عن كلّ مخلوق، محتاجاً للّه وحده جلّ شأنه. إذن، فالدعاء يورث الخضوع والاستكانة جنباً إلى جنب مع المَنَعة والعزّة.

شروط استجابة الدعاء

لماذا لا تستجاب الدعوات غالباً في حين أنّ اللّه، في قرآنه الكريم، قد قطع على نفسه وعداً باستجابة الدعاء قائلاً: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٣)؟ فهل لاستجابة الدعاء يا ترى شروط لابدّ أن يُعمَل بها؟ هذا السؤال يراود كلّ أولئك المنهمكين في الدعاء استجابة للأمر الإلهيّ.

---

(١) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام (تحقيق د. صبحي الصالح)، الخطبة ١٩٢ (القاصعة)، ص٢٨٩: «**فاللّه اللّه في كبر الحميّة وفخر الجاهليّة! فإنّه ملاقح الشنآن، ومنافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية، والقرون الخالية....**».

(٢) سورة الشمس، الآية ٩.

(٣) سورة غافر، الآية ٦٠.

يقول علماء الكلام: إنّ الخُلْف في «الوعيد» ممكن وهو ليس بقبيح عقلاً، إلاّ أنّ عدم الوفاء بـ«الوعد» قبيح عقلاً، وارتكاب الفعل القبيح من قبل اللّه محال. إذن الخُلف في وعد إجابة الدعاء الوارد في الآية الآنفة الذكر هو قبيح من الناحية العقليّة. وعلى فرض أنّه لا يوجد دليل عقليّ على هذا أساساً، فالقرآن نفسه يصرّح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[1]. فهذه الآية وحدها كافية لأن نتوقّع الإجابة من اللّه لكلّ دعاء ندعو به. فإذا كان الوفاء بالوعد واجباً، والتأكيد الإلهيّ على ذلك واضحاً، فما هي علّة عدم استجابة دعواتنا؟

هذا السؤال وُجّه مراراً إلى أئمّتنا الأطهار عليهم السلام وكانوا يجيبون مختلف الأشخاص على ذلك بما يتناسب مع إدراك كلٍّ منهم. لقد وردت في بعض الروايات شروط للداعي، وآداب وأوقات خاصّة للدعاء. لكن هل يعني هذا تقييداً لإطلاق الآيات القرآنيّة؟ أي: هل استجابة الدعاء مشروطة بزمان أو مكان أو حال معيّن؟ وإذا كان في غير تلك الأوقات والحالات، ألا يتحقّق الوعد الإلهيّ؟ أم إنّ لتلك الروايات معانيَ أخرى؟

المستفاد من ظاهر هذه الآية أنّها مطلقة وإنّ احتمال تقييدها ضعيف للغاية. لتوضيح هذا المعنى نورد مثالاً: لو أنّ إنساناً سخيّاً دعى نفراً من الناس إلى مائدته فلبّوا دعوته لكنّه لم يقدّم الطعامِ لأغلب المدعوّين، أفلا يعترضون عليه قائلين: لماذا لم تف بوعدك؟ فإن كان ردّه: لأنّ ثيابكم غير نظيفة أو لأنّكم تأخّرتم بضع دقائق عن الموعد مثلاً، فسيكون ردّه مرفوضاً لأنّ دعوته كانت مطلقة ولم تكن

(١) سورة الرعد، الآية ٣١.

مقيّدة بمثل هذه الشروط. إذن، يتحتّم عليه أن يفي بوعده وأن يقوم بواجب تقديم الطعام للجميع، إلاّ أن يكون هناك دليل قطعيّ على تقييد كلامه.

لفهم هذه الآية بشكل أفضل لابدّ من التمعّن فيها والتدقيق في مضمونها:

[١] ما معنى «أُدعوا»؟ هل معنى «الدعاء» هو أن نذكر حوائجنا بألسنتنا حتّى وإن كنّا لا نفهم مدلولات الكلمات التي نتلفّظها؟ أو إنّنا نفهم معانيها إلاّ أنّنا لا نلتفت إليها؟ أو إنّنا نتوجّه إلى المعنى من دون أن تكون الحوائج منسجمة مع ميولنا القلبيّة؟

صحيح أنّ التفوّه بألفاظ مصحوباً بطلب الحاجة يقال له «دعاء» في العادة، تماماً مثلما نادي شخصاً ونطلب منه شيئاً مّا. إلاّ أنّ الألفاظ تُنبِئ عمّا في الضمير وليس لها أصالة بذاتها. فليست القضيّة أنّ هيئة اللفظ لها أثر في سير الأحداث في هذا الكون، ولا أنّ أيّ لفظ يجري على لسان أيّ شخص يكون ذا وقع وتأثير. فكما أشرنا سابقاً، إنّ الدعاء مسألة قلبيّة وإنّ اللسان يحكي ما في القلب ليس إلاّ. إذن لابدّ أن يصدر الدعاء من القلب والروح وأن يكون الإنسان حقّاً طالبَ حاجة، فإن اقتصر دعاؤه على النطق بالكلمات من دون توجّه من ناحية القلب، فإنّه ـ في الحقيقة ـ لم يطلب بشكل جدّي، بل إنّه لم يدعُ أصلاً.

يجب أن يكون الدعاء مشفوعاً بطلب قلبيّ جادّ وأن يتوجّه الإنسان أثناء الدعاء إلى ما يطلب. وفي الواقع فإنّ جُلّ ما اعتدنا على أن ندعو به هو من قبيل العادة ومجرّد لقلقة لسان؛ فلقد اعتدنا عقب كلّ صلاة

أن نتلو بضع جمل من باب الدعاء من دون أيّ توجّه جدّي إلى ما نقول أو أن يكون لدينا حاجة واقعيّة عند اللّه.

[٢] لابدّ أن يكون الدعاء مصداقاً لـ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾؛ أيّ أن يكون الطلب من اللّه فحسب. فلو راعى الداعي الشروط المذكورة آنفاً، بعيداً عن توجّه القلب إلى اللّه، فهو - في واقع الأمر - لم يَدعُ أصلاً؛ كما لو كنّا نطلب العلم، وكنّا راغبين في العلم حقّاً، وجادّين في طلبنا هذا، بيد أنّنا نتصوّر أنّه لا دور للّه في صيرورة المرء عالماً، والمسألة تتوقّف على الجدّ والاجتهاد فقط. فقد نقول: «**اللهمّ إنّي أسألك علماً نافعاً و... وعملاً زاكياً**»(١)، لكنّنا، في أعماق أنفسنا، لا نؤمن بأنّ اللّه هو الذي يهب العلم. وبتعبير آخر، إنّنا نسعى وراء البعد التلقينيّ للدعاء؛ وهو أنّ العلم أمر حسن ولابدّ من السعي في طلبه، ولا نفهم من كلمة «اللهمّ» إلاّ ما نفهمه من عبارة «إن شاء اللّه» التي نستعملها في معظم أمورنا كشكليّات ليس إلاّ، ولا نعني بها واقعاً تعليق الأمور على مشيئة اللّه؛ بالضبط كاستعمالنا لـ«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم» في مستهلّ أيّ عمل نقوم به كشكليّات فحسب، ويندر أن نكون ذاكرين للّه فعلاً أو أن تكون نيّتنا البدء بأيّ عمل من أعمالنا باسمه وذكره جلّ شأنه. إنّ أغلب أدعيتنا على هذا النحو، فمع أنّنا - ظاهراً - نطلب الحاجة من اللّه، غير أنّنا - في الواقع - لا نعتقد بأنّ اللّه هو الذي يلبّي هذه الحاجة. في حالة كهذه يجب أن لا نتوقّع إجابة دعائنا.

إنّ هذه الأدعية - التي لا تتخطّى حدّ التلفّظ بالكلمات ولا تمثّل طلباً واقعيّاً من الباري عزّ وجلّ - لا تُتوّج بالإجابة؛ ذلك أنّ طلبنا

(١) بحار الأنوار، ج٩٨، الباب ٢٤، ص٣٢٤، الحديث ٨.

الحقيقيّ ليس من اللّه بل إنّنا نعتمد في تحقّق طلباتنا على الأسباب المادّية وقدراتنا الشخصيّة. وإذا سألنا أولئك الذين يدعون بهذه الأدعية: هل حقّاً إنّ اللّه هو الواهب للعلم وهو الموفّق للعمل؟ انبروا بالجواب مجادلين: كلاّ.. فهذا الأمر لا علاقة له باللّه إطلاقاً! إذن هذه المسألة بالذات - وهي أنّ هؤلاء لا يعتقدون بقدرة اللّه تعالى، ولا يريدون منه شيئاً في الواقع - هي العلّة من وراء عدم إجابة مثل تلك الأدعية.

وبناءً على هذا، فإنّ الدعاء الحقيقيّ هو أن يكون الطلب من اللّه خصوصاً، وأن نعتقد بأنّ نيل المطلوب بيده وحده، وإلاّ فإنّ الدعاء سيتحوّل إلى ضرب من الشكليّات. أمّا إلى أيّ مدى تكون هذه الشكليّات مفيدة؟ فهذا بحث آخر لا مجال لمناقشته هنا، وخلاصة الأمر إنّه ليس دعاءً حقيقيّاً، كما هو حال الكثير من المجاملات التي نتبادلها في حياتنا اليوميّة؛ كأن نسأل صديقاً: كيف حالك؟ فيجيب: الحمد للّه، بصحّة جيّدة ببركة دعائكم! في حين قد لا يكون هناك دعاء أصلاً، وجوابه محض مجاملة.

وفي الواقع، يتعيّن علينا أن نستغفر الباري تعالى من هذا النوع من الأدعية لأنّنا، بهذا النمط من الدعاء وبهذا الطراز من التفكير، قد نسبنا الضعف وعدم القدرة إلى اللّه، واعتقدنا بأمور هي ليست من شأنه سبحانه.

إنّ الآية: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ هي جملة شرطيّة وردت في صيغة الأمر، والمراد منها: «إن دعوتموني، استجبتُ لكم». هذا الشرط يتحقّق في حالتين: الأولى: أن نكون جادّين في طلبنا، والثانية: أن

يكون طلبنا موجّهاً إلى اللّه معتقدين بتأثيره في تحقّق ما نطلب. فإذا كان ذلك، تحقّقت شروط استجابة الدعاء. حينئذ، أيمكن القول إنّ مثل هذا الدعاء لن يستجاب أيضاً؟

يُنقل أنّ بني إسرائيل أصابهم قحط شديد، فخرج موسى عليه السلام مع جمع منهم إلى خارج المدينة لأداء صلاة الاستسقاء، فأوحى اللّه إليه: «**كيف أستجيب لهم وقد أظلّتْ عليهم ذنوبُهم... يدعونني على غير يقين**»[1]، أي غير موقنين بقدرة اللّه على ما يطلبون.

[٣] المسألة الأخرى التي تجدر الإشارة إليها هنا تتعلّق بلوازم استجابة الدعاء. فقد ندعو اللّه لمسألة مّا، ونحسب أنّ صلاحنا يكمن في استجابة هذا الدعاء، بل ونرى أنّنا سنصيب كمالاً بنيل تلك الحاجة، لكنّنا في الواقع نكون مخطئين في تشخيص المصداق، فنحن نجهل التبعات المترتّبة على تحقّق هذا الطلب وهل إنّها تعود على حالنا بالنفع أم لا؟ فلو كنّا مدركين للوازم طلبنا هذا لتغيّرت صيغة دعائنا حتماً. وبعبارة أخرى، إذا قال لي اللّه: إنّ استجابتي لمسألتك تستلزم كذا وكذا من التبعات، فهل لازلتَ مستعدّاً لتحقّق الإجابة مع ترتّب هذه النتائج؟ فإنّ جوابي سيكون بالنفي قطعاً. هذا النوع من الطلبات يشبه طلب الطفل من أبويه عندما يريد شيئاً ولا يدرك مدى ضرره عليه ولو أنّه اطّلع على ما فيه من ضرر لما طلبه أصلاً.

أحياناً، عندما تكون مصلحتنا الكلّية هي محور الدعاء ولكنّنا نخطئ في تشخيص المصداق الذي تكون فيه هذه المصلحة، من

(١) الجواهر السنيّة (الحرّ العامليّ)، الباب السابع فيما ورد في شأن موسى عليه السلام، ص١٥٨.

الممكن أن يُجاب دعاؤنا ولكن بحسب مصلحتنا الواقعيّة. ففي أمثال هذه المواقف قد يتجاوز اللّه سبحانه وتعالى عن خطئنا ويستجيب لدعائنا بحسب ما تقتضيه المصلحة الكلّية مورد الطلب، فيعطينا ما لو علمنا به لطلبناه بعينه. وهكذا، فإنّ اللّه سبحانه لم يحرمنا من لطفه من جهة، وقد صحّح خطأنا من جهة أخرى.

فإن أخذنا بنظر الاعتبار هذه النقاط الثلاث المُنتزَعة من الآية الكريمة - ألا وهي: جدّية الطلب، والمسألة من اللّه، ومصلحتنا الواقعيّة - أمكننا القول إنّه لا يوجد قيد ولا شرط في إطلاق الآية. إنّ معظم شروط الدعاء الواردة في الروايات مستوحاة من هذه النقاط المذكورة. نعم، إنّ البعض منها هو من قبيل الآداب التي لها أثر في كمال الدعاء وكمال التوجّه إلى اللّه ولا تعدّ تقييداً أو تخصيصاً لمضمون الآية الشريفة.

وفي أحيان أخرى، قد يتفضّل الباري عزّ وجلّ على الإنسان بمقامات أخرويّة عوضاً عن استجابة الدعاء في الدنيا. وهذا الموضوع يرتبط بالنقطة الثالثة المنتزَعة من الآية الكريمة. فلو أدرك الشخص المؤمن بالآخرة أنّه لا مجال للمقارنة بين طلبه الدنيويّ والجزاء الأخرويّ، لطلب قطعاً ما فيه سعادته وكماله، إلاّ أنّ الغفلة هي التي جعلته ينشغل بالمسائل الدنيويّة، ولو كُشفت له الحقيقة بأنّه أحوج إلى مثل تلك الأمور في الحياة الآخرة، لطلبها لآخرته.

إنّ اللّه سبحانه وتعالى قد يدّخر دعوات المؤمن، التي يطلب فيها المسائل المادّية، لآخرته لعلمه بأنّ رغبة الإنسان المؤمن بالأمور الأخرويّة أشدّ بسبب إيمانه. وعندما يحين الوقت ليطّلع على ما ظفر

به من مقامات في ذلك العالم فسيشكر اللّه على ذلك وسيُسَرّ بمثل هذه المعاملة معه. في دعاء الافتتاح هناك إشارة إلى هذه القضيّة: «... **ولعلّ الذي أبطأ عنّي هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور**»[1]، أي لعلّ تأخّرك في إجابة دعواتي يصبّ في مصلحتي وخيري لأنّك على اطّلاع على ما ستؤول إليه الأمور وعلى مصالح الحياة ومفاسدها. كما يُنقل عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلاّ أعطاه اللّه بها إحدى ثلاث: إمّا أن يعجّل دعوته، وإمّا أن يدّخرها له في الآخرة، وإمّا أن يكفّ عنه من الشرّ مثلها**»[2].

إنّه لَلطف كبير حيث لا يهتمّ اللّه سبحانه بدعوة العبد فحسب، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيضع سعادة العبد وكماله الحقيقيّين في حساباته فيلبّي حوائجه على أساس مصالح العبد الحقيقيّة، فيقدّم البعض، ويؤخّر البعض الآخر، ويدع قسماً ليوم القيامة كذخيرة لآخرته.

وبالإضافة إلى ما مرّ ذكره، فهناك أسباب أخرى لعدم استجابة الدعاء تشير إليها الأحاديث. فقد ورد في بعض الروايات أنّ الذين يتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يبتليهم اللّه بصنفين من البلاء: يتمثّل الأوّل في عدم استجابة دعواتهم، والثاني يتمثّل في تسلّط شرار الخلق على رقابهم[3]. شكى رجل لأمير المؤمنين عليه السلام

(١) مفاتيح الجنان (للشيخ عبّاس القمّي)، دعاء الافتتاح.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، الباب ٢٣، ص٣٦٦، الحديث ١٦.

(٣) نهج البلاغة (تحقيق د. صبحي الصالح)، من وصيّة له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لمّا ضربه ابن ملجم لعنه اللّه (٤٧)، ص٤٢٢: «**لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيُولى عليكم شراركم ثمّ تدعون فلا يستجاب لكم**».

عدم استجابة دعائه، فبيّن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أسباب ذلك بما يلي: «إنّ قلوبكم خانت بثمان خصال:

أوّلها: أنّكم عرفتم اللّه فلم تؤدّوا حقّه كما أوجب عليكم فما أغنت عنكم معرفتكم شيئاً.

والثانية: أنّكم آمنتم برسوله ثمّ خالفتم سنّته وأَمَتُّم شريعته فأين ثمرة إيمانكم.

والثالثة: أنّكم قرأتم كتابه المنزل عليكم فلم تعملوا به وقلتم سمعنا وأطعنا ثمّ خالفتم.

والرابعة: أنّكم قلتم إنّكم تخافون من النار وأنتم في كلّ وقت تَقْدَمون إليها بمعاصيكم فأين خوفكم.

والخامسة: أنّكم قلتم إنّكم ترغبون في الجنّة وأنتم في كلّ وقت تفعلون ما يباعدكم منها فأين رغبتكم فيها.

والسادسة: أنّكم أكلتم نعمة المولى ولم تشكروا عليها.

والسابعة: أنّ اللّه أمركم بعداوة الشيطان وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1]، فعاديتموه[2] بلا قول وواليتموه بلا مخالفة.

والثامنة: أنّكم جعلتم عيوب الناس نُصْب عيونكم وعيوبكم وراء ظهوركم تلومون من أنتم أحقّ باللوم منه.

فأيّ دعاء يستجاب لكم مع هذا، وقد سددتم أبوابه وطرقه، فاتقوا

(١) سورة فاطر، الآية ٦.

(٢) لسان العرب، ج١٥، ص٤٠؛ ورد في لسان العرب أنّ معنى «عاديتموه» هو: واليتموه.

اللّه، وأصلحوا أعمالكم، وأخلصوا سرائركم، وامروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، فيستجيب اللّه لكم دعاءكم».(١)

وبغضّ النظر عن ذلك، فإنّنا لا نعتبر ما تناله أيدينا عبر القنوات الطبيعيّة إجابة للدعاء، أو أنّه من عند اللّه، في حين أنّ القرآن ينسب كافّة الأمور إلى اللّه. وعلاوة على هذا، وطبقاً لصريح القرآن، فإنّ اللّه غير ملزم بإمضاء الدعاء من دون أيّ قيد أو شرط كما نتصوّر نحن. فلو كان من المقرّر أن يُجاب دعاء كلّ عبد، لأدّى ذلك إلى اجتماع النقيضين واضطراب نظام الكون بأكمله، يقول اللّه في محكم كتابه العزيز: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾(٢). فالباري عزّ وجلّ لم يمتنع عن إجابة دعاء نبيّه نوح عليه السلام بخصوص إنقاذ ولده فحسب، بل عاتبه على ذلك أيضاً قائلاً: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾(٣).

وبصرف النظر عمّا تقدّم، فعلى فرض أنّ مدلول الآية الشريفة: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ ـ ووفقاً لظاهرها ـ هو تنفيذ اللّه لطلبات عبده من دون نقاش، فإنّ تعيين زمان التنفيذ يبقى بيده سبحانه. فعندما دعى نبيّ اللّه يعقوب عليه السلام طالباً من ربّه ردّ ولده يوسف إليه، استجاب اللّهُ دعاءَه لكنّ الإجابة استغرقت ما يقارب أربعين عاماً.

جاء في بعض الروايات أنّ العبد المؤمن يدعو اللّه أحياناً فيقول

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، الباب ٢٤، ص٣٧٦، الحديث ١٧.

(٢) سورة «المؤمنون»، الآية ٧١.

(٣) سورة هود، الآية ٤٦.

اللّه لملائكته: إنّ دعاءه مستجاب، لكن لا تعجّلوا في الإجابة فإنّي أحبّ أن أسمع صوته[1]. هذا البحث يأتي تأييداً للقول الذي يؤكّد على أنّ اللّه تعالى يؤخّر إجابة الدعاء بالنظر إلى الكمال الروحيّ الذي يصيبه الإنسان في ظلّ الارتباط مع اللّه والدعاء وطَرْق بابه، وأنّ إرادة الباري أيضاً تقتضي إيصال الإنسان إلى المزيد من الكمالات. وفي الواقع، فإنّ كمال الإنسان الحقيقيّ يكمن في ارتباطه مع اللّه لا في استجابة دعائه؛ فمثلاً، الشخص المبتلى بمرض تراه، من شدّة الألم الذي يقاسيه، يلجأ إلى حضرة المولى فيطرق بابه متوسّلاً طالباً منه الشفاء. إنّ دعاءه هذا هو الذي يوجب كمال روحه وقربه من اللّه فتسمو بذلك روحه. في حين لو أنّه تماثل للشفاء من أوّل يوم، لانقطع دعاؤه، ولأشاح بوجهه عن اللّه، أو لقَلّ التفاته إليه جلّ شأنه على أقلّ تقدير. وكذا الإنسان الذي يطلب من اللّه ثروة لينفقها في سبيل اللّه فينال بذلك الأجر والثواب، غير أنّ اللّه، ومن باب علمه بأنّه لو أصبح ثريّاً لانصرف عن ذكر ربّه، فإنّه لا يعطيه الكمال الذي يصبو إليه، لكنّه سبحانه يهيّئ له سبيل الإنفاق عن طريق آخر ليحصل على عين ذلك الثواب الذي أراده.

وعلى أيّ حال، فاللّه سبحانه يستخدم هذا النوع من الولاية في حقّ عباده المؤمنين، وتُعدّ هذه الأُمور من شؤون ولاية اللّه على المؤمنين.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، الباب ٢٤، ص٣٧٤، الحديث ١٦: عن الصادق عليه السلام: «**إنّ العبد الوليّ للّه يدعو اللّه في الأمر ينوبه فيقال للملك الموكّل به: اقض لعبدي حاجته ولا تعجّلها فإنّي أشتهي أن أسمع نداءه وصوته**».

ولاية اللّه على المؤمنين

هناك نوعان لولاية اللّه على الإنسان:

١. ولاية عامّة على كلّ البشر بما أنّه الوليّ المطلق وأنّ له ولايةً على جميع الموجودات.

٢. ولاية خاصّة على المؤمنين والتي يشير إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[١].

ومثل هذا يجري أيضاً في مجال هداية اللّه فإنّها تنقسم إلى قسمين: هداية عامّة تشمل البشريّة جمعاء تتمثّل بما أعطاهم من عقل ووسيلة للتمييز، وهداية خاصّة تختصّ بالمؤمنين منهم؛ أي إنّ الأشخاص الذين يلبّون دعوة الأنبياء ويذعنون للأمر الإلهيّ يهتدون إلى سبيل الحقّ بفضل تلك الهداية فيهبهم اللّه نورانيّة أشدّ، وإدراكاً أصحّ، ومعرفة أعمق. هذه الهداية تنحصر بأولئك الذين آمنوا باللّه، وأوكلوا كلّ ما يملكون إليه سبحانه. يقول أبو عبد اللّه الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**إلهي أغنِني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك عن اختياري**»[٢]. فالذين يصلون إلى هذه المرتبة يستعمل اللّه ولايته الخاصّة في حقّهم، فيتصرّف في جميع شؤون حياتهم، ويدير كافّة أمورهم، ويغنيهم عن تدبير أنفسهم. من هذا المنطلق، تراه أحياناً يختار لعبده المؤمن المرضَ عوضاً عن الصحّة، والفقرَ بدلاً من السعة. بل إنّ العبد حينما يكون عليلاً ويدعو لبرئه، قد تشتدّ علّته في إثر الدعاء! وهذه في الحقيقة نعمة من اللّه من أجل أن

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

(٢) مفاتيح الجنان (للشيخ عبّاس القمّي)، دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

يتضاعف - بتأثير الدعاء - استعداده وتحمّله فينال كمالات أعظم جرّاء صبره. وفي السياق نفسه، نجد أنّ بعض دعواتنا تُدّخر لمصالح الآخرة بدلاً من أن تُستجاب في أمور الدنيا، أو أنّها تُجاب في أمر آخر وفقاً لما تقتضيه المصلحة الدنيويّة للفرد الداعي.

وبالطبع فإنّه لا يتيسّر لأيّ امرئ فهم مثل هذه الأمور وإنّما هذا الكلام مقتصر على أولئك الذين نالوا تلك المقامات.

إنّ استخدام هذا النوع من الولاية من قبل اللّه يختصّ بعباده المخلصين ولا يتعدّاهم إلى غيرهم. وبالطبع فإنّ اللّه منزّه عن البخل، غير أنّ السبب من وراء عدم استخدام مثل هذه الولاية في مجال الآخرين هو أنّهم لم يريدوا ذلك، إذ لابدّ للإنسان أن يسير على أساس اختياره، وأن يضع نفسه تحت تصرّف المولى بدافع من ميله ورغبته ليُجري اللّه عليه كلّ ما يرى فيه صلاحه، وإلاّ فلن يستعمل اللّه ولايته الخاصّة إكراهاً على مَن لا يرغب بذلك.

الدعاء مطلوب بذاته

على الرغم من أنّ دعاءنا يأتي في العادة لقضاء الحاجة وتأمين طِلباتنا المادّية؛ أي إنّنا لا نمدّ أيدينا إلى حضرة العليّ القدير ونستمدّ منه العون إلاّ حينما نواجه المتاعب ونستشعر النقص، غير أنّ نفس الدعاء والنجوى مع اللّه هما أعظم أهميّة من الإجابة.

وبطبيعة الحال، فإنّ هذا العمل، إضافة إلى كونه من لوازم الاعتقاد بالربوبيّة الإلهيّة وإظهار العبوديّة، فمن الممكن أن يكون له أثر في بناء الإنسان. لكن لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ فلسفة الدعاء، أو

المناجاة بشكل عامّ، لا تقتصر على قضاء الحوائج - الدنيويّة منها على وجه الخصوص - بل، وحسب ما يُستشَفّ من مضامين أغلب الأدعية الواردة عن المعصومين عليهم السلام، إنّ للدعاء والنجوى مع اللّه بحدّ ذاتهما خصوصيّةً، سواء تحقّقت الإجابة أم لم تتحقّق، فنفس «الطلب» أهمّ من «المطلوب».

إنّ المناجاة والأُنس مع اللّه لَعلى جانب من القيمة واللذّة بحيث لو أدرك ذلك الإنسان فإنّه سوف لن يلتفت على الإطلاق إلى المسائل الماديّة والدنيويّة فضلاً عن أن يطلبها من اللّه. لذا فإنّ ما يتمتّع بسهم أكبر من الأهميّة في الدعاء هو التحدّث والنجوى مع اللّه، فقيمة ذلك أكبر بكثير من تحقّق الموضوع المطلوب. فمجرّد أن ينال العبد لياقة الخلوة مع مولاه والإفصاح له عن مكنون صدره يُعدّ أثمن وأنفس بكثير من الحصول على مطلوبه، إذ أنّه لم يُسمَح له بالتحدّث إلى ربّ العالمين فحسب، بل إنّ اللّه دعاه أيضاً للتحدّث معه وذلك من خلال لفظة ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾[1]، فطوبى لمثل هذا العبد!

وتأسيساً على ذلك، فإنّ مطلوبيّة الدعاء ليست من باب تأمينه للطلبات الماديّة - وإن كانت متضمّنة فيه أيضاً - بل إنّ الدعاء ذاته والنجوى مع ربّ العزّة هي من أسمى القيم.

وبغضّ النظر عن الواقعيّات في الخارج وحقيقة استجابة الدعاء، فالإيمان بالدعاء والاطمئنان به هما ممّا يصوغ شخصيّة الإنسان ويوسّع دائرة مشاعره وأحاسيسه. فالشخص الداعي ينال في عالمه الباطنيّ والنفسيّ من اللذائذ والموفّقيّات والحالات المعنويّة ما

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

يعجز غيره عن نيله وإدراكه، وتلك الحالات هي المعيار لنضج شخصيّة الإنسان المؤمن وتكاملها.

آداب الدعاء

قال الصادق عليه السلام : «**احفظ آداب الدعاء وانظر من تدعو وكيف تدعو**»(١).

كيف ندعو؟ هل للدعاء آداب وشروط؟ وهل لابدّ له من زمان معيّن ومكان خاصّ؟

ما يُستنبَط من روايات أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ومن الآيات القرآنيّة هو أنّه لا يوجد زمان معيّن ولا مكان خاصّ للوقوف على باب الإله الكريم، فباب الرحمة الإلهيّة مُشرَع على الدوام بوجه السائلين، وفي أيّ وقت يتوجّه قلب الإنسان إلى اللّه، فإنّ اللّه حاضر للإجابة. نعم، لا ريب في أنّ بعض الأوقات الخاصّة؛ كليلة القدر أو ليلة الجمعة، أو بعض الأمكنة المحدّدة؛ كالمسجد الحرام أو الحائر الحسينيّ أو مشاهد سائر الأئمّة الأطهار عليهم السلام تتمتّع بامتيازات خاصّة في هذا الصدد، أمّا القرآن والروايات فقد ذكرا آداباً أخرى للدعاء من أهمّها الالتفات إلى عظمة الباري في أثناء الدعاء وقبل البدء به.

يقول عزّ من قائل: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(٢). ورد في هذه الآية الأمر بالدعاء، بيد أنّ الآية تقول: فليكن الدعاء بتضرّع وعلى

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، الباب ١٧، ص٣٢٢، الحديث ٣٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٥٥.

نحو خافت. إذن يُستفاد من الآية أمران: الدعاء بصوت خافت، وأن يكون بحالة من التضرّع؛

١. فاللّه قريب من عباده، يسمع مسألتهم، لذا لا حاجة إلى رفع الصوت والصياح. لقد نُهي المؤمنون عن رفع أصواتهم في حضرة الرسول الأكرم ﷺ، فما بالك إذا كان المخاطَب هو اللّه سبحانه وتعالى؟ فالذي يشعر بوجوده في محضر اللّه يستحي أن يرفع صوته في حضوره.

٢. كما جاء ذكر «التضرّع» في القرآن مراراً ممّا يدلّ على أنّ الدعاء ليس مجرّد تلقين للنفس - كما يتصوّر البعض - بل يشمل أموراً أخرى، وإلاّ لكان للتلقين أشكال أخرى أفضل من «التضرّع».

لقد ورد التضرّع في آيتين قرآنيّتين بنفس المفهوم؛ فقد جاء في إحداهما: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[١]، وجاء في الأخرى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾[٢]. حيث نجد أنّ المسألة التي تشدّد عليها هاتان الآيتان هي دعوة الناس إلى «التضرّع» إلى اللّه. لكن، لماذا التضرّع؟ وما الجدوى من تضرّعنا؟ ولأيّ غرض ورَد هذا التأكيد من قبل الباري تعالى على هذه المسألة؟

إنّ هذه المسألة هي من المواضيع التي أُشبِعت بحثاً ومناقشة ولا يتّسع هذا المقال للغور في تفاصيلها، لكنّنا نشير إليها بإيجاز:

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٩٤.

إنّ تركيبة الروح البشريّة قد جُعلت بحيث إنّها إذا لم تتضرّع إلى حضرة الحقّ فهي تُصاب بآفات شتّى. فالتضرّع يقي الإنسان من الأنانيّة والتمرّد، ويكشف له بوضوح منزلته وموقفه في مقابل اللّه سبحانه وتعالى، ذلك أنّ التضرّع ناشئ من فقدان الشخصيّة. فالإنسان عندما يبكي وينحب فإنّه يؤكّد على لون من الخسارة وعلى نوع من الشعور بالانكسار، وهذه الحالة هي أفضل الحالات للعبادة وإظهار العبوديّة في الحضرة الإلهيّة. جاء في الحديث القدسيّ أنّ اللّه قال لعيسى عليه السلام: «**يا عيسى... ولا تَدْعُني إلاّ متضرّعا إلَيّ**»[١]، وفي موضع آخر: «**يا عيسى ذلّل قلبك**»[٢].

إنّ الظفر بحالة التضرّع والتوفيق للوصول إليها هو بإرادة اللّه. فليس الأمر هو أنّنا نستطيع البكاء أو يمكن أن نوفّق إلى التضرّع متى ما شئنا. بالطبع، إنّ إظهارنا للذلّة والترابيّة والتضرّع والبكاء لا تعود بشيء من النفع على اللّه، فالإنسان أضعف من أن يؤثّر على اللّه بأعماله. إلاّ أنّ اللّه بخلاّقيّته وفيّاضيّته وبدافع من لطفه - هو من يفيض علينا حالات من هذا القبيل فينمّي بها إيماننا وهدايتنا ومعرفتنا، ويوفّقنا لأن نتنبّه إلى ذنوبنا فنعترف بها. هذا كلّه من ألطاف اللّه عزّ وجلّ علينا.

إنّ ما يحول بين الإنسان وربّه هو أنانيّة الإنسان وغروره وعُجبه بنفسه. فإذا أزال الإنسان تلك الحجب، ورأى نفسه ذليلاً حقيراً مسكيناً مستكيناً أمام اللّه، حينذاك سيُشمل بالرحمة الإلهيّة الواسعة. فالرحمة الإلهيّة أشبه بشلاّل الماء الدائم الانهمار والتدفّق، ونحن

(١) بحار الأنوار، ج١٤، الباب ٢١، ص٢٩٠، الحديث ١٣.
(٢) بحار الأنوار، ج١٤، الباب ٢١، ص٢٩٨، الحديث ١٣.

باستطاعتنا أن نُدخل أنفسنا في هذه الرحمة الواسعة بواسطة الاعتراف بذنوبنا وبحالة التضرّع والبكاء، وهذه الحالة تحصل من خلال سحق أنانيّتنا لينمو بذلك استعدادنا وقابليّتنا للانتفاع بها بشكل أفضل، وإلاّ فإنّ أعمالنا لا تجلب لنا الرحمة.

كما ذكرنا في صفحات سابقة، فإنّ حقيقة الدعاء هي إظهار الذلّة والعبوديّة أمام اللّه، وكلّما كان هذا الإحساس بالذلّة أشدّ، كان الإنسان أكثر قرباً من اللّه تعالى. وبالطبع، فإنّ اللّه سبحانه وتعالى ليس - والعياذ باللّه - دكتاتوراً أنانيّاً مغروراً يحبّ أن يركع الجميع له إجلالاً وإعظاماً فيلتذّ بذلك ويُشبع غرائزه، بل - وكما قد ذُكر في محلّه - إنّ اللّه غنيّ كلّ الغنى عن جميع العباد، وإنّه حتّى وإن لم يكن قد أوجد أيّ مخلوق، لم يكن ليستشعر الوحشة أو الوحدة على الإطلاق، فهو تماماً كما كان قبل خلقهم. فاللّه في ذاته واجد لجميع الكمالات ممّا لا نهاية له، وإنّ إظهار غيره للذلّة أمامه لا يبعث فيه أيّ إحساس، ولا يضفي عليه أيّ كمال كان فاقداً له فيما سبق.

وبطبيعة الحال، فإنّ اللّه يرضى عن عبادتنا لأنّها من موجبات كمالنا، وإنّ من أعلى مراتب الكمال الإنسانيّ هو أن يتعرّف الإنسان على نقصه في مقابل اللّه، ويدرك ارتباطه به، الذي هو عين الفقر والتعلّق، وفي ظلّ هذه المعرفة وهذا الإدراك ينال كلّ شيء. هذا هو سرّ ارتباط الإنسان بربّه والذي بواسطته يصل إلى لقاء اللّه. فما لم يدرك الإنسان فقره وفاقته إلى اللّه، ويعترف بذلك له سبحانه، فإنّه لن يتحقّق ارتباطه معه؛ لأنّ وجوده هو عين الارتباط وعين الفقر، وهذا الموضوع قد تمّ إثباته في محلّه.

ومن جملة الشروط والآداب الأخرى للدعاء هو أن يتمتّع الداعي بحالتي الخوف والرجاء. فالدعاء، في الحقيقة، هو توجّه الإنسان إلى اللّه، وتقوية رابطة العبوديّة، تلك الرابطة التي يكون أحد طرفيها الإله المتعال وطرفها الآخر العبد الآثم. فعندما ينتبه الإنسان إلى ذنبه تساوره حالة من الخجل والحياء، وحينما يلتفت إلى رحمة اللّه ينبعث فيه الأمل والرجاء. فلابدّ للإنسان أن يكون - من ناحية - مضطرباً خائفاً من العذاب الإلهيّ، وأن يتنبّه - من ناحية أخرى - إلى أنّ اللّه إذا غفر له جميع ذنوبه فلن يضرّ اللّه ذلك شيئاً. هذا هو مزيج الخوف والرجاء الذي يجب أن يملأ قلب الإنسان على الدوام، وهذه النقطة بالذات قد حظيت باهتمام ملفت في دعاء «أبي حمزة الثماليّ».

وذُكرت أيضاً آداب أخرى للدعاء من جملتها ما جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام إذ قال: «**تبدأ فتحمد اللّه وتمجّده، وتذكر نعمه عليك فتشكره، ثمّ تصلّي على النبيّ وآله، ثمّ تذكر ذنوبك فتقرّ بها ثمّ تستغفر منها**»[1]. كما وتطرّقت الروايات أيضاً إلى جملة من الآداب التي ذُكر أنّ لها الأثر في تقوية العلاقة بين العبد وربّه وحضور قلبه في أثناء دعائه، منها: الكون على وضوء، ورعاية النظافة وطهارة الظاهر والباطن، وخلوّ القلب من الحقد والضغينة على المؤمنين، والصفح عن زلل الآخرين، والتصدّق قبل الدعاء، والدعاء للآخرين قبل نفسه، والصلاة على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وآله في مستهلّ الدعاء وفي منتهاه. والقضيّة الأساسيّة التي يتعيّن الالتفات إليها هي أنّ اللّه قادر على كلّ شيء، وأنّ كلّ ما لدينا فهو منه سبحانه.

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، الباب ١٧، ص٣١٧، الحديث ٢١.

أقسام الداعين

إنّ الناس مختلفون من حيث توجّههم نحو اللّه، ويمكن تقسيمهم من هذه الناحية إلى أربعة أقسام، كلّ قسم منها يتفرّع بالطبع إلى أقسام جزئيّة أيضاً:

١. القسم الأوّل تراهم متوجّهين إلى اللّه في جميع أحوالهم، سواء في السرّاء أو في الضرّاء، يدعون ربّهم ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾[١] - كما في التعبير القرآنيّ - ويذكرون اللّه صباحاً ومساءً، ولا يختصّ دعاؤهم بظرف بلائهم. ولعلّ السبب من وراء ذلك هو إدراكهم أنّهم، مع كلّ هذه النعم التي جعلها اللّه في متناول أيديهم، ليسوا مستغنين عنه فهم محتاجون إلى عطائه، على الأقلّ من أجل استمرار تلك النعم. وبالطبع فإنّ درجة إدراك كلّ من هؤلاء لحاجته إلى اللّه تختلف باختلاف مرتبة معرفته.

فالنعمة والبلاء سيّان بالنسبة لهؤلاء، فهم عباد حقيقيّون، وضعوا اللّه دوماً نصب أعينهم، فجعلهم اللّه محطّ اهتمامه ورعايته: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٢].

٢. أفراد المجموعة الثانية - التي تشمل معظم المؤمنين - يصابون بالغرور والغفلة في حال النعمة والرفاهية، فإن طرأ عليهم البلاء تنبّهوا فذكروا فاقتهم، وأظهروا فقرهم إلى اللّه. هؤلاء عباد صالحون إلى حدّ مّا إلاّ أنّ اللّه يشتكي منهم لأنّهم ينسون ربّهم إذا

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠٥؛ وسورة الرعد، الآية ١٥؛ وسورة النور، الآية ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

أغدق عليهم النعم، ويرفعون أيديهم بالدعاء فقط عندما تسلب منهم النعمة: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[1]. والواقع أنّ حال أغلب الموحّدين هو هذا، فإنّك لا تجد من لا ينسى اللّه ولا يغفل عن ذكره في حال النعمة إلاّ ما ندر.

٣. الفئة الثالثة يَعدّون بعض ما يحلّ بهم من البلاء هو من اللّه، لذا تراهم يلجأون إلى اللّه عندما ينزل بهم هذا النوع من البلاء بالذات، ذلك أنّهم يعتقدون أنّه ناتج عن الأسباب غير الطبيعيّة وأنّه علامة على الغضب الإلهيّ؛ كقوم يونس عندما رأوا طلائع العذاب الإلهيّ فرجعوا إلى أنفسهم واستغفروا اللّه قبل أن يشملهم عذابه، فوقاهم اللّه شرّه.

إنّ أتباع هذه الفئة لا يلتفتون إلى سائر أنماط البلايا التي لا يتصوّرون أنّها من اللّه، حتى إذا تقطّعت بهم السبل تماماً وأدركوا أن لا أحد بيده المخرج ممّا هم فيه، دعوا اللّه حينئذ.

٤. أمّا الطائفة الرابعة فهم، حتىّ وإن نزل العذاب بساحتهم وابتلوا بصنوف البلايا والمصائب، غافلون عن اللّه أيضاً. إنّ الباري عزّ وجلّ يذمّ عمل هذه الطائفة ويرى أنّهم يستحقّون عذاباً أشدّ ممّا تستحقّه الفئة الثالثة. يقول القرآن الكريم في حقّ هؤلاء: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2]، ويقول في موضع آخر: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا

(١) سورة فصّلت، الآية ٥١.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٤٣.

لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

إلاّ أنّ المؤمن الحقيقيّ - كما مرّ - لا يكفّ عن الدعاء إطلاقاً، سواء كان في شدّة أو رخاء. فالدعاء بالنسبة له هو من دواعي الكمال الإنسانيّ، فهو لا يتخلّى عن الدعاء بصرف النظر عن توفّر الأسباب العاديّة أو عدمه. ففي الظروف التي تكون فيها الأسباب العاديّة مهيّأة يكون الدافع لمسألته أنّه لا يرى في تلك الأسباب المؤثّر الواقعيّ فيمدّ يده إلى المسبّب الحقيقيّ. فبالرغم من حضور الخبز في مائدته وبين يديه، إلاّ أنّ اعتقاده بأنّ اللّه هو مسبّب الأسباب يجعله يؤمن بأنّ الشبع أيضاً مرتبط بإرادته ومشيئته. وبعبارة أخرى، إنّه يدعو حتّى وإن وُجدت الأسباب المادّية لأنّه يعتبر أنّ اللّه هو المؤثّر الوحيد في تأمين حاجاته وأنّ تأثير الأسباب المادّية منوط بإذنه سبحانه. وفي حال كون الأسباب المتعارفة غير مهيّأة أيضاً يأتي دعاؤه من باب أنّ قدرة اللّه غير محدودة بالأسباب العاديّة وأنّه جلّ شأنه قادر على تأمين احتياجاته من دون اللجوء إلى تلك الأسباب.

إذن علينا أن نرجع إلى أنفسنا لننظر من أيّ طائفة نحن ياترى؟ حتّى لا نكون - والعياذ باللّه - من الطائفة الثالثة أو الرابعة.

لقد أنعم اللّه على الإنسان بنعم جمّة، غير أنّ منسوب هذه النعم ينحسر أحياناً فيواجه الإنسان بعض المتاعب ممّا لم يكن يخطر على ذهنه فيما مضى. لكن هل يمكن اعتبار ذلك من قبيل المصادفة؟ وهل إنّ هذه الأمور لا ارتباط لها مع اللّه؟

(١) سورة البقرة، الآية ٧٤.

إنّ مدى الاعتقاد بارتباط هذه الأمور باللّه يتناسب مع مقدار معرفتنا. فالإنسان المؤمن لا يرى أيّ شيء خارج دائرة إرادة اللّه وتدبيره، فهو حتّى وإن أصابه الصداع تجده يطلب الشفاء من اللّه أوّلاً، ومن ثمّ يلجأ إلى الطبيب والدواء، وعندما يتناول الدواء فهو يَعدّ أنّ تأثيره منوط بإذن اللّه، فإن لم يشأ اللّه فلن يكون له أثر. وفي المجموع، هو يَعدّ أنّ منشأ ومنبع كلّ عمل هو اللّه، ويرى أن لا أحد غير اللّه في عالم الوجود بإمكانه التصرّف في ملك اللّه بشكل مستقلّ، فالكون قاطبة ملكه، وليس لأحد الحقّ في التصرّف بملكه من دون إذنه.

لقد اعتدنا على القول ـ في محاوراتنا وعند طرح مباحثنا العقائديّة ـ إنّ إرادة اللّه وتدبيره يمتازان بالعموميّة؛ فكلّ الموجودات مشمولة، ولا شيء خارج عن نطاق قدرته وتدبيره. وفي الفلسفة أيضاً، يكون بحثنا جيّداً بامتياز في موضوع توحيد الأفعال، بل ومن الممكن أن ترسخ مثل تلك المفاهيم في أذهاننا على نحو متميّز كسائر المفاهيم الأخرى، بيد أنّ هذه الحقيقة ـ في الغالب ـ تغيب عن أذهاننا في ميدان العمل، كما هو حال الكثير من المعتقدات الأخرى. إنّنا نقول: إنّ اللّه حاضر في كلّ مكان وناظر، إلاّ أنّنا ننسى هذه الحقيقة في مقام العمل. إنّنا نثبت التوحيد الأفعاليّ ونستدلّ عليه عقلاً ونقلاً، ولكنّنا ننساه عند التطبيق والعمل.

وبناءً على ما تقدّم، فنحن لا نستطيع أن نعتبر أنّ المشاكل التي تواجهنا لا تستند إلى اللّه. أمّا إلى أيّ حدّ هي مستندة إلى اللّه؟ فنحن نعتقد على الأقل أنّ اللّه ـ إن شاء ـ وقف أمام حدوثها ومنعها.

إذا نظرنا إلى الموضوع من إحدى زواياه، فإنّ كلّ البلايا التي تواجه الإنسان يسمّيها القرآن: ﴿بَأْسَنَا﴾، أو: ﴿بَأْسُنَا﴾(١). فليس الأمر أنّ بعض البلايا إلهيّ وبعضها غير إلهيّ، ذلك أنّ الصلاحيّات في جميع الأمور هي للّه. إنّ الإذن التكوينيّ الإلهيّ في إنزال البلاء على شخص هو دليل على استناد هذا البلاء إلى اللّه. وهذا الموضوع - الذي يُبحث في الفلسفة بشكل مفصّل - أسهل فهماً على من كانت معرفته أكمل، وإدراكه للتوحيد الأفعاليّ أعمق.

وبالطبع، فإنّ جميع البلايا التي ينزلها اللّه على الإنسان هي نتيجة لقبيح فعاله هو (الإنسان)، والآيات والروايات في هذا الصدد مستفيضة. يقول اللّه في محكم كتابه العزيز: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢). ومن الممكن أن يرفع اللّه عن قوم بلاءً ببركة شخص ما، حتّى وإن لم يبذل هؤلاء القوم جهداً في رفعه، أو أن يكشف البلاء الذي أنزله بدافع من رحمته أو تدبيره أو من باب «الإملاء»، إلاّ أنّه لم يكن يوماً ليسلب نعمة أنعمها عليهم إلاّ أن يأتوا بما يستوجب سلبها من قبيح الفعال.

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٣). ومضمون هذه الآية مشابه لسابقتها، إلاّ أنّ أسلوبها يمتاز بتأكيد أكبر، وعلى أساسها لابدّ أن نذعن بأنّ استبدال البلاء ببعض النعم هو بسبب أعمالنا نحن.

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٤٣ و١٤٨؛ وسورة الأعراف، الآيات ٤ و٥ و٩٧ و٩٨؛ وسورة يوسف، الآية ١١٠؛ وسورة الأنبياء، الآية١٢؛ وسورة غافر، الآيتان ٨٤ و٨٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٥٣.

(٣) سورة الرعد، الآية ١١.

وطبقاً للتعاليم القرآنيّة، فلا ريب في أنّ المصائب والمحن التي تحلّ بنا هي من نتائج تصرّفاتنا وأفعالنا. فلو قمنا بتدبير أمورنا على نحو آخر، ما كانت النعم التي نتمتّع بها لتتبدّل إلى نِقم، كقولنا: «كما تزرع تحصد»، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[١]. فلو أراد اللّه أن يعاقب الناس على كلّ ما يفعلون، ما بقي على وجه الأرض أيّ دابّة، كقوله: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾[٢]، أو: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾[٣]. فقصد اللّه من البلايا الدنيويّة التي يُنزلها على الناس هو تنبيههم لا معاقبتهم من أجل أن يتوجّهوا إليه، ويعلموا أنّهم يعيشون في مُلكه: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[٤].

وفي العادة، عندما ينزل البلاء فإنّه يعمّ الجميع ويحرق الأخضر واليابس، كما يقال. حينذاك، يكون البلاء امتحاناً وابتلاءً لأولئك الذين لم يقترفوا الآثام، وجزاءً وعقوبة للمذنبين الآثمين.

دوافع الدعاء

الدعاء عمل إراديّ وهو بحاجة إلى دافع ومحرّك، وللداعين دوافع شتىّ، وإنّ قيمة دعائهم منوطة بقيمة الدافع الذي يحثّهم على الدعاء.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٣٠.
(٢) سورة النحل، الآية ٦١.
(٣) سورة فاطر، الآية ٤٥.
(٤) سورة الروم، الآية ٤١.

[١] أحياناً يكون تأمين الحاجات المادّية هو ما يحرّك الإنسان نحو الدعاء، فيسأل اللّه - على سبيل المثال - المال، والبيت، والولد، والصحّة، وما شابه، فيكون المحفّز للدعاء هو العلاقة التي تربطه بتلك الأشياء. هذا النوع من الطلب، وإن كان مؤشّراً على تدنّي الهمّة لدى الإنسان، إلاّ أنّه حسن بحدّ ذاته لأنّه يفصح عن اعتقاد الداعي بأنّ اللّه عزّ وجلّ هو المؤثّر. لذلك، لا يستوي هذا الإنسان مع الشخص المتعلّق بتلك الأمور لكنّه لا يطلبها من اللّه.

فالشخص الأوّل يعرف اللّه، ويعتبره المؤثّر في الكون، لذا فهو يمدّ يد المسألة إليه طالباً منه قضاء حوائجه. غير أنّ الشخص الثاني، وبما أنّه لا يؤمن بهذه الحقيقة، فهو - على خلاف الأوّل - لا يطوي مسير التكامل، بل يسلك طريق الأسباب المادّية فحسب لنيل مطلوبه. إذا قارنّا هذين الفردين مع بعضهما، فإنّ الشخص الأوّل يصل إلى بعض مراتب الكمال بسبب توجّهه إلى اللّه وإظهاره لعبوديّته وفقره في حضرته، بيد أنّ همّته هابطة فرؤيته محدودة بحدود الدنيا. لكنّ الشخص الثاني بعيد كلّ البعد عن هذه المرحلة، ومسيره لن يوصله إلى أيّ مكسب.

هذه إحدى مراتب الدعاء وهي، بحدّ ذاتها، مطلوبة وذات قيمة.

[٢] المرتبة الأعلى من تلك هي أن يرتفع ويسمو دافع الإنسان فيطلب من اللّه الأشياء المعنويّة والتوفيق للعبادة. فقيمة الأمور المعنويّة والأخرويّة عند أمثال هذا الإنسان أعلى من تلك التي للمسائل المادّية والدنيويّة. لذا، تجده لا يقيم أدنى وزن للمادّيات

في مقابل المعنويّات. فإذا علم الإنسان أنّ اللّه معطيه ما يطلب، وكان عارفاً بالآخرة، فهو لن يسأل أموراً دنيويّة إلاّ إذا كانت في سبيل الآخرة، أو لدوافع أخرى سيأتي بيانها لاحقاً.

من هذا المنطلق، نجد أنّ الأدعية المأثورة عن أولياء اللّه هي غاية في القيمة ولا يمكن مقارنتها بأدعيتنا إطلاقاً. فبالرغم من أنّ أدعيتنا مطلوبة، وهي في عداد العبادات، ومن موجبات تكاملنا لكونها نابعة من الإيمان، غير أنّ تأثيرها على طريق التكامل الإنسانيّ ضعيف. فلو أنّ الإنسان طلب الأمور المعنويّة في دعائه عوضاً عن المسائل المادّية، وسأل اللّه التوفيق للعبادة، لزاد اللّه في معرفته وإيمانه، ومنّ عليه بالتوفيق لفعل الخير، ليطوي بذلك مدارج الكمال بسرعة أكبر. إنّ قيمة مثل هذا الدعاء أعظم من طلب تأمين الحوائج المادّية لكونه يفصح عن إيمان الإنسان العميق باللّه واليوم الآخر، فالآخرة بنظر مثل هذا الإنسان أفضل وأدوم بكثير: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].

[٣] وحيناً آخر يكون الدافع من وراء الدعاء أسمى وأعظم ممّا ذكر أيضاً. وفي هذه المرتبة يكون غرض الداعي هو صرف التحدّث إلى اللّه والانصياع لأمره. فأصل الدعاء هنا هو الغاية، وما طَلَبُ الحاجة إلاّ ذريعة للسعي إلى بيت الحبيب. فهو يدعو لأنّ اللّه يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾. وفي هذه المرحلة لن تعود هناك أهمّية لماهيّة الحاجة، إذ لا فرق بين معنويّها ومادّيها، وإنْ كان الدعاء للمسائل المعنويّة أفضل؛ ففي مثل تلك الحالات يصبح الدعاء لأيّ شيء مطلوباً. إنّ

(١) سورة الأعلى، الآية ١٧.

إنساناً كهذا يشاهد نفسه على شاطئ البحر اللُجّي للرحمة الإلهيّة، لذا تراه يدعو لأتفه أموره.

إذا وجد الإنسان في نفسه مثل هذا الحافز، فسيمتاز دعاؤه بقيمة أعظم حتىّ وإن كان في الأمور الجزئيّة والحقيرة. فقيمة هذا الدعاء ليست في كونه مادّياً أو معنويّاً، بل هي تكمن في رؤية الداعي للّه بأنّه هو المؤثّر المطلق، وأنّ كلّ شيء مقهور له سبحانه. مثل هذا الدعاء يبقى ذا قيمة عظمى طالما لم ينشَدّ الإنسان إلى متعلّقه، وكان يدعو لمجرّد أنّ اللّه يحبّ ذلك، فلو لم يكن اللّه قد أمر بالدعاء بقوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]، أو: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[2]، لم يكن ليجيز لنفسه أن يسأله شيئاً من هذه الأمور. لكن من حيث أنّ اللّه يقول: إنّه يحبّ أن يرى عبده يمدّ يد العوز والفاقة إليه، فهو يدعو. وفي الواقع، لا مجال للمقارنة بين هذا الدعاء وسائر الأدعية، وهو لا يصدر إلاّ عن أولئك الذين قطّعوا تعلّقاتهم بكلّ شيء ما عدا اللّه.

ما دام الإنسان مشدود الذهن إلى أمور الدنيا أو حتّى أمور الآخرة فسيسعى - شاء أم أبى - إلى تأمينها. بالطبع، لا ضير في أن يطلب الإنسان حوائجه من اللّه من دافع الإيمان به، ومن الطبيعيّ أنّ أيّ شخص سيسأل اللّه بما يتناسب مع معرفته وإيمانه باللّه، إلاّ أنّ مَن نال أسمى درجات الإيمان والمعرفة، فلا عيب في أن يطلب من اللّه حتّى توافه الأمور الدنيويّة، على أن يكون الدافع هو رغبة اللّه في ذلك. لذا نجد أنّ هؤلاء يسألون اللّه حتّى صغائر أمور دنياهم.

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٢) سورة النساء، الآية ٣٢.

إذن، التفصيل في الدعاء وطلب دقائق الأمور مطلوب أحياناً لأنّه مدعاة لتجلّي روح العبوديّة والخضوع والتضرّع من العبد في الحضرة الإلهيّة. فمثل هذا الدعاء مؤشّر على مدى شدّة اعتقاد الإنسان المؤمن بربّه، فهو لا يعتمد على مَن سوى اللّه حتّى في أدقّ المسائل.

وفي هذا السياق لا بأس بالإشارة إلى نقطتين:

الأولى: إنّ على الإنسان أن يكون دائم الالتفات إلى حاجاته، وأن يستمدّ العون من اللّه فحسب في تأمينها. لكن عليه أن يلتفت أيضاً إلى حقيقة أنّ حاجات الإنسان غير منحصرة بتلك الحاجات المادّية والدنيويّة، بل إنّ السهم الأعظم من حاجات البشر هو من نصيب المسائل المعنويّة والروحيّة. إنّ من بين أعظم وأهمّ حاجاتنا هي نعمة الإسلام، والولاية، والهداية، وعلينا أن نسأل اللّه أن يمنحنا إيّاها كذلك.

جاء في الحديث أنّ أولياء اللّه يسألونه الشهادة: «**وقتلاً في سبيلك فوفّق لنا**»[1]. إنّ أمثال هذه الطلبات تحكي عن ذروة اشتياق هؤلاء إلى القرب الربوبيّ والشغف به. نحن أيضاً يتعيّن علينا أن نتعلّم من هؤلاء. علينا أن نسأل اللّه أن يمنّ علينا بخالص النيّة كي نتحدّث إليه بصدق، وبإخلاص، وبمعرفة.

الثانية: والتي أكّدت عليها الثقافة الإسلاميّة ودعت الناس إليها، هي الدعاء للآخرين سواء لقضاء حوائجهم المادّية أو المعنويّة.

(١) مفاتيح الجنان، مقطع من أحد الأدعية الواردة في ليالي شهر رمضان.

فبالإضافة إلى أنّ الدعاء للآخرين من شأنه أن يزيد من توجّه الإنسان إلى اللّه، فإنّه يسهم في تعزيز أواصر المحبّة والألفة بين المؤمنين، إذ أنّ روح الإيثار، وحبّ الآخرين، والرحمة الواسعة بالآخرين - التي لابدّ أن يتحلّى بها المؤمن - تتجلّى حتّى في ساعات الدعاء.

هناك رواية مشهورة عن الإمام الحسن بن عليّ المجتبى عليه السلام أنّه قال: «**رأيت أُمّي فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راكعة ساجدة حتّى اتّضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين وتسمّيهم وتُكثِر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لِمَ لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بنيّ الجار ثمّ الدار**»[1].

نستنتج من ذلك أنّ الدعاء للآخرين أسمى بكثير من الدعاء للنفس وبالأخصّ إذا كان في مجال القضايا المعنويّة للمؤمنين.

المراد من الاستكبار عن الدعاء

يقول عزّ من قائل في الآية المرقّمة (٦٠) من سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وهنا نودّ أن نفهم ما هو المراد من الاستكبار عن الدعاء؟ إنّ من الممكن تصوّر الإعراض عن الدعاء في ثلاثة أشكال:

[١] قد يحجم الإنسان عن الدعاء تارة جرّاء الغفلة. وفي هذا المضمار يكون ضعف الإيمان هو السبب لغفلته عن طَرْق باب

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، الباب ٤، ص٨١، الحديث ٣.

الربّ، فيسعى ابتداءً وراء الأسباب المادّية لحلّ عقده غافلاً عن مسبّب الأسباب. فإن أصابه مرض مثلاً فهو يلجأ أوّلاً إلى الطبيب والدواء بدلاً من اللجوء إلى اللّه. لكن قد يعترف مثل هذا الإنسان بخطئه إذا ما ذُكّر به. وهذا النمط من الغفلة عن اللّه غير ناشئ عن الاستكبار بل هو بسبب ضعف الإيمان.

[٢] وتارة أخرى قد يمتنع المرء عن الدعاء بسبب تأثّره ببعض الشبهات؛ كأن يكون قد سمع بأنّ للّه سنناً غير قابلة للتغيير ولا للتبديل ولابدّ من اتّباعها. بعبارة أخرى، إنّ اللّه حسب فهمه ـ قد جعل لكلّ داء دواءً، فيقول: أيّ معنى للدعاء حينئذ؟ فعلاج الصداع مثلاً هو العقّار الفلانيّ وليس الدعاء. هذه العقيدة أيضاً لا تنتج من الاستكبار وإنّما هي من نتائج النقص في إيمان الفرد. فمثل هذا الشخص لم يعرف اللّه جيّداً ولم يدرك علاقة هذا الكون باللّه بشكل دقيق، فإدراكه للتوحيد ضعيف وفهمه لواقع تأثير الدعاء يشوبه النقص.

[٣] إلاّ أنّ قول الإنسان لنفسه: لابدّ لي أنا أن أحلّ المعضلات التي تعترض سبيلي وأؤَمّن احتياجاتي الخاصّة، وما الداعي إلى أن ألوي رقبتي أمام اللّه سائلاً إيّاه حاجتي؟ ولماذا يتحتّم عليّ أن أهجر مضجعي في جوف الليل لأظهر الذلّة أمام اللّه؟ فهو الاستكبار عن الدعاء بعينه. فالاستكبار عن الدعاء هو أن يشعر الإنسان بالعار لطلب أمر من اللّه ويَعدّ ذلك نقصاً في ذاته.

يقول بعض المتأثّرين بالثقافة الأجنبيّة: إنّ الإسلام لايريد أن يرى الإنسان ذليلاً حتّى في مقابل اللّه سبحانه وتعالى. وحتّى أذكار

الصلاة مثل «اللّه أكبر» و«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم» فإنّهم يعدّونها من باب الشعارات السياسيّة. في عقيدة هؤلاء ليس للإنسان أن يُبدي الضعف والخضوع أمام أيّ شيء حتّى الباري تعالى. هم يدّعون أنّ البكاء شأن الأطفال والعجائز! فلو عرف الإنسان نفسه، ورجع إلى ذاته، فسيشعر بالقوّة والمنعة في نفسه، ولن يبكي أبداً، إذ لا يجوز للإنسان أن يبكي حتّى في مقابل اللّه.

وللأسف الشديد فإنّ أمثال هؤلاء ينسبون رؤيتهم هذه إلى الإسلام ويضعونها في خانة «معرفة الإسلام»! لكن علينا أن نسألهم: إذا كان هذا هو معرفة الإسلام فما هي معرفة الكفر إذن؟

إنّ حقيقة وأصل العبادة هي إظهار الذلّة. فالقرآن يقول: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾[1]، و: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2].

إنّ فخر الإنسان هو في إدراك العظمة الإلهيّة وفي إظهار الذلّة والخضوع تجاهها. أمير المؤمنين عليه السلام، ذلك الإنسان الذي عرف اللّه حقّ معرفته، يقول: «**إلهي كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً**»[3].

إنّ إظهار العبوديّة أمام اللّه عزّ وجلّ هي أسمى مراتب العبوديّة، وإنّ في قبول عبوديّة الإنسان من قبل اللّه جلّ وعلا أعلى درجات العزّة الإنسانيّة. فكلّما كان التذلّل للّه أشدّ، كان الإنسان أكثر كمالاً

(١) سورة طه، الآية ١١١.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨٣.

(٣) بحار الأنوار، ج٧٤، الباب ١٥، ص٤٠٢، الحديث ٢٣.

وأشدّ قرباً من اللّه. ومن الجليّ طبعاً أنّ اللّه لن يجني أيّ لذّة من تذلّل الإنسان له، لأنّه غنيّ كلّ الغنى عن تلكم الأمور، غير أنّ القضيّة - وكما تمّت الإشارة إليها - هي أنّ هذا الأمر مطلوب لدى اللّه لأنّ فيه تكامل الإنسان.

الأدعية المأثورة

بالرغم من أنّ الدعاء بأيّ لغة ولسان وفي أيّ زمان ومكان هو حسن ومفيد ومؤثّر إذا كان مصحوباً بإخلاص النيّة، إلاّ أنّ أفضل الأدعية هي تلك المرويّة عن لسان أولياء اللّه؛ كتلك المذكورة في القرآن عن كلمات أنبياء اللّه وعباده الصالحين، أو المنقولة في الروايات عن النبيّ الأكرم ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام. هذه الأدعية هي أفضل من الأدعية الأخرى لسببين:

١. لأنّها صدرت عن أفراد عرفوا آداب العبوديّة أفضل منّا. فمعرفتهم باللّه أكمل وأشمل، واطّلاعهم على أساليب الدعاء وآدابه أكثر من الآخرين، ناهيك عن أنّ ما يسألونه من حوائج - وبسبب ما يتمتّعون به من المعرفة الكاملة - هي أسمى من حوائجنا نحن وأكثر مطلوبيّة. بناء على ذلك، يتعيّن علينا أن نتعلّم من هؤلاء كيف ندعو، وماذا وكيف نطلب.

وباستطاعتنا القول بشكل عام إنّ الأدعية التي وصلتنا عن أئمّتنا عليهم السلام مختلفة في جميع نواحيها عن أدعيتنا، خصوصاً من جهة نمط التفكير والحوائج المطلوبة فيها. فأدعيتهم غالباً ما تُستهَلّ بحمد اللّه والثناء عليه، والتسبيح، والتهليل، والتكبير، وطلباتهم تتّخذ طابع الاعتذار وطلب التكرّم عوضاً عن الاعتراض والمطالبة.

إنّهم، وبدلاً من إنكار النعمة والأنين والتأوّه مما يعانونه من أنواع النقص والحرمان، يذكرون ما أسبغ اللّه عليهم من فائق الرحمة والفضل والإنعام. وهم قلّما يطلبون الحوائج المادّية، والمال واللذّات الدنيويّة، وأكثر ما يطلبون من حوائج هو القرب من اللّه، ورضاه، والكمالات الإنسانيّة.

ومن ناحية أخرى، فإنّ معظم المعارف الإسلاميّة العالية المضامين والسامية التي لم يتيسّر تبيينها من خلال الروايات قد وصلتنا عن طريق الأدعية، خصوصاً تلك المرويّة عن الإمام السجّاد عليه السلام؛ ذلك أنّ أئمّة الهدى عليهم السلام - وهم في حالة الدعاء - كانوا يواجهون ذات الحقّ ويستغرقون في المناجاة معه، لذا كان ما يجري على ألسنتهم هو ما يجول في خلدهم وقلوبهم، وكانوا يتحدّثون مع اللّه ويحمدونه ويثنون عليه ويصفونه كما يعرفونه. لكن في الروايات، ولأنّ المخاطبين كانوا غالباً من الناس العاديّين، لم يكن بالإمكان بيان جميع المعارف بل كان لابدّ من إظهار ما يتناسب مع فهم المخاطب من الحقائق؛ قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم**»[1].

٢. لأنّه في الواقع، يتحقّق من خلال قراءتنا للأدعية المأثورة عن الأنبياء وأئمّة الهدى عليهم السلام تأسٍّ لنا بهذه الشخصيّات الفذّة، الأمر الذي يجعلنا مشمولين بالأدلّة والروايات الموصية بالتأسّي برسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وأوليائه. لذا، فإنّ قراءتنا للأدعية المنقولة عن الأئمّة عليهم السلام - بالإضافة إلى كونها قراءة لأفضل الأدعية بأحسن الآداب - فهي

(١) بحار الأنوار، ج١، الباب ١، ص٨٥، الحديث ٧.

تهيّئ لنا فرصة اقتفاء سيرة أولياء اللّه التي تعدّ بحدّ ذاتها فضيلة تضاف إلى أصل الدعاء.

وبالطبع فإنّ التأسّي بالعظماء يستبطن فوائد جمّة أفضلها - وهو ما يتعلّق بهذا البحث - عدم ابتلاء الإنسان بالغرور، وشعورُه بأنّ هناك أُناساً أرفع منه قدراً وأعلى منزلة، وهو ليس إلاّ تابعاً لهم. ولهذه النقطة أهمّية كبيرة في تهذيب النفس؛ فالكثير ممّن ينهضون لتهذيب أنفسهم، وبعد أن يطردوا عن أنفسهم الخبائث من الصفات، ويطووا بعض مراتب الكمالات، يبادرون إلى مقارنة أنفسهم بغيرهم فيرونها أفضل، ويُبتلون نتيجة لذلك بالغرور، ممّا يعدّ بحدّ ذاته ضرباً من الخبائث النفسانيّة. أمّا عندما يلتفت الإنسان إلى أنّ قافلة عباد اللّه الصالحين والسالكين إلى اللّه لها قائد، وهو مقدّم على الجميع والكلّ تابع له، فسيخضع لسيّد القافلة، وهذا الشعور سوف يقيه الغرور. فالذين حُرموا من نعمة ولاية أهل البيت عليهم السلام باءت جهودهم في تهذيب أنفسهم بالفشل، وارتكبوا الأخطاء نتيجة لما ابتلوا به من الغرور، على الرغم من وجود النيّة الخالصة لدى بعضهم، وتجشّمهم لعناء الرياضات الباطنيّة المضنية.
هؤلاء، وبسبب عدم معرفتهم بمقامات الأئمّة الأطهار عليهم السلام وعدم اعتبارهم إيّاهم قادة لركب الإنسانيّة، يتصوّرون أحياناً بأنّهم وصلوا إلى مقام «القطبيّة» أو ظفروا بالولاية التامّة. لذلك تصدر بين الحين والآخر من أمثال هؤلاء كلمات لا تنسجم مع مقام العبوديّة إطلاقاً، في حين نرى رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وهو أشرف المخلوقات، كان يقول حتّى آخر لحظة من عمره الشريف: «**وأشهد أنّ محمّداً عبده**». إنّ مثل هذه التوهّمات لم تكن لتطرأ على بال الأتباع الحقيقيّين لأهل

البيت عليهم السلام، وهذه القضيّة هي من أعظم بركات ولايتهم صلوات اللّه عليهم.

إذن، للأدعية المأثورة مثل هذه الفضائل. لكن، لابدّ من الالتفات إلى أنّ أولئك الذين ارتقوا إلى أعلى مراتب الإنسانيّة، ونالوا أسمى مقامات القرب الإلهيّ، يذكرون أحياناً أموراً في مناجاتهم مع ربّهم ليس من المناسب أن نذكرها نحن، لأنّها لا تنسجم مع أحوالنا، ولن نكون صادقين إذا تفوّهنا بها؛ مثلاً، في دعاء كميل، وهو أحد الأدعية الشريفة والنفيسة، يقول الإمام عليّ عليه السلام مخاطباً اللّه عزّ وجلّ: «**فهبني يا إلهي وسيّدي وربّي صبرتُ على عذابك، فكيف أصبر على فراقك، وهبني صبرتُ على حرّ نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك**»[1]. هذه الكلمات إنّما تتناسب مع حال أولياء اللّه الكاملين ولا يمكن لأيّ شخص أن يدّعي هذا الادّعاء. فالإنسان الوحيد الذي باستطاعته التكلّم بهذا المنطق هو ذاك الذي عرف الوصال والفراق، فذاق حلاوة الوصال، واحترق فؤاده من لوعة الفراق، وأيّ فراق؟ إنّه فراق المحبوب الحقيقيّ. أمّا الشخص الذي لا يعرف معنىً للوصال، فهو ليس بمؤهّل لأن يدّعي بأنّه يتعذّب من فراق اللّه. فالذي يتألّم من لوعة الفراق هو من عرف الوصل بعد أن كان مطلوباً بالنسبة له؛ كما هو الشخص المتعلّق بحبيبه، فهو يلتذّ ويستمتع بوصاله، ويتعذّب لفراقه، في حين ترى الإنسان الذي لا علاقة له بشخص آخر فإنّه لا يشعر بأدنى ألم لفراقه، كما لا يحسّ بأيّ لذّة من وصاله.

---

(١) مفاتيح الجنان، للشيخ عبّاس القمّي.

فما دمنا لم نعرف اللّه ولم ندرك كماله، فنحن لن نشعر بأيّ عذاب لفراقه. إذن، كيف يمكننا القول: بمقدوري تحمّل عذابك، لكن لا أستطيع الصبر على فراقك؟ أنّى لهذا الإنسان - الذي يصل صراخه إلى عنان السماء إذا ما أصابه صداع عاديّ أو ألم ضرس بسيط، وتصل به قلّة الصبر وعدم التحمّل إلى حدّ الكفر، في حين أنّ هذا الألم لا يعادل حتّى واحداً من مليار من عذاب الآخرة - أنّى له الادّعاء بأنّه يصبر على عذاب جهنّم، بيد أنّه لا يتحمّل فراق اللّه؟

إنّ إظهار مثل هذه المعاني لا يليق إلاّ بشخص كأمير المؤمنين عليه السلام، وبيانها بالنسبة لنا بعيد كلّ البعد عن الواقع. ومع ذلك، فنحن نشاهد الكثير من تلك المضامين في الأدعية المأثورة. فإن قلنا تلك الأمور هي بقصد الإنشاء وحكاية لسان حالنا، فقد كذبنا، والكذب على اللّه أشدّ قبحاً من الكذب على خلقه. إذن لابدّ أن نقصد الحكاية عندما نقرأ مثل هذه الأدعية؛ أي أن ننقل ما أنشأه أمير المؤمنين عليه السلام وما خاطب به ربّه بقصد الحكاية، لا أن ننشئ هذه المعاني من أنفسنا لأنّها غير قابلة للإنشاء من ذواتنا. أو أن يكون قصدنا من ذلك هو أن يهبنا اللّه معرفة نكون مؤهّلين بفضلها أن يكون خطابنا مع اللّه بهذه الصورة.

ضرورة التعبّد بأحكام الدين وآثار انتهاك حرمتها

القضيّة الأخرى التي تستحقّ الالتفات هنا هي: بما أنّ الدعاء هو الطلب من اللّه والتكلّم معه، وأنّ الإنسان بطبيعة الحال يطلب ما يعرف، وأنّه في مقام الطلب يعلم ما يطلبه وما يقوله، فإنّ البعض يتوهّم أنّ قراءة الأدعية المأثورة بالنسبة لمن لا يفهم معانيها غير

ذات نفع؛ ذلك أنّهم لا يدركون ما يقولون، وماذا يطلبون من اللّه، وكلّ ما يفعلونه هو ترديد بعض الألفاظ. إذن، من الأفضل لأمثال هؤلاء أن يكفّوا عن قراءة هذه الأدعية ويستبدلوا بها التكلّم مع اللّه بلغتهم وبما يتناسب مع فهمهم وإدراكهم. وغير بعيد عن ذلك أيضاً الشبهة المطروحة بخصوص قراءة القرآن، إذ يقال: لا فائدة من قراءة القرآن من قبل من لا يفهم معانيه، بل هي مدعاة لإضاعة الوقت ليس إلّا!

وبالطبع صحيح أنّ هناك بوناً شاسعاً بين الدعاء الذي يفهمه الإنسان وذلك الذي لا يتعدّى لقلقة اللسان. وكذا الحال بالنسبة لتلاوة القرآن. كما أنّ بين فهم المعاني من دون حضور القلب وفهمها مع إقبال القلب وحضوره تفاوتاً كبيراً أيضاً. وهذا ممّا لا مجال للشكّ فيه. لذا، يتحتّم على أولئك الذين لا يدركون معاني الدعاء وآيات القرآن أن يبذلوا قصارى جهدهم في تعلّمها ليفهموا ما يخاطبون اللّه به، أو ما يخاطبهم به اللّه. لكنّه لا يجوز أن يشكّل عدم فهم مدلولات الأدعية والآيات القرآنيّة مسوّغاً لترك قراءتها، أو للتلفّظ بجملاتها بلسان غير عربيّ.

إذا فسح المجال لمثل هذا الفكر أن ينتشر فستصل الأمور إلى حدّ القول ـ كما قال البعض فعلاً ـ : إنّه من الأفضل أن تترجَم حتّى الصلاة إلى اللغات الأخرى ليصلّي كلّ قوم بلسانهم (ولعلّ هناك من يصرّح بذلك في تركيا)، ليصار بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى القول بأنّه لا داعي أصلاً لحركات الصلاة وسكناتها، ولا ضرورة للانحناء والقيام فيها! وهل إنّ اللّه مستبدّ يا ترى لننحني أمامه؟ وعلى هذا

المنوال، تضعف روح التعبّد بأوامر اللّه وتعاليم النبيّ ﷺ وتتلاشى تدريجيّاً.

إنّ نقطة الانحراف عند بعض الحركات السياسيّة التي كانت تدّعي الإسلام، بل وكان معظمهم مسلمين حقّاً، بدأت من هنا: منحى الانفتاح الفكريّ في المسائل التعبّدية. ولهذا يتعيّن علينا تناول المسائل التعبّدية بحذر أكبر، وأن لا ننتهك حرمة التعبّديات حتّى لا ننتهي إلى عاقبة السوء التي انتهى إليها الآخرون.

إنّ الإسلام كسائر الأديان السماويّة يشتمل على أمور تعبّدية لا دخل لمعرفتنا وتفسيراتنا فيها. إنّ روح الإسلام أساساً هي التسليم في مقابل اللّه والتعبّد بأوامره[1]. فالعبد هو ذاك الشخص المؤتَمِر بالأمر الإلهيّ المذعن له، سواء أدرك حكمته أم لم يدركها، فكلّ ما عليه هو العبوديّة، يصغي لما يأمره به مولاه فيمتثل لأمره. فإن كان همّ الإنسان العمل بما يفهم سرّه وحكمته فحسب، فهذا في الواقع اتّباع للهوى وليس هو العبوديّة، ولو أنّنا امتثلنا فقط للأوامر التي نعلم بأنّها تعود بالنفع والفائدة علينا، فإنّنا في الحقيقة نعبد أنفسنا وليس ربّنا، إذ أنّ روح عبادة اللّه تكمن في انصياع الإنسان لما أمر به اللّه، سواء عاد الانصياع عليه بالنفع أو الضرر.

عندما أوحى اللّه إلى نبيّه إبراهيم عليه السلام بذبح ولده لم يخطر في ذهنه المبارك بأنّه هل ستعود التضحية بولده عليه أو على ابنه أو المجتمع بالمصلحة أم لا؟ كما لم يحدّث نفسه بأنّ أحكام الشرع

---

(١) وسائل الشيعة (للحرّ العامليّ)، ج٢٧، الباب ٦، ص٤٥، الحديث ٣٣١٧١: عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الإسلام هو التسليم**».

تتّبع المصلحة والمفسدة، وإنّ قتل النفس قبيح. بل إنّه، وبمجرّد أن تلقّى الأوامر، شحذ الهمّة وهرع لذبح ابنه. إنّ عمل إبراهيم الخليل هذا دليل على روح التعبّد التي يتمتّع بها.

وأساساً فإنّ فلسفة تشريع الدين هي لتقوية روح التسليم والعبوديّة عند البشر ليذعنوا للّه بالطاعة المحضة، ويتقرّبوا إلى الواحد الأحد من خلال عبادته وإفناء إرادتهم في إرادته سبحانه.

طبعاً نحن نعلم أنّ أحكام الإسلام هي لتأمين مصالح الفرد والمجتمع، لكن لا ينبغي أن يكون الدافع من وراء طاعة الأمر الإلهيّ هو تأمين المصالح الفرديّة والاجتماعيّة، بل لابدّ أن يكون الحافز لعبادة اللّه هو العبوديّة له جلّ وعلا. نعبده لأنّه المولى ونحن عبيده. بالطبع وممّا لا شكّ فيه أنّ المولى الحكيم لا يصدر أوامره جزافاً، غير أنّ دوافعنا لا ينبغي أن تتّخذ منحى تأمين المصالح الفرديّة أو الجماعيّة.

ولعلّ الكثير من أحكام الشرع وقوانينه سُنّت من أجل تقوية روح العبوديّة في أنفسنا، فهذا النمط من الأحكام يشكّل القسم الأعظم من أعمال الحجّ ومناسكه على سبيل المثال؛ كالإقامة في أماكن مخصّصة لمدّة محدّدة وفي زمان معيّن، وتجنُّب الطيب وتصفيف الشعر وما إلى ذلك، والطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة بنحو خاصّ ومرّات محدّدة، وغيرها من الأعمال. هذه الأعمال ـ وحسب قول أحد الوعّاظ(١) ـ ليست هي إلاّ «تمريناً على العبوديّة».

(١) في إشارة إلى المرحوم الحاج الشيخ علي أكبر تربتي رحمه الله.

فالإنسان الذي يذهب إلى مكّة للحجّ، ومع رعايته لكلّ شروطه وإقامة كلّ مراسمه، هو في الواقع يقول لربّه: إنّني ذاهب سمعاً وطاعة لأمرك، فإنّني لا أقف، ولا أهرول، ولا أمتنع عن تصفيف شعري، أو التزيّن، أو التعطّر،...الخ إلاّ تنفيذاً لأمرك[1].

لا ريب أنّه في الأعمال العباديّة، وفي تعبديّات الإسلام قد تمّ التشديد على قضيّة أنّ على الناس أن يذعنوا للأمر الإلهيّ، وأنّه لابدّ من تقوية روح التعبّد - التي هي محاربة حبّ الذات والتفكير المصلحيّ - لدى الإنسان، وأن يتجنّبوا التفكير بأنفسهم، ويكون اهتمامهم منصبّاً على الانقياد للأوامر والنواهي الإلهيّة.

إذن، لا ينبغي السعي إلى معرفة المصلحة والحكمة من وراء كلّ الأحكام والتعاليم الإسلاميّة. فنحن مأمورون بالرجوع إلى الكتاب والسنّة والعمل وفق ما أُمر به فيهما، لا أن نبحث عن المصلحة والتجربة. وفي منهجيّة التوصّل إلى أحكام الإسلام لا مجال للتجربة، إنّما يتمّ الاستنباط من خلال دراسة سند الأحكام المتوفّرة وبعد التأكّد من دلالتها يتمّ العمل بها. بالطبع إنّ كبراء الدين بيّنوا فلسفة الكثير من الأحكام، لكنّ هذا لا يعني أن لا نقبل بأيّ حُكم لا نفهم فلسفته أو نشكّك فيه. فلابدّ من ممارسة الأعمال الدينيّة كما وصلتنا ومن دون نقاش؛ فنقبل بتلك التي أخبرونا بفلسفتها أو التي أُثبتت بالعلم والتجربة، ولا نرفض الحُكم الذي لم تتّضح الحكمة

---

(١) من الجدير بالذكر هنا أنّ هناك أموراً محرّمة على الحاجّ حال الإحرام منها استعمال الطيب، والنظر في المرآة، والتظليل، وما إلى ذلك، ومن جملتها إزالة شعر البدن، في حين أنّ أحد أعمال الحجّ والعمرة هو الحلق أو التقصير؛ أي حلق تمام الرأس أو قصّ مقدار من شعر الرأس أو الوجه أو تقليم الأظفار. فلا يحصلنّ اللبس بين الاثنين فالحلق أو التقصير يقوم به الحاجّ في مرحلة خاصّة من الأعمال بحيث يحلّ به من حالة الإحرام.

منه أو لم يتمّ إثباته بالتجربة، وإن كان لابدّ من أن نوسّع مداركنا ومعرفتنا ليزداد اطّلاعنا على مصالح ومفاسد الأحكام.

وبناءً على ما تقدّم، يجب أن تكون قراءة القرآن وأذكار الصلاة والدعاء على النحو الذي أمرونا به، وأن تكون حركات الصلاة وسكناتها بالشكل والترتيب الذي طلبوه منّا. فلا نستطيع القول بأنّ أداء صلاة الصبح بعد الشروق أفضل لأنّنا نكون حينها أكثر نشاطاً، وما شابه ذلك، فمثل هذا الكلام يخالف روح التعبّد ويعدّ تطفّلاً على شؤون اللّه عزّ وجلّ. في سجون النظام السابق كان يشاهَد بعض أصحاب الفكر المنفتح وهم يتلون القرآن لساعات يوميّاً، أو يقرأون في صلواتهم سوراً طوالاً كسورة البقرة، في الوقت الذي كان يفوتهم أداء فريضة الصباح من دون أن يشعروا بأيّ تأنيب للضمير. إذن، انتهاك حريم التعبّد يؤدّي بالمرء إلى تلك المهاوي.

بعض أولئك كانوا يطرحون مسألة الانضباط فيقولون: من الضروريّ أن يكون الإنسان منظّماً وأن يأتي بكلّ صلاة في ساعة معيّنة؛ فمثلاً يصلّي صلاة الصباح عند الساعة السادسة من كلّ يوم وصلاة الظهر عند الثانية عشرة. لكن من الواضح أنّ التغيير الحاصل في الأوقات الشرعيّة بالنسبة للوقت الرسميّ سوف يسلب من أوقات الصلاة هذا الانضباط، فتارة يكون وقت الزوال الشرعيّ عند الساعة الثانية عشرة، وتارة بضع دقائق قبله أو بعده. فلو عمدنا ـ تحت شعار النظم والانضباط ـ إلى الإتيان بصلواتنا قبل وقتها الشرعيّ أو بعده، فهذا نمط من أنماط التعدّي على حدود التعبّد.

إنّ القيام بالأعمال الشرعيّة كما أمر بها الشارع، حتّى وإن لم يكن

فيه أيّ فائدة تذكر، لكنّه على الأقلّ يعزّز روح التعبّد عند الإنسان، وهذا الهدف وحده كافٍ لأن يتقيّد الفرد بما جاء به الشارع المقدّس، وهو أعظم مكسب يناله المرء من ممارسة الأمور التعبّدية. وعلى فرض أنّ حكم اللّه يشكّل ضرراً على الفرد أو المجتمع في جانب مّا، فإنّ مصلحة التعبّد به سوف تجبر ذلك الضرر. هذه الروحيّة هي الضامن للدين والسنن والأحكام الإلهيّة، وإنّ الشخص المقيّد بالتعبّديات لن يسمح بانتهاك القانون الإلهيّ، ولا يَطرح - على سبيل المثال - القانون الاقتصاديّ الاشتراكيّ أو الرأسماليّ كبديل عن الاقتصاد الإسلاميّ حتّى وإن اعتقد بأنّ في الأوّل منفعة أكبر للمجتمع وهي غير موجودة في الاقتصاد الإسلاميّ. فالإنسان المؤمن المتعبّد يعمل وفق ما أمر به اللّه سبحانه وتعالى.

إنّ التعرّض لحدود التعبّديات، وانتهاك حرمة القوانين الإلهيّة سوف يقود بالتدريج إلى طرح فكرة أنّ الأحكام الاجتماعيّة للإسلام كانت مناسبة لزمان المبعوث بها، ولدينا في عصرنا الحاضر قوانين أفضل؛ فالخمس والزكاة إنّما شُرّعا لتقليل الفواصل الطبقيّة، أمّا اليوم فلدينا قانون «المساواة العامّة» وقد أُلغيت المُلكيّة الشخصيّة، إذن لم تعد هناك أيّ حاجة للخمس والزكاة.

إنّ معظم أولئك الذين يطرحون مثل هذه الأفكار هم غير مخالفين للإسلام في الظاهر، بل يتصوّرون أنّ أحكاماً كهذه هي مختصّة بزمان ما قبل أربعة عشر قرناً، وإنّ العقل البشريّ اليوم قد بلغ من التكامل حدّاً يُمَكِّنه من سنّ قوانينه الخاصّة بحيث يغنيه عن اتّباع قانون الوحي!

لذا، فإنّ الشبهة المذكورة والمتمثّلة في حُسن استخدام اللسان غير العربيّ في الأدعية بسبب عدم فهم المعاني، سوف تؤول في نهاية المطاف إلى تجاهل الوحي والقانون السماويّ وإبعادهما عن الساحة. بناءً على ذلك، فإنّه يتعيّن احترام حريم الأحكام الإلهيّة والتعبّديات، فالدين من عند اللّه، وإنّ اللّه لم يعط الحقّ لأيّ من عباده للتدخّل بشؤونه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

كان «أصحاب السبت» من بني إسرائيل وكانوا يعيشون على ساحل البحر ويرتزقون من صيد الأسماك. فأتى الأمر الإلهيّ بأن يمتنعوا عن الصيد أيّام السبت ويشتغلوا بالعبادة. وقد أراد اللّه عزّ وجلّ أن يمتحنهم بذلك، فصار السمك يأتي إلى الشاطئ أيّام السبت ويختفي تماماً في غيره من الأيّام. ففكّر القوم ـ إنعاشاً لموارد دخلهم وتلافياً للضرر الاقتصاديّ ـ بطريقةٍ مخادعة فحفروا إلى جانب البحر أحواضاً. كانوا في يوم السبت يقومون بشقّ قنوات بين الأحواض والبحر لينساب السمك إلى الأحواض فيعمدون بعدها إلى سدّ طريق الخروج عليه ليصطادوه في اليوم التالي. لم يكن في ظاهر هذه العمليّة أيّ إشكال، ولم تبد مخالفة للشرع. فالقوم قد نُهوا عن الصيد لا عن ملء الأحواض وسدّ الطريق على السمك. كانت حيلة للفرار من حكم الشرع ولعلّها أكثر إقناعاً بكثير من الحيل التي يلجأ بعضنا إليها للفرار من الأحكام الإلهيّة (كما يفعل البعض بخصوص الربا). ولربّما

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٧.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٤.

كنّا نحن أيضاً من مؤيّدي هذا العمل بشكل كامل لو كنّا من زمرة هؤلاء. إلاّ أنّ اللّه مسخ هؤلاء القوم قردة بسبب فعلتهم تلك. هذه القصّة ليست بأسطورة، ولا هي من محرّفات التوراة والإنجيل، بل هي مذكورة في القرآن(١).

إذن على المتّقين أن يعتبروا من أمثال هذه القصص، وأن لا يتّخذوا من دين اللّه وأحكامه ألعوبةً وأن لا يتحايلوا عليه بأنواع «الحيل الشرعيّة». فالدين هو ذاك الذي أنزله اللّه تعالى، وأحكامه هي تلك التي بيّنها النبيّ ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام من بعده. فاللجوء إلى الحيل في الأحكام الشرعيّة مجلبة لمثل هذه البلايا، والتلاعب بدين اللّه سيؤول في النهاية إلى محوه.

على أيّة حال، إنّ الصلاة، وقراءة الأدعية، وتلاوة القرآن ضروريّة حتّى وإن لم يفهم الإنسان منها أيّ كلمة، فأداء الصلاة بالعربيّة واجب، لكنّ قراءة الدعاء والقرآن مستحبّة. ونؤكّد مجدّداً على أنّ هناك فارقاً كبيراً بين الدعاء الذي يفهمه الإنسان، وذاك الذي لا يفهمه. لكن، على الرغم من ذلك، لا يمكننا الادّعاء بأنّه لا جدوى من قراءة الدعاء والقرآن لمن لا يفهم معانيهما. فإن لم يكن في ذلك أيّ نفع ما خلا تقوية روح التعبّد عند الفرد، فهي تسمو على جميع أعمال من يفهم معانيها لكنّه يختلق البدع. فكفّة عمل تعبّدي صغير واحدٍ ترجح على كفّة مئات السنين من العبادة المختلَقة المبتدَعة؛ فالأولى عبوديّة، أمّا الثانية فاتّباعٌ للهوى وحبٌّ للذات.

كذلك الحال بالنسبة للأدعية المأثورة فهي تمتاز بخاصّية تقوية

(١) سورة البقرة، الآيتان ٦٥ و٦٦؛ وسورة الأعراف، الآيات ١٦٣ ـ ١٦٦.

روحيّة التعبّد، مع أنّها قد تشتمل على منافع أخرى أيضاً. هل باستطاعتنا القول يا ترى إنّ الشخص الأمّي الذي يجلس مستقبلاً القبلة ليقرأ دعاء كميل وهو على وضوء هو غير متوجّه للّه على الإطلاق؟ ألا يطلب هذا الشخص من اللّه أن يشمله بتلك المضامين العالية للدعاء؟ إنّه، على الرغم من عدم استيعابه لمعاني عبارات الدعاء، فهو في حال توجّه إلى اللّه والسؤال منه أن يتفضّل عليه بما طلبه أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه هذا منه سبحانه. إذن، بالإضافة إلى تعزيز روح التعبّد، فالذكر والتوجّه إلى اللّه هما من لوازم الدعاء وتلاوة القرآن، وهما غاية في القيمة أيضاً.

طبعاً لابدّ من التأكيد مجدّداً على عدم الاكتفاء بالقراءة بل السعي لتنمية المعرفة باللّه، وفهم ما نقوله له جلّ شأنه، أو ما يقوله هو لنا. لكن لا يجوز أن نتخلّى عن القراءة بحجّة عدم إدراكنا للمعاني.

إنّ قراءة المؤمنين للقرآن في شهر رمضان المبارك هي من موجبات صيانة الدين وحفظه، كما هو الحال في إقامة العزاء على سيّد الشهداء وباقي الأئمّة المعصومين عليهم السلام التي أسهمت في بقاء الإسلام والتشيّع إلى يومنا هذا، وإن كانت هيئته لا ترتقي إلى المثاليّة في بعض الجوانب، إلاّ أنّه يستبطن روحيّة عالية: كالتسليم للّه، وتوقير الدين وأوليائه، وما إلى ذلك. بالطبع لابدّ من بذل الجهود للارتقاء بمستوى العزاء إلى ما هو أسمى وأفضل؛ والارتقاء بكيفيّته، ومحتواه، بالإضافة إلى المحافظة على روح التعبّد فيه. لكن، إلى أن نصل إلى الشكل الأكثر مطلوبيّة، يجب المحافظة على هذه المراسم.

ومن الواضح أنّه لا يمكن تغيير الأمور التعبّدية، إلاّ أنّ المسائل العرَضيّة؛ كمراسم العزاء، من الممكن إقامتها على نحو أفضل. وفي أمثال هذه الأمور، أفضل الأشكال هو ما ينبع من فطرة الناس الصافية السليمة، وما تستدعيه عواطفهم الدينيّة، من دون الحاجة إلى أن يعلّمهم أحد. ويخطئ من يتخيّل أنّ إقامة مراسم العزاء بشكل منظّم وهادئ ـ كما هو حال التظاهرات في الدول الغربيّة ـ أفضل وأحسن، ذلك أنّ التظاهرات الدينيّة تُستَلهَم من الحماسة الدينيّة، والهدوء لا ينسجم مع الحماسة الدينيّة. نعم، هذا الأمر يصحّ مع العرفيّات، غير أنّ الأمور، التي تدخّل الشارع حتّى في طريقة وأسلوب أدائها، لا ينبغي أن تُبدَّل قيد شعرة، ومن الضروريّ ممارستها بذات الكيفيّة التي أمر اللّه بها، حتّى وإن اعتقدنا نحن أنّ هناك طريقةً أفضل لذلك.

جاء في الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام علّم رجلاً دعاء هو: «**يا اللّه يارحمٰن يا رحيم، يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»، فقال الرجل: «يا مقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك»، فشدّد عليه الإمام عليه السلام أن يقول كما علّمه قائلاً: «**إنّ اللّه عزّ وجلّ مقلّب القلوب والأبصار، ولكن قل كما أقول: يامقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»[1].

فالشخص الذي يبدّل ما قاله الإمام عليه السلام أو ما أتى به الشارع هو في الحقيقة يقول: إنّني أفهم أفضل من الإمام أو الشارع المقدّس. هذه الصفة تنشأ من الأنانيّة والغرور ولا تنسجم مع

(١) بحار الأنوار، ج٥٢، الباب ٢٢، ص١٤٨، الحديث ٧٣.

العبادة والعبوديّة، فمن لوازم العبادة الانكِسار، والاستكانة، وإنكار الذات. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**أُمر إبليس بالسجود لآدم فقال: ياربّ وعزّتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنّك عبادة ما عبدك أحد قطّ مثلها. قال اللّه جلّ جلاله: إنّي أحبّ أن أُطاع من حيث أريد**»(١). إذا قمنا بطاعة اللّه كما تشتهي قلوبنا، فإنّنا في الواقع نطيع قلوبنا ولم نُطع اللّه. وخلاصة القول، علينا أن نعمل بما أتى به الشارع بالضبط، وأن نتعبّد سواء في الواجبات أو المستحبّات من دون أن نتخطّاها قيد أنملة. ولا يجوز لنا أن نسمح بأيّ تضعيف أو تجاوز لحدود التعبّد، فإنّ التعدّي على حدود التعبّد معناه فناء الدين.

كما أنّ هذا الموضوع لا يتعارض مع سعينا من أجل معرفة مصالح أحكام الدين. فالكثير من تلك المصالح قد صرّحت بها الروايات والآيات القرآنيّة، كما أنّ البعض الآخر يمكن إثباته عن طريق العلم والتجربة، وهذا الأمر مطلوب بحدّ ذاته. والمرفوض هو أن يتوقّف قبول الدين على معرفة مصالح أحكامه.

ولابدّ أن نلتفت أيضاً إلى أنّه حتّى إذا توصّلنا إلى واحدة من مصالح الأحكام عن طريق إخبار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام المعصوم عليه السلام أو من خلال العلم والتجربة، فلا ينبغي التصوّر أنّ المصلحة هي هذه فحسب، لأنّه من الممكن أن تكون هناك عشرات المصالح الأخرى ممّا لانعرفه نحن.

وبناءً على ما تقدّم، ففي الوقت الذي يجب علينا فيه أن نؤدّي

(١) بحار الأنوار، ج٢، الباب ٣٢، ص٢٦٢، الحديث ٥.

الصلاة ونقرأ الدعاء والقرآن بالطريقة التي أمر بها الشارع، لابدّ أن نسعى لفهم معانيها وكسب المزيد من حضور القلب أثناء أدائها، وأن نعلم أنّ قيمة روح التعبّد في العبادة هي أعلى وأسمى بكثير ممّا نبتدعه نحن من عبادات.

* * *

الفصل الثاني

شرح مقاطع من دعاء الافتتاح

(١)

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَفْتَتِحُ الثَّنَاءَ بِحَمْدِكَ، وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوَابِ بِمَنِّكَ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فِي مَوْضِعِ العَفْوِ وَالرَّحْمَةِ، وَأَشَدُّ المُعَاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النَّكَالِ وَالنَّقِمَةِ، وَأَعْظَمُ المُتَجَبِّرِينَ فِي مَوْضِعِ الكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ. اَللَّهُمَّ أَذِنْتَ لِي فِي دُعَائِكَ وَمَسْأَلَتِكَ، فَاسْمَعْ يَا سَمِيعُ مِدْحَتِي، وَأَجِبْ يَا رَحِيمُ دَعْوَتِي، وَأَقِلْ يَا غَفُورُ عَثْرَتِي».

رمضان فرصة ثمينة

إنّ حياة الإنسان تمرّ مرّ السحاب وهو لا يعلم أيّ ثروة تذهب من بين يديه. أحياناً، عندما يوفّق إلى استرجاع ماضيه، ينتبه إلى أنّ عمراً قد انصرم، أمضاه في السعي الحثيث، والجهد الجهيد لكنّه خرج صفر اليدين.

إنّنا نبحث باستمرار، وعلى مدار السنة، عن فرصة نجلس فيها لنفكّر في حياتنا؛ كيف بدأت، وإلى أيّ شيء ستؤول، ونخطّط

لانتخاب المسير الذي سنسلكه لرسم حياتنا الأبديّة، لكن قلّما تسنح لنا مثل هذه الفرصة. لعلّ من أفضل الأوقات التي يمكن استغلالها في هذا المجال هو «شهر رمضان المبارك». فلطالما قطعنا الوعود على أنفسنا أنّنا بحلول شهر رمضان القادم، عندما سنتفرّغ إلى العبادة أكثر من أيّ وقت مضى، سنُعرض إلى حدّ ما عن الدنيا وحبّها، ونتوجّه إلى اللّه، ونفكّر في شؤون مهمة من قبيل: مَن نحن؟ ومن أين أتينا؟ وإلى أين نحن سائرون؟ وما الذي يتحتّم علينا فعله في هذا الوجود؟

وفجأة يُسدَل الستار على هذا الانتظار ويطرق شهر رمضان الأبواب، لكنّ الشيطان يجهد ـ كما في الأيّام الخوالي ـ في أن يحرم الإنسان من اغتنام هذه الأوقات الشريفة، واللحظات الثمينة لنيل التوفيق من اللّه. فأيادي الشيطان، الخفيّة منها والجليّة، تمتدّ إلى كلّ مجال لتخلط دوافع الإنسان بالأغراض الشخصيّة والماديّة، وتمزج دعاءه ومناجاته وعبادته بالتثاقل والتكاسل، وتسلب منه روحيّة المناجاة مع اللّه.

في خضمّ هذا التضادّ والتجاذب والصراع بين جنود اللّه وجنود النفس والشيطان يتعيّن على الإنسان أن يسأل اللّه التوفيق لاغتنام الفرص المتاحة له، وعدم إرجاء الدعاء والعبادة إلى أوقات أخرى. عليه أن يبذل قصارى جهده لأن يخطو ـ على قدر وسعه ـ خطوة إيجابيّة على طريق تكامله المعنويّ والقرب من اللّه.

ومن الأعمال التي كثرت التوصية بها، وعُدّ شهر رمضان ربيعاً لها هو الدعاء والمناجاة، إذ أنّ بين رمضان والدعاء آصرةً لا تنفصم أبداً.

كيف نغتنم فرصة شهر رمضان؟

من أجل التمكّن من الاستفادة الأمثل من أوقات هذا الشهر المبارك، علينا بادئ ذي بدء أن نستعين بنفس الدعاء؛ أي أن نطلب من اللّه أن يهبنا التوفيق للمناجاة. بطبيعة الحال علينا نحن أيضاً أن نحاول على قدر استطاعتنا للحصول على حال العبادة والتوفيق لها؛ أي أن نحدّ من وتيرة أعمالنا اليوميّة، ونخصّص بعضاً من أوقاتنا للدعاء والعبادة. ويجب أن نتوخّى الدقّة في نظام نومنا وأكلنا حتّى لا يكون بكيفيّة تورث التكاسل والتثاقل. وعلينا تنظيم برنامج طعامنا بالشكل الذي نوفّق معه إلى الصيام وأداء أعمال شهر رمضان وعباداته في آن معاً؛ فتناول الطعام الضروريّ للبدن غير البطنة. وكذا أوقات النوم؛ لابدّ من تنظيمها على نحو نكون فيه بكامل نشاطنا في أوقات العبادة، لا أن يبقى نظام العمل اليوميّ المستمرّ على حاله ثمّ نتوقّع أن يكون لدينا حال العبادة في السحر.

الالتفات إلى حقيقة الدعاء

من المناسب قبل البدء بالدعاء أن نفكّر هنيهة في: مَن نحن؟ إلى مَن نريد أن نوجّه وجوهنا؟ وما معنى الدعاء؟ أيّ مقام رفيع هذا أن يوفَّق الإنسان إلى التكلّم مع ربّه ومناجاته!

ومن الضروريّ التمعّن في مضامين الدعاء، وعلى الأقلّ (بالنسبة لغير المتكلّمين بالعربيّة) التأمّل في ترجمته للوقوف إجمالاً على معاني ما يُقرأ كي لا يتحوّل الدعاء إلى تلفّظ مجموعة كلمات عربية فحسب بحيث لا يفهم الداعي معها ما يقول أو ما يقرأ. والأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام تنطوي على مضامين عالية تجعل

من مجرّد مطالعتها أمراً ذا قيمة عظيمة حتّى مع عدم حصول الحال للدعاء والمناجاة.

فالتفكّر في مضمون الدعاء قبل البدء به يمَكّننا من الإفادة منه على نحو أفضل. ومراتب الاستفادة من الدعاء تختلف اختلافاً كبيراً من شخص لآخر إلى درجة لا يتسنّى لنا إدراكها. هناك بون شاسع، إلى حدّ لا يمكن توصيفه، بين الدعاء الذي لا يتعدّى تلفّظ الكلمات، وجلّ ما يراعى فيه النطق الصحيح للحروف، وبين الدعاء الذي يلتفت الإنسان فيه إلى مضامينه، ويكون حاله المعنويّ فيه مواتياً أيضاً. فلربّما دعا اثنان مراعيين الآداب الظاهريّة للدعاء، كالكون على وضوء، واستقبال القبلة، والتأدّب، وما إلى ذلك، لكنّ التفاوت في الفائدة التي يجنيها كلّ منهما من الدعاء قد يكون بمقدار نعجز نحن عن تصوّره. إذن الاستفادة من الدعاء تتوقّف على حال الإنسان الداعي، وتوجّهاته القلبيّة إلى اللّه تعالى وصفاته، خصوصاً تلك الصفات المشار إليها في الدعاء.

رمضان و«الافتتاح»

ورد من الأدعية في هذا الشهر الكثير. في كتاب «مفاتيح الجنان» وحده - الذي لا يضمّ إلاّ بعض الأدعية الواردة عن المعصومين عليهم السلام - هناك من الأدعية ممّا لا أظنّ أنّ أحداً منّا وُفّق طيلة عمره لقراءتها كلّها ولو لمرّة واحدة، فما بالك بالأدعية الأخرى الواردة في كتب الأدعية الضخمة كـ«الإقبال» للسيّد بن طاووس وغيره. فهناك على سبيل المثال أدعية مطوّلة تُقرأ ما بين نوافل الظهر والعصر في شهر رمضان المبارك، والحال أنّنا لا نوفَّق إلى أداء أصل تلك النوافل إلاّ نادراً،

فضلاً عن قراءة أدعيتها. وإذا ما وُفّقنا في وقت من الأوقات لقراءة دعاء ما، سُلِبنا روحه؛ أي ما يلزم من حضور القلب أثناء قراءته.

إنّ أحد الأدعية المناسبة جدّاً، والمفعمة بالمضامين، ممّا نُقل للدعاء به في ليالي هذا الشهر الفضيل هو «دعاء الافتتاح»[1] الذي ينطوي على مضامين عالية، وقد جاءت مواضيعه على نحو يعلّم الداعي الآداب الواجب مراعاتها، والمسائل التي لابدّ من الالتفات إليها أثناء الدعاء.

الابتداء بالثناء على الله

يبتدئ هذا الدعاء الشريف بحمد اللّه والثناء عليه: «**اللهمّ إنّي أفتتح الثناء بحمدك**».

في عالم اليوم الصاخب والمليء بالضجيج كثرت العقبات في طريق التوجّه إلى اللّه. ففي الوقت الذي ينحصر فيه طريق سعادة الإنسان في العبوديّة للّه وعبادته، ولا تشكّل باقي السبل إلاّ مقدّمة

(١) نقل العلاّمة المجلسيّ في كتابه «زاد المعاد» أنّه: رُوي عن صاحب الأمر ﷺ بسند معتبر أنّه كتب إلى شيعته بأن يقرأوا هذا الدعاء (الافتتاح) في كل ليلة من ليالي شهر رمضان فإنّ الملائكة تسمع الدعاء في هذا الشهر وتستغفر لصاحبه. وقد أكّد المرحوم الشيخ عبّاس القمّي في كتابه «هدية الزائرين وبهجة الناظرين» على هذا الموضوع أيضاً.
ونقل السيّد بن طاووس في كتابه «الإقبال» سند هذا الدعاء في ذكره لأسناد أدعية شهر رمضان بقوله: فمن ذلك الدعاء الذي ذكره محمّد بن أبي قرّة باسناده فقال: حدّثني أبو الغنائم محمّد بن محمّد بن محمّد بن عبد اللّه الحسنيّ قال: أخبرنا أبو عمرو محمّد بن محمّد بن نصر السكونيّ (رضي اللّه عنه)، قال: سألت أبا بكر أحمد بن محمّد بن عثمان البغداديّ (رحمه اللّه) أن يخرج إليّ أدعية شهر رمضان التي كان عمّه أبو جعفر محمّد بن عثمان بن السعيد العمريّ (رضي اللّه عنه وأرضاه) [وهو أحد النوّاب الأربعة لصاحب الأمر ﷺ] يدعو بها. فأخرج إليّ دفتراً مجلّداً بأحمر، فنسخت منه أدعية كثيرة وكان من جملتها: وتدعو بهذا الدعاء [الافتتاح] في كلّ ليلة من شهر رمضان، فإنّ الدعاء في هذا الشهر تسمعه الملائكة وتستغفر لصاحبه.

لهذه الحقيقة، نجد ـ للأسف الشديد ـ أنّ غالبيّة الناس غافلون عن تلك الحقيقة؛ وهم متوجّهون لكلّ شيء ما خلا اللّه الذي من شأنه أن يؤمّن تكامل الإنسان وسعادته الحقيقيّة.

وبحلول شهر رمضان المبارك تنحسر الموانع التي تقف عائقاً أمام التوجّه إلى اللّه، الأمر الذي يمهّد الأرضيّة اللازمة للدعاء والعبادة. وفي ربيع الدعاء والعبادة هذا يترنّم المشتاقون بذكر معبودهم، ويطلبونه ويدعونه من أعماق وجودهم. فإذا كان اللّه قد مهّد لنا أرضيّة الدعاء والعبادة في هذا الشهر، فكيف نبتدئ الدعاء؟

إنّ أسمى وأعظم كلام يمكن أن يُبتدأ به الدعاء هو حمد اللّه والثناء عليه: إلهي، يا من كلّ شيء هو منك، يا من لا يملك أحد شيئاً إلاّ منك، يا من لا ينال أحد كمالاً إلاّ بإرادتك، أنت من يهب التوفيق للدعاء. إلهي، خذ بأيدينا ووفّقنا لدعائك. فكم في أرضك من عبادك ممّن هم غافلون عن ذكرك! إلهي، لو لم تكن قد أخذت بأيدينا لكنّا اليوم في زمرة الغافلين عنك. كلّ ما هو موجود إنّما هو من بركات توفيقك: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

إذن، لابدّ من ابتداء الدعاء بالحمد للّه، والثناء عليه بما منحنا من التوفيق للتوجّه إليه جلّ شأنه.

اختيار طريق الصواب والتسديد الإلهيّ

«وأنت مسدّد للصواب بمنّك».

إنّ توفيق الإنسان لسلوك سبيل الحقّ والصواب هو منّة من اللّه

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

على الإنسان حيث هداه لهذا وأعانه عليه. في هذه العبارة من الدعاء إشارة إلى أنّ الإنسان، وإنْ كان قد خُلق حرّاً ليختار ما بين طريق الخير والشرّ بنفسه، لكنّه إذا اختار طريق الخير أيّده اللّه وسدّده. جاء في الحديث القدسيّ: «**من تقرّب إليّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً**»[1]، وهذا لطف مضاعف من اللّه حيث يسدّد كلّ من انتخب وسلك سبيله.

رحمة الله وغضبه كلاهما بحكمة

قد يتبادر إل الذهن سؤال وهو: إذا كان اللّه مصدر كلّ الخيرات والكمالات، ولا يصدر منه غير الخير والحسن، فلماذا يصاب بعض عباده ببعض أنواع البلايا والمكاره، بل وحتّى العذاب الأخرويّ؟

في الحقيقة إنّنا نقيس الأفعال الإلهيّة بمعايير وموازين هي من اختلاق أذهاننا وعقولنا القاصرة، ونتوقّع أن يتصرّف اللّه معنا بالشكل الذي نفكّر به نحن، في حين أنّ فكرنا وعلمنا محدودان وناقصان إلى درجة كبيرة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

إنّ جميع الأفعال الإلهيّة تستند إلى الحكمة وترتكز على أفضل النُظُم الممكنة، ممّا لا اطّلاع لنا على كمّه وكيفه. فعندما يكون المقام مناسباً لعطف اللّه ورأفته بعبيده، يكون اللّه على جانب من العطف والرأفة ممّا لا يُتَصوّر فوقه، لكن قد لا يكون مجال للرأفة والرحمة أحياناً، فتتجلّى حينئذ عظمة اللّه وجبروته وكبرياؤه، ولا يظهر إلاّ العقاب الإلهيّ في مثل تلك المواطن، وإظهار العظمة الإلهيّة تامّ

(١) بحار الأنوار، ج٨٤، الباب ١١، ص١٩٠، الحديث ٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

فيما يتعلّق بمستحقّي العقاب. لذا يقول في ما يلي من الدعاء: **«وأيقنت أنّك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة، وأعظم المتجبّرين في موضع الكبرياء والعظمة»**.

ضرورة الخوف والرجاء

إنّ سعادة الإنسان تكمن في إدراكه بأنّه، في مقابل اللّه وعظمته، ليس إلاّ عبداً ذليلاً لا يملك من نفسه شيئاً. فكلّ خير فهو متعلّق باللّه سبحانه وتعالى، وما من شدّة أو تعاسة يتعرّض لها الإنسان إلاّ من جرّاء سوء اختياره هو. وعلى الإنسان أن يعلم أنّ سلوكه لسبيل الباطل نتيجة سوء اختياره هو - عمليّاً - بمثابة إعلان الحرب على اللّه الذي سيوبّخه توبيخاً قاسياً على ذلك. ويتعيّن على الإنسان أن يعيش دائماً بين الخوف والرجاء، ويفكّر بأنّه، بالرغم من سجلّه الحافل بالعبادات، فإنّ عثرة واحدة قد تؤدّي به إلى أشدّ أنواع المكر الإلهيّ، ويختم حياته بسوء العاقبة، أو أنّه، على الرغم من شدّة دناءته وانغماسه بالآثام، فإنّ اللّه قد ينتشله من واقعه هذا، فتؤول به الأمور إلى حسن العاقبة.

إنّ الشعور بالأمن من المكر الإلهيّ هو بحدّ ذاته من كبائر الذنوب. فلو قضى الإنسان تمام عمره عابداً للّه، فلا ينبغي أن يقنع بذلك، ويغترّ بنفسه، ويطمئنّ لعاقبة أمره. فالشعور بالغرور، والتفاخر بالذات هو من عظائم الذنوب عند اللّه. بل على العكس، يتحتّم على الإنسان أن يكون دائم الخوف من أنّ اللّه إن وكَلَه إلى نفسه طرفة عين، كان مصيره السقوط إلى الحضيض.

من هذا المنطلق نجد أنّ الأشخاص الأكثر قرباً من اللّه، كالأنبياء والأولياء، هم أشدّ خوفاً منه؛ فأولئك يدركون عظمة الباري عزّ وجلّ أكثر من غيرهم وهم، مع ما حباهم اللّه به من مقام عظيم، على حذر وخوف شديدين من أن يصيبهم في حضرة اللّه تعالى الغرور ولو للحظة واحدة.

ومن ناحية أخرى فإنّ اللّه قد عدّ اليأس من رحمته من كبائر الذنوب. فمهما بلغت الذنوب والآثام بالإنسان، فلا ينبغي أن يصيبه القنوط من رحمة اللّه، إذ أنّ رحمة اللّه على جانب من السعة والرحابة بحيث أنّ الإنسان إذا تاب توبة نصوحاً، ورجع إلى ربّه، ألبسه اللّه لباس توبته. فحينما يُظهِر العبد أقصى درجات الذلّة في حضرة المولى جلّ شأنه، ويحصلَ عنده كمال الجمع بين الخوف والرجاء، يكون قد خطى خطوة على طريق تكامله: «**إنّه ليس من عبد مؤمن إلاّ في قلبه نوران؛ نور خيفة ونور رجاء، لو وُزِن هذا لم يزد على هذا، ولو وُزِن هذا لم يزد على هذا**»[1].

التوفيق للعبادة منّة من اللّه على العبد

بعد الالتفات إلى صفات اللّه، والثناء عليه بما أنعم على الإنسان من التوفيقات، يقول الداعي: «**اللهمّ أذنتَ لي في دعائك ومسألتك**».

النقطة المشار إليها في هذه العبارة من الدعاء هي غاية في الظرافة والدقّة، وغالباً ما نغفل عنها. نحن نتصوّر أنّنا بدعائنا ومناجاتنا قد

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، الباب ٥٩، ص٣٥٢، الحديث ١.

قمنا بعمل جبّار يستحقّ أن نمنّ به على اللّه، بيد أنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الدعاء يقول: إلهي أيّ منّة عظيمة تلك التي مننت بها عليّ حيث أجزتَ لي الوقوف على بابك، ودعائك، وطلب الحاجة منك. لعلّنا لا نلتفت إلى مدى اللطف العظيم الذي تلطّف به اللّه تعالى علينا بأن سمح لنا بمخاطبته، مع الأخذ بنظر الاعتبار ذلك الكمّ الهائل من المعاصي التي اقترفناها طيلة حياتنا. في هذا السياق يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «**من أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا، وإذنك لنا بدعائك**»(١).

ولإلقاء المزيد من الضوء على هذه النقطة الظريفة وتقريبها أكثر إلى الذهن - وإن كان لابدّ من الاعتراف بعدم إمكانيّة إعطاء الموضوع كلّ ما يستحقّ - فلنتصوّر أنّ شخصاً، على مدى أعوام طوال، لم يدّخر أيّ وسع في إظهار المحبّة لصديقه، وإسداء الخدمة له، وإعانته ومناصرته بكلّ ما أوتي من قوّة؛ غير أنّ صديقه هذا، وبعد كلّ تلك المحبّة، لم يكتف بعدم الشكر لصديقه في مقابل كلّ تلك الخدمات والأتعاب، بل واجهه بالمخالفة والعداء. قد يكون بالإمكان تحمّل صدور مثل هذا التصرّف من صديق لبضع مرّات لا أكثر، لكنّ صبر الإنسان سرعان ما ينفد فيبادر إلى هجر صديقه هذا، مندهشاً من كلّ تلك الوقاحة وسوء الأدب في مقابل كلّ تلك الخدمات. لكنّنا في المقابل نجد أنّ اللّه سبحانه وتعالى، في الوقت الذي أنعم على عبده بكلّ هذه النعم ـ ممّا لو اجتمع الجنّ والإنس على إحصاء نعمه على واحد من عبيده ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ـ

(١) مفاتيح الجنان، مناجاة خمس عشرة، المناجاة الثالثة عشرة (مناجاة الذاكرين).

لكنّه عندما يعصي نفس هذا العبد ربّه، نجد أنّه ليس فقط لا يطرد عبده من بابه، بل يوفّقه إلى عبادته كي يدعوه.

عصيان العبد واستمرار الفيض الإلهيّ

بعد أن يذكر الداعي أنّ لطف اللّه يتمثّل في الإذن له بدعائه ومسألته، ينبري إلى طلب العفو والمغفرة، وسرد الصفات الإلهيّة، وذكر حاجاته قائلاً: «**فاسمع يا سميع مدحتي، وأجب يا رحيم دعوتي، وأقل يا غفور عثرتي**».

إنّ جميع جوارح الإنسان؛ من عينيه، إلى أُذنيه، وسائر جوارحه الظاهريّة، وحتّى قلبه تعصي اللّه عزّ وجلّ، وتحاربه مع كلّ ما أنعم اللّه به على الإنسان من النعم. ثمّ يأتي مثل هذا العبد ويريد مجالسة اللّه، والأنس معه، وطرح حوائجه في حضرته، ويحدوه الأمل في الإجابة أيضاً! إنّ مثل هذا التوقّع من اللّه لا يتلاءم مع تصرّفات الإنسان وآثامه. فحريّ باللّه هنا أن يطرد هذا الإنسان من حضرته، وينساه بسبب معاصيه، لكنّه جلّ شأنه ليس فقط لا يطرد عبده من حضرته، بل ويدعوه إليه. جاء في الحديث القدسيّ: «**لو يعلم المدبرون عنّي كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ وتقطّعت أوصالهم عن محبّتي**»[١].

أجل، لو تدبّر الإنسان جيّداً لأدرك أنّ من أعظم ألطاف اللّه تعالى هو السماح لعبده العاصي الآثم بالمثول بين يديه، وسؤاله، ثمّ إجابته فيما سأل.

---

(١) جامع السعادات، محمّد مهدي النراقيّ، ج٣، ص١٠٤.

(٢)

«فَكَمْ يَا إلهي مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ فَرَّجْتَهَا، وَهُمُوم قَدْ كَشَفْتَهَا، وَعَثْرَةٍ قَدْ أَقَلْتَهَا، وَرَحْمَةٍ قَدْ نَشَرْتَهَا، وَحَلْقَةِ بَلاَءٍ قَدْ فَكَكْتَهَا».

حقيقة الدعاء في الإقبال القلبيّ على الله

ليس الدعاء تلفّظاً بمجموعة كلمات، أو مراعاة لجملة آداب خاصّة، بل إنّ حقيقة الدعاء وروحه تكمنان في إقبال الإنسان بقلبه على اللّه تعالى، وإنّ شدّة هذا الإقبال ونطاقه يتناسبان مع مقدار محبّة الإنسان لربّه ومعرفته به. لذا لابدّ ـ قبل البدء بالدعاء وفي أثنائه ـ من التأمّل في صفات اللّه، لاسيّما ما ورد منها في سياق الدعاء نفسه، وفي ألطافه وآلائه التي أغدقها على الإنسان، من أجل أن يدرك الداعي العلاقةَ التي تربطه بربّه على نحو أفضل، فيشتدّ عنده حضور القلب.

التذكير بنعم الله

بعد التذكير بهذه النقطة الظريفة والدقيقة؛ وهي أنّك أنت يا إلهي قد مننت علينا وأجزت لنا مخاطبتك، يبدأ الداعي بسرد آلاء اللّه المختلفة على الإنسان والتي يكون الناس في الأعمّ الأغلب غافلين عنها.

فهناك طائفة من النعم الإلهيّة يمكن الوقوف على أهمّيتها بقليل من

التفكّر، وكلّما ازدادت معلوماتنا عنها، كان إدراكُنا لأثرها وأهمّيتها في حياتنا أكبرَ، وفَهْمُنا لقيمتها أفضلَ. أمّا الطائفة الأخرى من النعم فتحتاج إلى تأمّل أعمق. ومن جملة النعم التي غالباً ما يغفل الناس عنها هي نعمة رفع البلايا ودفع المكاره، سواء عندما يُبتلى الإنسان بمكروه فيدفعه اللّه عنه، أو يصاب ببلاء (وهو فوق المكروه) فينجيه منه؛ يقول: «**فكم يا إلهي من كربة قد فرّجتَها، وهموم قد كشفتَها، وعثرة قد أقلتَها، ورحمة قد نشرتَها، وحلقة بلاء قد فككتَها**». فما دام الإنسان في منأى عن المشاكل، ولم يقع في مأزق أو حرج، فإنّه لا يدرك أهمّية النعم التي منّ اللّه بها عليه. فكلّنا تعرّض للشدائد والمصائب في حياته، بنسب متفاوتة، وتجاوزها بعد برهة من الزمن، طالت أو قصرت، لكنّنا مررنا عليها مرور الكرام من دون أدنى تأمّل أو تفكّر فيها. فالتفكّر في مثل هذه الأحداث يبعث اليقظة في نفس الإنسان، ويوطّد علاقته مع ربّه.

فلنفترض أنّ إنساناً واجه ظرفاً في غاية الحساسيّة (كأن يكون بحاجة ماسّة للمال والطبيب والدواء ولا يمكنه الحصول على أيّ منها) وقد أُصيب هو أو أحد ذويه بمرض شديد بحيث أنّ خطراً محدقاً سيلمّ به إن لم يبادر إلى علاجه، ولم يهتد، والحال هذه، إلى أيّ سبيل نجاة بالرغم من لجوئه لكلّ الوسائل المتاحة، حينها سيدرك هذا الإنسان جيّداً ما هو معنى الشدّة والكرب. في هذه الأثناء، وعندما يُسلَب الإنسان القدرة على فعل أيّ شيء، وتُغلّق جميع الأبواب في وجهه، ويتملّكه اليأس الكامل، ويشرف على الاستسلام للبلاء، تُحلّ عقدته بشكل ينجو معه من الهلكة والشدّة.

إنّ أمثال هذه الأمور تحدث في حياة أيّ شخص منّا، مع التفاوت في الشدّة والضعف، لكنّنا غالباً ما ننسبها إلى الصدفة لا إلى مشيئة اللّه، وعندما يزول عنّا الخطر لا نلتفت إلى أنّ اللّه هو الذي شملنا بلطفه وأزاله. وإذا صادف أن نسبنا هذا الفعل إلى اللّه، فإنّ ذلك يكون مجرّد لقلقة لسان ولا ينمّ عن اعتقاد قلبيّ به، في حين أنّ لطفه جلّ شأنه هو الذي شملنا ورفع عنّا ما ألمّ بنا.

وفي نظام الخلق أساساً فإنّ كلّ ما يقع ويحدث، سلباً أو إيجاباً، فهو بإرادة اللّه، وما من أمر يحدث من دون إرادته تعالى. فإن تمتّع الإنسان بنعمة، فهي بإرادة اللّه، وإن رُفع عنه بلاء فهو بأمر اللّه أيضاً. فهو سبحانه الذي يهيّئ الأسباب والظروف لجريان الأمور، عرفناها أم لم نعرفها، توفّرت الأسباب العاديّة أم لم تتوفّر. لكن عندما تُحلّ مشاكلنا عن طريق الأسباب غير العاديّة، وهو ما نطلق عليه اسم «الصدفة»، ستلفت انتباهنا أكثر، وسنتأثّر بها بدرجة أكبر.

فاللّه هو الذي يبعث الرزق للإنسان دائماً، سواء أتى هذا الرزق عن طريق الأسباب العاديّة؛ كالكسب والتجارة، أو بوساطة الأسباب غير العاديّة؛ كالمائدة السماويّة وما شاكل. فالرزق في جميع الأحوال منه سبحانه، والرزّاق هو لا غيره. كما أنّ دفع البلايا والكرب بيده هو. فالداء منه هو، والشفاء أيضاً بمشيئته، سواء من خلال التطبّب وتناول الدواء، أو بطرق أخرى. ينقل القرآن الكريم عن لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ما نصّه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[1].

(١) سورة الشعراء، الآيات ٧٨ ـ ٨١.

لو تدبّر الإنسان قليلاً في المصائب التي تحلّ به ثمّ لا تلبث أن تنكشف عنه بعد حين، فسوف يدرك مدى لطف اللّه به. فهو أحياناً يدفع عنه البلاء حتّى قبل أن يتوجّه إليه. بناءً على ذلك، من المناسب أن نتدبّر ونتفكّر في الحوادث التي حلّت بالآخرين دوننا. فإنّنا عندما نخرج من البيت صباحاً ونعود إليه مساءً سالمين، فإنّ إرادة اللّه هي التي أزاحت عنّا مئات المكاره والبلايا. بالضبط كما أنّه وهبنا العين، وأبعد عنها آلاف المخاطر كي لا نُسلب نعمة البصر. وأعطانا البدن، ودفع عنه مئات المكاره كي يبقى صحيحاً سالماً.

والأهمّ من كلّ هذا آلاء اللّه المعنويّة على الخلق. فقد أنعم علينا بالإيمان والعقل، ثمّ حفظهما لنا. فكثيرون هم أولئك الذين يخرجون من منازلهم صباحاً مؤمنين، ثمّ يعودون إليها مساءً وقد تزلزل إيمانهم أو ذهب أدراج الرياح، أو يصومون شهر رمضان من هذا العام، لكنّهم لا يوفّقون إلى صيامه في العام المقبل. كُثُر هم الأشخاص الذين كانوا على الصراط المستقيم في مستهلّ مسيرتهم، لكن سرعان ما انحرفوا فوقعوا في حبائل المدارس المنحرفة والانتقائيّة الترقيعيّة. ألا يخطر في بالكم أسماء بعض الأشخاص الذين فقدوا عقولهم وقدرتهم على التفكير؟

دوام النعم هو بيد الله

إنّ نعمة الهداية، ومعرفة اللّه سبحانه، ومعرفة النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام هي من اللّه أيضاً، وإنّ دوامها هي بيده كذلك، إذ

لابدّ من التسديد الإلهيّ المتواصل كي تدوم هذه النعم. إنّ السرّ من وراء تكرارنا لعبارة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1] في كلّ يوم، وفي كلّ صلاة، هو طلب استمرار وبقاء نعمة الهداية، وإلاّ فنحن - إن شاء اللّه - عارفون بالصراط المستقيم وسائرون عليه، لكن إذا لم يُرِد اللّه، فلا ضمانة إطلاقاً لدوام هذه النعمة. إذن، معرفة الطريق القويم وحدها لا تكفي، بل لابدّ من بقائها واستمرارها، وإن لم يسعفنا اللّه بعونه، ذهبت هذه المعرفة أدراج الرياح. لذا يتعيّن علينا دائماً أن نسأل اللّه الهداية إلى الصراط المستقيم، والعون للاستمرار فيه.

فهناك أشخاص كثيرون كانوا على الدرب الصحيح، ثمّ ابتُلو بالمعاصي، وتدرّجوا من المعصية إلى المعصيتين، والثلاث، وشيئاً فشيئاً تعوّدوا على فعل الذنوب فانحرفوا عن جادّة الصواب. إنّ اللّه فقط هو مَن بيده حفظ الإنسان وردعه عن ارتكاب المعاصي والآثام. فالإنسان أحياناً يعزم عل اقتراف الخطيئة، ويشحذ الهمّة لارتكابها، وتكون المقدّمات كلّها معدّة لفعلها، إلاّ أنّ اللّه، من خلال لطفه بعبده ومحبّته له، يحول دون ذلك. كلّ هذه الأمثلة هي من مصاديق لطف اللّه وآلائه، فإن قدر الإنسان تلك النعم حقّ قدرها، أدامها اللّه عليه، وإلاّ وَكَلَه إلى نفسه.

ونستنتج من ذلك أنّه إذا كانت الظروف مساعدة على اقتراف الذنب، ثمّ لم نقترفه، فلا ينبغي أن نمنّ على اللّه بذلك، بل يجب أن نشكره على منّته علينا حيث حال بيننا وبين ارتكاب المعصية.

من هذا المنطلق علينا أن نلتفت حال الدعاء إلى أنّنا مَن الذي

(١) سورة الفاتحة، الآية ٦.

نواجهه في دعائنا؟ إنّنا نواجه مَنْ أغرقنا في كلّ لحظة بوابل نعمه، ماديّها ومعنويّها. نواجه مَنْ أسبغ علينا آلاف التوفيقات في سبيل أن نضع نعمه في مواضعها، فإن لم نستطع أن نقوم بهذا فعلى أقلّ تقدير لا يجوز أن نتلوّث بالذنوب. لكنّ الإنسان ليس بشكور، فهو يتجاهل كلّ تلك النعم. فلو أنّ صديقاً أغاثنا في ساعة شدّة، لذكرناه ما حيينا ولشكرنا له جميله، في حين أنّ رفع هذه الشدّة كان بتدبير من اللّه عزّ وجلّ ولم يكن ذلك الصديق إلاّ وسيلة لذلك، أمّا آلاء اللّه ونعماؤه، التي لا تُعدّ ولا تُحصى، فنحن لا نتذكّرها، وحتّى أنّنا لا نشكرها بألسنتنا.

ضرورة التفكّر في آلاء اللّه

ألا ينبغي للإنسان ـ مع وجود ما لا يعدّ ولا يحصى من النعم التي أسبغها اللّه تعالى عليه ـ أن يخصّص بضع دقائق من كلّ يوم يتأمّل ويتفكّر فيها بنعم اللّه؟ إنّنا لا نملك شيئاً نقدّمه للّه في مقابل تلك النعم، لكن ـ على الأقلّ ـ لنتعرّف عليها، ولنعترف بأنّ اللّه هو من وهبنا إيّاها. من هذا المنطلق، يبدأ الداعي في هذا القسم من الدعاء بسرد بعض تلك النعم: «**فكم يا إلهي من كربة قد فرّجتَها، وهموم قد كشفتَها، وعثرة قد أقلتَها، ورحمة قد نشرتَها، وحلقة بلاء قد فككتَها**».

وعندما يتأمّل الإنسان بعض الشيء في هذه المقاطع ويفكّر في المصائب والشدائد التي نزلت به ثمّ نجّاه اللّه منها، يصبح حاله مهيّأً أكثر للدعاء وفهم هذه الفقرات. فإذا اعتقد الإنسان بأنّ منشأ جميع النعم هو اللّه، مال قلبه إليه، وأصبح أكثر رغبة في مجالسته والأنس

به. أمّا الإنسان الذي لا يعتقد بأنّ مايتمتّع به من النعم هو من عند اللّه، وهو غافل كلّ الغفلة عن هذه الحقيقة، بل وليس اللّه في نظره سوى ذلك الموجود الذي يحول بينه وبين غرائزه وملذّاته، ويرمي به إلى جهنّم، فكيف يتيسّر لمثل هذا الإنسان أن يتحدّث مع اللّه؟ أو أن يأنس به؟ وكيف لمحبّة اللّه أن تجد موطئ قدم لها في قلبه وهو غافل عن سيل النعم التي أسبغها اللّه تعالى عليه؟

أ ـ الخوف من العقاب نعمة إلهيّة

الخوف من اللّه هو بحدّ ذاته نعمة إلهيّة، إلاّ أنّ جهلنا هو الذي يحول دون إدراكنا لهذه النعمة. فعندما يخيفنا اللّه ويبيّن لنا المخاطر، فهو في الحقيقة يرينا الآثار المترتّبة على قبيح أعمالنا والتي ستحيق بنا نحن أكثر من أيّ أحد آخر. فهذه العقوبات والحوادث المؤلمة والتي هي نتاج ما نجترحه من السيّئات هي تحذير لنا لردعنا عن ارتكاب القبائح؛ وهذا يشبه ما يفعله الوالد الذي يخوّف طفله الصغير من اللعب بالنار، فإنّه لا يبغي بذلك إيذاءه، بل يقصد الحيلولة دون وقوع حادثة لا يحمد عقباها. لذا فإنّ التنبيه هنا هو ضرب من ضروب اللطف.

ب ـ التكاليف نِعَم إلهيّة

إنّ تشريع الواجبات والمحرّمات أيضاً لا ينطوي إلاّ على جلب المنفعة للإنسان ودفع الضرر عنه. إذن، فكلّ التكاليف الإلهيّة هي لطف من الباري جلّ وعلا. فالصوم مثلاً، والذي قد يجعل منه تحمّلُ الجوع والعطش أمراً صعباً بالنسبة لنا، يعدّ من أكبر الألطاف الإلهيّة، إذ إنّ فيه فوائد جمّة، ناهيك عن أثره في سعادتنا الأبديّة.

فلو اكتفى اللّه بسرد فوائده ومنافعه، ما كان من المتيقّن التزامنا به وتمتّعنا بالفوائد الناجمة عنه. من هذا المنطلق، فقد منّ اللّه بأنْ أوجبه علينا كي نحصل على فوائده، حتّى مع الكُرْه الحاصل، فتتّسع بذلك ظرفيّتنا لاستقبال المزيد من الرحمات الإلهيّة والفيوضات المعنويّة، فنكون من السعداء. وكذا الحال بالنسبة لسائر الواجبات والمحرّمات الأخرى.

وبناء على ذلك، فإنّ جميع التكاليف المعيّنة من قبل اللّه تعالى هي جزء من ألطافه وآلائه علينا كي نحصل بالتزامنا بها على النتائج والمنافع المترتّبة عليها، فنحقّق بذلك في أنفسنا استعداداً أكبر وظرفيّة أوسع لتقبّل الرحمة الإلهيّة من أجل استيعاب المزيد من الفيوضات الربّانيّة. فلو لم يكن الوجوب في التكاليف الإلهيّة، ما كنّا لنهتمّ بأدائها، وما أصبحنا مؤهّلين لتقبّل تلك الرحمات.

«فَإِنْ أَبْطَأَ عَنِّي عَتَبْتُ بِجَهْلِي عَلَيْكَ، وَلَعَلَّ الَّذي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي لِعلْمِكَ بِعَاقِبَةِ الأُمُورِ. فَلَمْ أَرَ مَوْلىً كَرِيماً أَصْبَرَ عَلَى عَبْدٍ لَئِيمٍ مِنْكَ عَلَيَّ يَا رَبِّ».

حكمة الإبطاء في إجابة الدعاء

لا ينبغي لوجود العجز في حياة الإنسان أن يبعث على سوء ظنّ العبد بربّه، ذلك أنّ اللّه أعلم بصلاح عبده. كما لا ينبغي للإنسان أن يتوقّع قضاء حاجته واستجابة دعائه على نحو السرعة، فلربّما كان صلاحه في تأخير قضاء حوائجه بعض الشيء، بل - في بعض الحالات - أن لا يستجاب دعاؤه في الدنيا ويُدّخر له في العالَم الآخر.

إذن، يجب أن لا يُشَكّل أيّ أمر سبباً لسوء ظنّنا بربّنا، إذ «**ولعلّ الذي أبطأ عنّي هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور**»؛ أي لعلّ تباطؤك في قضاء حاجتي يصبّ في مصلحتي وهو أفضل لي، لأنّك أنت الوحيد العليم بعاقبة الأمور، والخبير بصالحها وفاسدها، وأنا لا أستعجل الأمور إلاّ بدافع من جهلي وقلّة درايتي.

وللأسف فنحن غير ملتفتين إلى حكمة الباري عزّ وجلّ، بل وليس لنا ـ في الواقع ـ الإيمان الكافي بالصفات الإلهيّة. إنّنا غير موقنين بأنّ اللّه «رؤوف» و«رحيم»، ونتصوّر أنّ اللّه وبسبب بخله ـ والعياذ باللّه ـ يحجم عن قضاء حوائجنا. لكنّ العبارة المذكورة أعلاه تشير إلى أنّ أيّ أحد يقرع باب المولى جلّ شأنه سائلاً إيّاه حاجته، فإنّ اللّه بلطفه يأخذ المصلحة الحقيقيّة لهذا العبد في حسابه، ولا يلتفت إلى قوله وبيانه. وهذا بحدّ ذاته لطف عظيم آخر يضاف إلى ألطافه؛ وهو أنّ اللّه يجيب الإنسان في مسألته مع الأخذ بنظر الاعتبار كماله، وسعادته، ومصلحته. على أيّ حال، فإنّ كمال الإنسان وسعادته في نفس الدعاء والتوجّه إلى اللّه، وإنّ اللّه تعالى يجري فعله على أساس حكمته.

(٣)

«يَا رَبِّ إِنَّكَ تَدْعُونِي فَأُوَلِّي عَنْكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلاَ أَقْبَلُ مِنْكَ، كَأَنَّ لِيَ التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ ذلكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي وَالإِحْسَانِ إِلَيَّ وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ. فَارْحَمْ عَبْدَكَ الجَاهِلَ، وَجُدْ عَلَيْهِ بِفَضْلِ إِحْسَانِكَ إِنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ».

تكبُّر الإنسان على الله تعالى وعدم اهتمامه به سبحانه

تحدّد الفقرات المذكورة من الدعاء موقف الإنسان من ربّه كي يعرف مقامه ومنزلته عنده، فيدرك لطف اللّه به من جانب، ويقف على نكرانه للجميل وخسّته في مقابل ربّه من جانب آخر. لذا فهو يقول: «**إنّك تدعوني فأولّي عنك**».

إنّ إجازة اللّه لنا بمخاطبته ودعائه لهي من أعظم ألطافه وتفضّلاته في حقّنا، فلو لم يأذن لنا بذلك ما كنّا لنجد في أنفسنا اللياقة لمجالسته، ومجاذبته أطراف الحديث. وفوق ذلك، إنّه لا يأذن لنا بدعائه فحسب، بل ويدعونا إليه، مع كلّ ما يشاهد منّا من الذنوب والمعاصي، ويصرّ أيضاً على دعوته لنا بأن: هلمّوا إليّ. لكن، ما هو ردّ فعلنا في مقابل هذا اللطف الإلهيّ؟ إنّنا، وبدلاً من إجابة الدعوة، نوَلّي وجوهنا عنه، ونعطيه ظهورنا!

«**وتتحبّب إليّ فأتبغّض إليك**»؛ إنّنا بأمسّ الحاجة إلى اللّه، ويتعيّن علينا أن نمرّغ جباهنا بالتراب في حضرته ليشملنا بعنايته، لكنّ الواقع على العكس، فهو يتحبّب إلينا، ونحن نقابله بالعداوة والبغضاء!

«**وتتودّد إليّ فلا أقبل منك**». هل حدث وأن عاملْنا أحداً أو صديقاً بكلّ مودّة وحفاوة، ثمّ قابلَنا باللامبالاة؟ كم يشقّ علينا تحمّل ذلك! ألن نيأس من إظهار المودّة له جرّاء عدم اكتراثه؟ نعم، قد تستبطن محبّة إنسان لإنسان آخر بعض المقاصد الدنيويّة، لكن هل يا ترى من الممكن أن تنطوي مودّة ومحبّة اللّه لعباده على أمثال تلك المقاصد؟ نحن، في الواقع، لدينا تصوّر خاطئ عن إظهار اللّه لمحبّته تجاه عباده، إذ «**كأنّ لي التطوّل عليك**»؛ فبدلاً من أن نشعر بالحاجة إلى اللّه ونعترف بذلك ليحيطنا بعنايته، نعيش نحن في غفلة عنه، ونتصوّر أنّ لنا حقّاً عليه، أو أنّنا نمنّ عليه بدعائنا إيّاه.

إنّه لمن عدم اللياقة بمكان أن نتكبّر ونغترّ في مقابل مائدة الرحمة الإلهيّة الواسعة. فما الذي نملكه لنتفاخر ونزهو به؟ كلّما دعانا الباري تعالى إليه شغلْنا أنفسنا بعمل مّا. ومع كلّ هذا، فإنّ تصرّفاتنا القبيحة تلك لم تقف أمام استمرار هطول فيض رحمته وإحسانه جلّ شأنه علينا: «**فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي، والإحسان إليّ، والتفضّل عليّ بجودك وكرمك**». ثمّ يقول: «**فارحم عبدك الجاهل، وجد عليه بفضل إحسانك، إنّك جواد كريم**».

قيمة الأُنس بالله ومناجاته

إنّ للمناجاة مع اللّه والأنس به من الأثر في روح الإنسان بحيث لو ارتبط باللّه ارتباطاً حقيقيّاً فإنّه لن يلتفت في أثناء الدعاء إلى المسائل المادّية والدنيويّة أصلاً حتّى يطلبها من اللّه. ومن هذا المنطلق فإنّ لهما قيمة عظمى.

وصحيح أنّ اللطف الإلهيّ يقتضي أن لا يردّ اللّه دعوة عبد مهما كان دعاؤه، إلاّ أنّ سعة كرم اللّه شيء، وعلوّ همّة الإنسان شيء آخر. وليس المراد من ذلك أن لا يلجأ الإنسان إلى اللّه في تأمين حوائجه الدنيويّة، بل القصد هو أنّ أولئك الذين ذاقوا حلاوة مناجاته، لن يشوبوها بالأغراض المادّية أبداً. لكن، بصرف النظر عن ذلك، فالعبد الذي يرى نفسه فاقداً لكلّ شيء، عليه أن يطلب منه كلّ شيء، وكلّ حاجة حتّى وإن توفّرت أسبابها العاديّة، بل وينبغي أن يتوجّه الإنسان إلى اللّه من أوّل لحظة إحساسه بالحاجة والعوز، وأن يَعدّ كلّ الأشياء الأخرى وسائل وأسباباً، وأنّ المطلب الأهمّ هو ذات التحدّث إلى اللّه والنجوى معه، الذي يسمو بكثير عن الطلب منه.

يقول أحد العظماء: «من القبيح أن يسأل العبدُ اللّهَ أسباب تأمين الماديّات؛ كالطعام اللذيذ، واللباس الفاخر، والمسكن المناسب. إنّ العبد العاقل هو ذلك الذي يفكّر دوماً في تنفيذ أوامر مولاه. فمولاه يعرف كيف يتلطّف على عبده ويعلم حاجاته، فلا ينبغي أن نُعَلّمه بحوائجنا». لذا طلب مثل هذه الأمور دلالة على دنوّ الهمّة. فعلى العبد أن يهتمّ دائماً ليعرف ماهي أوامر مولاه وكيفيّة تنفيذها، لا أن يهتمّ بنفسه. ومن هذا المنطلق، علينا أن نطلب من اللّه التوفيق

للعبوديّة، وأن نطلب منه أن يوفّقنا لأن نكون كما يحبّ هو ويرضى، فإن كانت لنا عنده حاجة فيجب أن تكون من هذا القبيل.

أبواب رحمة الله المشرعة على الدوام

الأهمّ ممّا ذكر، هو أن يجد العبد في نفسه اللياقة للتحدّث مع اللّه. فالنجوى مع المعبود ومغازلته هي أسمى من أيّ قيمة. فإذا كان العبد ذا شأن عند مولاه، فسيعطيه مولاه الفرصة لمناجاته، والبوح له بمكنونات صدره، ليختلي به ويكلّمه، وحينها سيصغي المولى إلى كلامه. إنّنا لا نجد في العلاقات التي تربط أفراد البشر مع بعضهم ما يشبه هذه الحالات إلاّ نادراً، خصوصاً إذا كان السيّد من الأشخاص الكثيري المشاغل فسوف لن يجد الوقت الكافي لمجالسة غلمانه والإصغاء لكلامهم. كما أنّ العبد، حتّى وإن كان عاشقاً لمولاه، ومحبّاً للتحدّث إليه، فإنّه لن يجد الفرصة المناسبة لذلك أيضاً.

لكنّ اللّه هو ذلك المولى الذي ينتظر عبيده - وإن كانوا على جانب من الدناءة واسوداد الوجه - ليستقبلهم، ويتولّى ضيافتهم، ويصغي لنجواهم، مع كلّ ما أُوتي من العظمة التي لا حدّ لها، ولا يبلغها وصف. فإذا دعاه العبد أجابه ورحّب به. يخاطب اللّه في الحديث القدسيّ (الذي سبق ذكره) أحد أنبياء بني إسرائيل قائلاً: «**لو يعلم المدبرون عنّي كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ ...**»[1].

«الحَمْدُ للّهِ الَّذِي لاَ يُهْتَكُ حِجَابُهُ، وَلاَ يُغْلَقُ بَابُهُ، وَلاَ يُرَدُّ سَائِلُهُ»

---

(١) جامع السعادات، محمّد مهدي النراقيّ، ج٣، ص١٠٤.

كلّ شخص كريم فإنّ الناس لا ينتفعون من كرمه إلاّ في مواطن خاصّة. حتّى السلاطين المعروفون بالعدل والكرم لا يفتحون أبوابهم لاستقبال عامّة الناس إلاّ مرّة كلّ عام، وليس كلّ يوم، ولا كلّ ساعة، ولا في كلّ مكان، غير أنّ أبواب رحمة اللّه مشرعة على الدوام أمام طالبي فيضه، يسمعون الجواب متى ما دعوه. يقول الإمام السجّاد عليه السلام في مناجاته مع اللّه: «**نامت العيون، وعلت النجوم، وأنت الملك الحيّ القيّوم. غلّقت الملوك أبوابها، وأقامت عليها حرّاسها، وبابك مفتوح للسائلين. جئتك لتنظر إليّ برحمتك يا أرحم الراحمين**»(١).

ونحن نقرأ في بعض الأدعية: «**اللّهم هدأت الأصوات، وسكنت الحركات، وخلا كلّ حبيب بحبيبه**»(٢). فأولئك الذين خوت قلوبهم من العشق هاجعون، والحيوانات نائمة في سكون. والأبواب كلّها مغَلّقة، إلاّ أبواب جودك وكرمك فهي مفَتّحة، وليس هناك حاجب يحول دون الدخول إلى ساحة فيضك. مَن أرادك ودعاك فأنت تجيبه وتستقبله، بل وإنّك تدعو بنفسك إليك مَن لا قدر ولا قيمة لهم من عبادك، وإنّ نداءك «هل من تائب» يتردّد على الدوام: ألا من نادم على قبيح فعله تراوده نفسه بالإنابة والتوبة فأقبل منه؟ أيّ رحمة هذه، وأيّ كرم، وبحقّ مَن؟ بحقّ العاصين الغافلين عنك، الذين دنّسوا لباس فضيلتهم بالرذيلة! جلّت عظمتك، وتقدّست أسماؤك! فبدلاً من أن يكون التضرّع، والالتماس، والتوسّل من جانب العبد لكي يقبله اللّه، فإنّ اللّه هو سبحانه الذي يدعوه إليه قائلاً: هلُمّ إليّ عبدي، هلُمّ إليّ فأنا مستقبِلُك ومجيبُك.

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، الباب ٥، ص٨٠، الحديث ٧٥.

(٢) بحار الأنوار، ج٨٦، الباب ٣، ص٣٠٣، الحديث ١٠.

لابدّ من أن ننظر في: مَن هو مولانا هذا؟ لابدّ أن نعرفه، وأن نزداد في معرفتنا له. هو يستقبل الجميع من دون تعيين وقت للقاء. يقول الإمام الكاظم عليه السلام : «**لا يشغله شأن عن شأن**»[١]. ففي الوقت الذي يكون أنبياؤه، وأوصياؤه، وملائكته المقرّبون منشغلين بمناجاته، فإنّه لا يكون في غفلة عن الآخرين؛ فلو دعاه عبد حقير في زاوية نائية من عالم الوجود، لَسَمِعَ الجواب «لبّيك». فهل من اللائق لمن له مولى كهذا أن تمرّ عليه الشهور والأعوام من دون أن يذكره أو يفكّر فيه؟ هل من المناسب، أثناء الصلاة والدعاء، أن نتوجّه لكلّ شيء ما عدا اللّه؟ أليس من سوء الأدب أن نقوم لعبادته متكاسلين متثاقلين بلا اهتمام، ثمّ نمنّ عليه بأنّنا قد عبدناه؟

لزوم حضور القلب أثناء العبادة

لو تمعّنا جيّداً في الأمر لوجدنا أنّ صلواتنا وعباداتنا ليست إلاّ ذنوباً. ولنوضّح هذا الموضوع بمثال بسيط، وإن كان اللّه سبحانه وتعالى منزّهاً عن أن يكون مصداقاً لمثل هذه الأمثلة؛ بيد أنّ مستوى إدراكنا منخفض ولابدّ من هذه الأمثلة للارتقاء بمستوى استعدادنا الذهنيّ. لنفرض أنّنا التقينا بصديق بعد طول فراق، واتّفقنا على أن نقضي ساعة مع بعضنا، لكنّنا، وفي أثناء اللقاء، تجاهلناه وانشغلنا بأمورنا الخاصّة. فأيّ إهانة ينطوي عليها مثل هذا التصرّف! وإذا كان المقصود هو لقاءَ شخصيّة عظيمة وذات مكانة اجتماعيّة، فإلى أيّ مدى سيكون فعلنا هذا أقبح وأكثر استهجاناً! إنّ عدم توجّهنا إلى اللّه في الصلاة، وافتقارنا لحضور القلب فيها لهو أقبح بكثير من هذا

(١) بحار الأنوار، ج٨٧، الباب ٩، ص١٥٤، الحديث ١١.

الفعل. فعندما يمنحنا اللّه توفيق المثول بين يديه، ويسمح لنا بالأُنس معه ومخاطبته، ثمّ نغفل عنه، فإنّنا نستحقّ عقوبة كبرى، بحيث لو أنّه طردنا من حضرته لكان طرده لنا في محلّه. لكنّه جلّ شأنه - مع كلّ هذا - لا يطردنا، بل ويدعونا باستمرار للجلوس على مائدة ضيافته.

ولا ينبغي للعفو والصفح الإلهيّين أن يبعثا الغرور في أنفسنا. فنحن موظّفون - على قدر معرفتنا ووسعنا - حتّى لا نقصّر في أداء واجبنا. فالصلاة والعبادة، اللتان لاتتعدّيان تلفّظ الكلمات، وتخلوان من روح العبادة، هما عاريتان عن اللطف. وبالطبع فإنّه لا ينبغي تركها بحجّة عدم الوقوف على قيمتها أو فهم معانيها، بل يجب بذل الجهد حتّى ننفث الروح في عباداتنا، من صلاة ودعاء، بواسطة حضور القلب وفهم المعاني؛ وإلاّ فإنْ تركنا هذه العبادات ذات المستوى المتدنّي أيضاً، فلن نعثر على بدائل أفضل منها.

إنّ التسويف في أداء العبادات، لاسيّما الصلوات المفروضة، خطأ كبير أيضاً. فلا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن بأنّ نشاطنا لأداء الصلاة وإقبالنا عليها سيزداد بتأخيرها بعض الوقت. فلربّما كان هذا التأخير من وساوس الشيطان أيضاً بذريعة الإرهاق والعمل وما شابه ذلك؛ إذ أنّ الصلاة المؤدّاة بعد انتهاء وقت فضيلتها تصبح أكثر نقصاً، وأشحّ روحاً.

وبناءً على ما مرّ، فلا ينبغي ترك حتّى تلك العبادات المتدنّية المستوى من دعاء، وقراءة قرآن، وذكر، وأمثالها، بل لابدّ من الاجتهاد في سبيل تقويتها، من أجل الوقوف بين يدي اللّه بتدبّر وتأدّب أكثر، لا أن نتركها، الأمر الذي يعدّ بحدّ ذاته إثماً وقلّة أدب.

فليس من الذكاء ترك العمل العباديّ، بل الأهمّ هو تقوية حالة التأدّب بين يدي اللّه، وتكميل العمل.

يدّعي بعض ضعاف البصيرة انّه لا فائدة من الصلاة والدعاء إذا لم تفهم معانيهما. لكنّ الواقع ليس كذلك، بل علينا أن نسعى للارتفاع بمستواهما. علينا أن نقرّ بأنّنا مقصّرون في أداء واجب العبوديّة للّه، ونفتقد الهمّة لإدراك وإنجاز ما هو أفضل؛ لكن بما أنّ اللّه أمر بعبادته، فقد زينّا ظواهرنا بظاهر عُبّاده وإن كانت قلوبنا أجنبيّة عنه. إذن ينبغي أن نطلب من اللّه حضور القلب، والتوجّه للعبادة، والتوفيق لها على نحو أفضل، وأن يزيد في معرفتنا ومحبّتنا له، وأدبنا تجاهه.

المحبّة ثمرة المعرفة

إنّ الكثير من مضامين الأدعية والصلاة تشير إلى معرفة اللّه. فإذا تجلّت محبّة اللّه في قلب الإنسان، جذبته نحوه، وحينها لن تعود هناك حاجة لإكراهه على العبادة، بل على العكس، سيشتدّ قلق الإنسان وعدم استقراره إن لم يوفّق لها. لذا، فإنّ أوّل ما يفكّر به عبادُ اللّه العشّاق عند حصولهم على أقلّ فسحة من الوقت، هو الصلاة، والدعاء، والتوجّه إلى اللّه. أمّا إذا لم يكن الأمر كذلك، فتصوُّرُنا بأنّنا نعبد اللّه من خلال صلواتنا ودعائنا، وأنّنا ـ من هذا الجانب ـ عباد صالحون ليس في محلّه. إنّنا في الواقع نخدع أنفسنا بهذه التصوّرات، وإلاّ فالمحبّ الحقيقيّ لا يرغب في أن يفارق حبيبه طرفة عين، ويودّ لو ينفرد ويأنس به على الدوام، وإن طلب معشوقه منه شيئاً، سعى إليه إرضاءً له فحسب، وإلاّ فهو، من جانبه، يودّ لو بقي مع محبوبه ولا يفارقه أبد الدهر. يقول الإمام الحسين عليه السلام: «**إلهي أمرت**

بالرجوع إلى الآثار»[١]؛ فمع أنّ اللّه أمر بذلك، إلاّ أن مراد قلوب عباده العاشقين هو النجوى معه دائماً وأبداً. هؤلاء طلاّب الحضور في كنف المولى، ويسألونه التوفيق لذلك، وإن كانوا مكرهين على التوجّه للأسباب المادّية، وقطع قلوبهم عنه في الظاهر.

ومن المستحيل أن يحبّ الإنسانُ اللّه ويعبده من دون أن يأنس به. فأيّ محبّة يكنّها الإنسان للّه إذا لم يكن مستعدّاً لقضاء ساعة واحدة مع ربّه يناجيه؟ هل من الممكن القول بأنّ جميع أعمالنا من حبّ، وبغض، وجهاد، وإنفاق، وما إلى ذلك هي في سبيل اللّه، إلاّ أنّنا لا نحبّه؟ أبداً؛ فإن كانت أعمالنا للّه، فمن غير الممكن أن لا نطلبه، أو أن نعتقد بوجود عمل أفضل من الصلاة. إنّ أولياء اللّه ينتظرون فرصة تلك الدقائق بفارغ الصبر لاختيار ركن قصيّ يناجون فيه ربّهم؛ فعندما يفرغون من أعمالهم الاجتماعيّة وواجباتهم، يبحثون عن كنز خلوتهم ليتفرّغوا للنجوى مع معشوقهم. هؤلاء يسمعون تلبية اللّه سبحانه لحوائجهم ونجواهم، الأمر الذي يبعث في أنفسهم طاقة مضاعفة تتضاعف معها محبّتهم وميلهم إلى اللّه؛ «**إلهي، كم تتحبّب إلينا بالنعم وأنت عنّا غنيّ، ونتبغّض إليك بالمعاصي وإنّا إليك محتاجون**»[٢].

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.

(٢) وردت هذه العبارة في كتاب بحار الأنوار للعلاّمة المجلسيّ، ج٩١، الباب ٣٢، ص١٣٢، الحديث ١٩ بهذه الصورة: «**إلهي، كم تتحبّب إليّ بالنعم وأنت عنّي غنيّ، وأتبغّض إليك بالمعاصي وأنا إليك محتاج**».

(٤)

«الحَمْدُ للّه الَّذِي لاَ يُهْتَكُ حِجَابُهُ، وَلاَ يُغْلَقُ بَابُهُ، وَلاَ يُرَدُّ سَائِلُهُ، وَلاَ يُخَيَّبُ آمِلُهُ».

الأمل بالله والتوكّل عليه

من البحوث التي يلفت دعاء الافتتاح الأنظار إليها هي أنّ اللّه جلّ وعلا - بأيّ حال من الأحوال - لا يطرد عبده من بابه، ولا يغلق باب رحمته بوجهه، ولا يخيّبه، هذا بشرط أن يتوجّه العبد للّه، ويكون أمله به وتوكّله عليه، وإلاّ فإنّه لا يمكن التحايل على اللّه.

من الممكن أن نسدي خدمة لشخص ما لدوافع شخصيّة، ثمّ نمنّ عليه أنّنا قمنا بهذا العمل من أجلك، لكن لا يمكن فعل نفس الشيء مع اللّه المطّلع على نيّاتنا وتصرّفاتنا. إنّ عبارة »الأمل باللّه« التي اعتدنا إجراءها على ألسنتنا هي شعار جيّد، لكن لابدّ من أن نكون صادقين في أقوالنا وأفعالنا. فلعلّنا نصدُق مرّة واحدة من كلّ مائة مرّة نتفوّه فيها بهذه العبارة.

من هذا المنطلق، إذا كان أمل الإنسان واقعاً في اللّه، فالدعاء يقول: «**لا يُخيَّب آمِلُه**» وأمّا إذا تبدّل أملنا إلى قنوط، فذلك يكشف عن أنّ أملنا في الواقع لم يكن في اللّه، ولم نُقدِم على أعمالنا اعتماداً عليه. فإن كان العمل مواتياً لميولنا، شحذنا الهمم لإنجازه وإتمامه،

أمّا إذا خالف رغباتنا، أو كان مشوباً بالمشاكل والمتاعب، فإمّا أن نحجم عن إنجازه، أو ننجزه بتثاقل. فمثلاً، إذا علمنا بتوفّر الوسيلة أو الواسطة لإنجاز أمر ما، سعينا إلى إنجازه، وإلاّ اعتبرنا إنجازه غير ممكن. أو إذا أقدمنا على عمل مّا أملاً بدعم الشخص الفلانيّ أو مساعدته ثمّ لم نجده أو تلقّينا منه ردّاً سلبيّاً، ضجرنا وفقدنا الأمل في إنجاز هذا العمل. بل إنّنا، حتّى في أمورنا الدنيويّة البسيطة، نسعى وراء الأصدقاء والمعارف ليشفعوا لنا. كلّ هذا يدلّ على أنّ توكّلنا ليس على الله. إذن فلنسأل أنفسنا: ألم يتكفّل اللّه بتحقيق آمالنا تلك؟

كلام عليّ عليه السلام في رجاء الله

يقول الإمام عليّ عليه السلام في مثل هذا النوع من الرجاء: «**يدّعي بزعمه أنّه يرجو اللّه، كَذَبَ والعظيم! ما باله لا يتبيّن رجاؤه في عمله؟ فكلّ من رجا عُرِفَ رجاؤه في عمله... يرجو اللّه في الكبير، ويرجو العباد في الصغير، فيعطي العبدَ ما لا يعطي الربّ**»[1].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: إذا رجا الشخص شيئاً سعى في طلبه. فالأمل والرجاء يحثّان الإنسان على الجدّ والاجتهاد. طالب الجامعة، مثلاً، يأمل في نيل الشهادة الجامعيّة من أجل الحصول على فرصة عمل مناسبة، أو التمتّع بمنزلة اجتماعيّة جيّدة؛ فتراه يضني نفسه لسنوات، ليلاً ونهاراً، يتحمّل خلالها الحرّ والبرد، وآلام فراق الوطن، وما إلى ذلك، لماذا؟ لأنّه يأمل من خلال حصوله على

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

الشهادة الفلانيّة في نيل مكانة مرموقة في المجتمع. إذن، الرجاء هو من دواعي الحركة والنشاط لا الفتور والكسل.

إنّ بعض الناس يتنصّلون من كلّ مسؤوليّة بذريعة أملهم في اللّه؛ فهم لا يشمّرون عن سواعدهم لا في أداء المستحبّات ولا في ترك المشتبهات! فإن سُئلوا عن ذلك أجابوا بأنّ رحمة اللّه واسعة؛ فاللّه سيعاملنا برحمته، فلا يجوز أن نيأس من فضله! هل يا ترى رجاء هؤلاء باللّه أعظم من رجاء الأولياء والأنبياء به سبحانه؟ فعلى الرغم من أنّ هؤلاء العظماء كانوا في أعلى مراتب الأمل باللّه، فإنّهم لم يكونوا - في الوقت نفسه - مقصّرين في أداء أدقّ الأعمال وأبسطها. فهل يكون أملنا ورجاؤنا أعظم من أملهم ورجائهم كي نرجوا من اللّه أن يسكننا أفسح قصور جنّته من دون عمل!؟

نحن في العادة نتصوّر أنّ أملنا باللّه كبير. إلاّ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أماط اللثام عن الجميع وفضحهم؛ فهو يقول: أنتم لا خوف عندكم ولا رجاء. فلو كنتم ترجون اللّه، لبان أثر ذلك في أعمالكم. فإذا رجوتم عبداً، وأمّلتم أن يصنع لكم صنيعاً، فكيف سيكون تصرّفكم معه؟ ستحرصون على أن لا يبدر منكم ما يكدّر صفو خاطره، وستحترمونه... الخ. هل كنتم ستنتهكون حرمته أمامه على الإطلاق؟ أو تخالفونه؟ أو تظهرون له العداوة؟ فما بالكم ترتكبون ذلك مع اللّه؟

يقول عليه السلام : على الرغم من أنّ رجاءكم لهذا العبد هو في صغائر الأمور وحسب، إلاّ أنّ تعاملكم معه لا يشبه تعاملكم مع اللّه، في حين أنّكم ترجون اللّه في عظيم الأمور وكبيرها. ففي أيّ نطاق يا

ترى من الممكن أن يكون أمل الإنسان في عبد مّا؟ عادة يكون ذلك في الأمور الجزئيّة والتافهة جدّاً؛ كأن يحلّ له مشكلة، أو يتوسّط له في إنجاز أمر ما، أو - إذا كان غاية في الضخامة - فهو يحفظ له كرامته عند الحاجة، أو ينقذ حياته في ساعة خطر ليتسنّى له العيش في هذه الدنيا فترة أطول. مهما كان، فإنّ جميع ما ذُكر محدود. فكم هي يا ترى قيمة تلك الشهادة التي ينفق الطالب الجامعيّ أثمن سنيّ عمره في نيلها؟ مائة مليون؟ مليار؟ مائة مليار؟ فمهما كان الرقم ضخماً فهو محدود بالنتيجة، وليس شيئاً بالنسبة لغير المحدود واللانهاية. لكنّ ما نأمله من اللّه هو حياة أبديّة لا حدّ لها ولا حصر. فهل عملنا يتناسب مع هذا الأمل وهذه الحاجة؟ وإن كنّا نرجو ذلك من اللّه، فلماذا لا تنعكس آثار هذا الرجاء على تصرّفاتنا؟

إذن، علينا أن نواجه اللّه بصدق، وأن لا نخدع أنفسنا، إذ أنّ اللّه لا ينخدع، وإن كان البعض - للأسف - يحاولون خداع اللّه جلّ شأنه والاحتيال عليه، غافلين عن حقيقة أنّ اللّه لا ينخدع: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[1]. فلابدّ من أن نكون صادقين مع اللّه، لا أن نتحاذق عليه. الحاذق الحقيقيّ في مقابل اللّه هو ذلك الذي يخلص نيّته للّه، ويتعامل معه بصدق. فمن الممكن أن ينخدع الناس بما نقوم به بدافع هوى النفس ونضفي عليه الصبغة الإلهيّة، إلاّ أنّ اللّه لا ينخدع بذلك. فإذا بقي حالنا على هذا الشكل، فهو بسبب فقدان الخلوص في أعمالنا ونيّاتنا. وإذا أردنا أن يتغيّر حالنا، فعلينا أن نغيّر أنفسنا؛ بحيث يكون أملنا باللّه لا بغيره، وإلاّ أسلَمَنا اللّه إلى

(١) سورة البقرة، الآية ٩.

الصراع والتناحر فيما بيننا حتّى نشقى فلا نهتدي من أمرنا إلى سبيل. فلنعلم أنّ اللّه وحده هو الركن الشديد والآمن الذي يمكن أن نلجأ إليه، وأنّ عَقْد الأمل على كلّ مَن هو سوى اللّه فإنّ فيه خيبة للأمل.

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ اللّه تبارك وتعالى يقول: «**وعزّتي، وجلالي، ومجدي، وارتفاعي على عرشي، لأقطَعَنّ أمل كلّ مُؤمِّل من الناس أمّل غيري باليأس، ولأكسونّه ثوب المذلّة عند الناس، ولأُنحّينّه من قربي، ولأبعدنّه من وصلي. أيؤمِّل غيري في الشدائد والشدائد بيدي، ويرجو غيري، ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني. فمن ذا الذي أمّلني لنوائبه فقطعته دونها، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاه منّي**»[1].

وبناءً على ما ذكر، فإنّه يجب أن يكون الرجاء منحصراً باللّه. والمراد من رجاء اللّه هو الاعتقاد بأنّ مصدر جميع الطاقات والقوى هو اللّه، وأنّ علينا الاستعانة به فيها جميعاً، والالتفات إلى عدم إمكانيّة إنجاز أيّ عمل بعيداً عن إرادته سبحانه؛ فلابدّ من مراجعة الطبيب، وتناول الدواء، إلاّ أنّ الشفاء بيد اللّه. فلو لم تتعلّق مشيئة اللّه، لاشتبه الطبيب في تشخيصه، ولوصف الدواء الخاطئ، أو لما حصل الشفاء أصلاً على الرغم من صحّة التشخيص والدواء. وبالطبع لا يعني ذلك انتفاء الحاجة إلى مراجعة الطبيب، ففي ذات الوقت الذي نرجو اللّه به، فإنّه يجب علينا العمل بنصيحة الطبيب، لأنّ كلّ تلك الأمور هي من مجاري ووسائل الفيض الإلهيّ، والشفاء - على كلّ حال - بيده هو وحده.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، الباب ٦٣، ص١٣٠، الحديث ٧.

والمراد من الاتّكال على اللّه هو الإيمان بأنّ جميع الأشياء وأسبابها هي بيد اللّه، والتوجّه القلبيّ للإنسان إلى اللّه، وإيمانه بحقيقة أنّه هو من ييسّر كلّ الأمور، ويهيّئ الأسباب، وإذا لم تكن الأسباب مهيّأة في موضع مّا، فهو غير عاجز عن خلقها، بل وهو قادر على إنجاز الأشياء حتّى من دون تلك الأسباب. وعلى هذا الأساس، فالإنسان المؤمن لا يقطع رجاءه من اللّه في أيّ حال من الأحوال، سواء تهيّأت الأسباب العاديّة أم لم تتهيّأ، وإن لم يعثر على الوسيلة أو الواسطة التي وضعها في حسابه فهو لا ييأس، سواء تمثّلت هذه الوسيلة أو الواسطة بالمال، أو الشفيع، أو الطبيب، أو الدواء، أو غير ذلك. إذن، لا ينبغي أن نتوقّع من اللّه أن يلبّي حوائجنا عبر الطرق غير العاديّة حصراً. إنّه لمن الغرور والأنانيّة أن نتجاهل الأسباب المتعارفة، ونطلب من اللّه أن يفكّ عُقَدنا عن غير الطريق العاديّ؛ ذلك أنّ إرادة اللّه هي التي اقتضت أن نصل إلى مرادنا عن طريق الأسباب العاديّة. فالحديث الشريف يقول: «**أبى اللّه أن يجري الأشياء إلاّ بالأسباب**»[1]. نعم، إذا لم تتوفّر الأسباب العاديّة في موضع من المواضع، فإنّ الباري تعالى يُجري أمره عن طريق الأسباب غير العاديّة؛ كما أنزل مائدة من السماء على بني إسرائيل، وأنقذ إبراهيم الخليل عليه السلام حينما أُلقي به في خضمّ النيران الملتهبة، وغيرها من الأمثلة الكثير.

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، الباب ١٤، ص٩٠، الحديثان ١٤ و١٥.

(٥)

«اللّهُمَّ إنَّا نَرْغَبُ إلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ تُعِزُّ بِهَا الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ، وَتُذِلُّ بِهَا النِّفَاقَ وَأَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنَا فِيهَا مِنَ الدُّعاةِ إلَى طَاعَتِكَ، وَالقَادَةِ إلَى سَبِيلِكَ، وَتَرْزُقُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

انتظار الفرج

من فقرات دعاء الافتتاح التي ورد التأكيد عليها هي تلك التي تعبّر عن الرغبة في تحقّق الدولة الإسلاميّة التي ستقام عند ظهور صاحب العصر والزمان ﷻ. كما وتبيّن عبارات هذه الفقرة الهدف من الحكومة الإسلاميّة، وواجبنا تجاهها. ومن حسن الحظّ أنّ الجميع مشمول بهذه النعمة الإلهيّة العظيمة ألا وهي معرفة وليّ العصر ﷻ وانتظار فرج ظهوره.

إنّ الاعتقاد بظهور الإمام المهديّ ﷻ هو من المعتقدات التي تشترك بها جميع الفرق الإسلاميّة بما فيها الشيعة والسنّة، (بل إنّ مسألة انتظار الفرج وظهور المصلح مطروحة بشكل من الأشكال حتّى عند غير المسلمين). وعلى الرغم من اختلافنا مع إخواننا من أهل السنّة في جانب من مسائل الإمامة، إلاّ أنّ الخلاف حول ظهور الإمام المهديّ ﷻ أقلّ من ذلك بكثير.

لقد ألّف الكثير من علماء أهل السنّة كتباً حول الإمام المهديّ ﷻ

واعترفوا بأنّ رواياتهم حوله تصل إلى حدّ التواتر، (أيّ لا وجود لأيّ شكّ أو شبهة في صدور تلك الأحاديث عن النبيّ الأكرم ﷺ). لكن هناك خلافاً حول الخصوصيّات الشخصيّة لهذا الإمام. فبعض أهل السنّة يعتقدون إجمالاً بأنّ شخصاً من ذريّة النبيّ ﷺ اسمه المهديّ سوف يظهر في آخر الزمان، إلاّ أنّهم يختلفون معنا في شخصه، وأنّه ابن مَنْ؟ وهل إنّه مولود أم لا؟ فطائفة منهم يعتقدون بأنّ المهديّ سيولد في آخر الزمان.

بالطبع هناك من بين أهل السنّة من له نفس الاعتقاد الذي نؤمن به نحن بخصوص هذا الإمام؛ أي إنّهم يعتقدون بأنّ المهديّ هو الابن الحادي عشر من أولاد فاطمة وعليّ عليهما السلام بل إنّ بعضهم يصرّح بأنّه مولود، وأنّه على قيد الحياة، وهناك أفراد يتشرّفون بلقائه، كما ويسمّون بعضاً من هؤلاء أيضاً.

وبناءً على ذلك، فالشيعة لا ينفردون بالاعتقاد بصاحب الزمان عجّل الله فرجه الشريف. لكنّ غير الشيعة، بطبيعة الحال، لا يؤمنون بأنّه إمام، وأنّه خليفة رسول اللّه ﷺ، وأنّ له ولاية تكوينيّة إلهيّة، وقدرةً وعلماً إلهيّين. فاعتقادهم به أشبه بما يكنّه بعض أهل السنّة (خصوصاً بعض فرق الشافعيّة) من الإخلاص لسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وقبولهم بهم كفقهاء وذريّة النبيّ ﷺ، واحترامهم ومحبّتهم الوافرة لهم، إلاّ أنّهم لا يقولون بمقام العصمة والولاية بحقّهم. لذا فإنّ معرفتهم في هذا المجال ناقصة.

لكن، مع وجود كلّ هذه المعتقدات فإنّ أهل السنّة جعلوا قضيّة الظهور في زاوية النسيان، ولا يمكن اعتبارهم من منتظري دولة

المهديّ ﷺ. لذا فالشيعة فقط هم الذين يعدّون اللحظات في انتظار الفرج. إذن، نحن مَن يتعيّن عليهم التفكير في مسائل من قبيل:

أوّلاً: ما هو المحرّك من وراء انتظارنا لظهور إمام العصر ﷺ وقيام دولته الحقّة؟ وما هو الدافع الذي يبثّ فينا كلّ هذه الرغبة للحضور في زمان ظهوره؟

ثانياً: ما هو الواجب الملقى على عاتقنا في زمان الغيبة والانتظار ؟ وما الذي يتحتّم علينا فعله لنُعَدّ من جملة المنتظرين الحقيقيّين لحضرته؟

ثالثاً: ما هو الدور الذي سنؤدّيه بعد قيام دولته المباركة؟

دوافع الانتظار

إنّ الحالات النفسانيّة للإنسان معقّدة إلى درجة تجعل ذات الإنسان غافلاً عمّا يجول في نفسه. أحياناً يحبّ الإنسان شيئاً إلاّ أنّه هو نفسه لا يعرف سرّ هذه المحبّة. وكذا بالنسبة لانتظار ظهور الإمام المهديّ ﷺ والرغبة في استتباب حكومته فإنّ الأشخاص يختلفون في دوافعهم. فالمشهور بين عوامّ الناس مثلاً أنّ احتياجات الإنسان اليوميّة في زمان الظهور سيتمّ تأمينها مجّاناً، أو بما يُصطلح عليه بأنّه عن طريق «الصلوات»؛ وبعبارة أخرى، إنّ توفير مستلزمات العيش التي تستوجب عادة التعب والمشقّة سوف يتمّ عن طريق ذكر الصلوات على محمّد وآل محمّد ﷺ. من هذا المنطلق قد يستشعر البعض ـ لهذا السبب أو لأسباب أخرى مماثلة ـ في أنفسهم الرغبة في ظهور إمام العصر ﷺ وهم منتظرون لظهوره لهذا الغرض أساساً.

والبعض الآخر ينتظرون ظهوره ليصلح ما فسد من أمورهم، ويرفع عبء المعضلات من على كاهلهم. والحقيقة تُقال إنّ إنجاز بعض الواجبات الشرعيّة، لاسيّما الاجتماعيّة منها، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقارعة الظلم، ومحاربة الفساد أمر شاقّ. لذا قد ينتظر البعض ظهور صاحب الأمر ﷺ من منطلق التصوّر بأنّ ظهوره سيرفع هذه الأعباء من على عاتق الإنسان.

كما أنّ من الممكن أن ينتظر من عانى من نير الظلم والجور (من مؤيّدي العدالة والمساواة) قيام دولة تجتثّ أصول الظالمين، وتعطي كلّ ذي حقّ حقّه.

وأخيراً هناك طائفة أيضاً تترقب ظهور الإمام المهديّ ﷺ من أجل انتصار الإسلام ودين الحقّ، وإقامة الأحكام الإلهيّة، وإحياء أحكام الإسلام المعطّلة، والسنن النبويّة، وإزالة آثار الكفر والشرك.

إذن علينا أن نمعن النظر في أعماقنا متفحّصين عن الدافع لانتظار صاحب الأمر عليه السلام ما هو؟ هل ما نصبو إليه هو الخبز المجانيّ، أم إنّنا في أزمة ممّا نقاسيه من ظلم الظالمين؟ هل ننوء بحمل الواجبات الدينيّة، أم إنّنا ننتظر الفرج لأنّ الإسلام والمسلمين في خطر؟ لابدّ من التأمّل مليّاً في هذه المسألة والتساؤل: أيّ واحد ممّا سبق يشكّل دافعنا الحقيقيّ للانتظار؟

فإن كان الحافز لانتظارنا هو أحد الموارد الثلاثة الأُولى، فإنّنا في الحقيقة مغتمّون ومشفقون على أنفسنا لا على الآخرين! إنّنا ننتظر راحتنا، لا ظهور الحجّة ﷺ! فلو توفّر شخص آخر غير صاحب الأمر لتأمين حاجاتنا، لأضحينا من مريديه والمخلصين له. فالغرض

هنا إذن ليس إمام العصر وظهوره بقدر ما هو تأمين الراحة والطمأنينة لأنفسنا ليس غير. لكن ما هي قيمة انتظار مَن يطلب الراحة والدعة؟ فإن كنّا بانتظار ذلك اليوم الذي يظهر فيه صاحب الزمان ﷻ، ليأتي ويحمل عبء التكاليف الدينيّة عن كاهلنا، فيحارب الكفر والنفاق بنفسه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصلح ما فسد من الأمور، ثمّ نأتي نحن لنقطف ثمار جهوده، وننعم بثروات وسائر إمكانات دولته من دون أدنى مشقّة وأقلّ عناء، فهذا الانتظار ليس ذا قيمة، ولا يعدّ امتيازاً يُسجَّل لصاحبه. إنّ الانتظار الحقيقيّ، والذي يعدّ قيمة بحدّ ذاته، هو أن ينتظر الإنسان الفرج ويطلب ظهور الإمام المهديّ ﷻ من أجل نصرة الإسلام، وعظمته، وانتشاره في أرجاء المعمورة. هذا النمط من الانتظار هو الانتظار الحقيقيّ الذي تدلّ الروايات على سموّ قيمته. فصحيح أنّ استتباب الأمن والاستقرار، وتوفّر النعمة، واندحار الظلم والظالمين، وزوال الفقر والفاقة هي من ثمار حكومة الإمام المهديّ عليه السلام ونهضته العالميّتين، بيد أنّ هذه الأمور لا ينبغي أن تشكّل الدافع الرئيسيّ لانتظار الفرج بالنسبة للإنسان المؤمن.

وفي هذه الفقرة من الدعاء تمّت الإشارة إلى دافع الإنسان المؤمن من وراء انتظار الفرج، وإلى الهدف من حكومة الإمام ﷻ في آن معاً: «**اللهمّ إنّا نرغب إليك في دولة كريمة، تعزّ بها الإسلام وأهله، وتذلّ بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك، والقادة إلى سبيلك**». فحتّى في زمان ظهوره عليه السلام لا ينبغي لنا التخلّي عن واجباتنا. فليست القضيّة أنّ الناس، بعد الظهور، سيدخلون في دين اللّه أفواجاً، ويأتون بالصالحات من دون دعوة، بل سيكونون

حينذاك أيضاً بحاجة إلى الدعوة، والتعليم، والتربية. أملنا أن نكون في ذلك العصر من السبّاقين إلى تحقيق أهدافه عليه السلام، وتطبيقها على أرض الواقع، ودعوة الناس إليه. ثم يقول: «**وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة**».

يا ترى ما هي الواجبات الملقاة على عاتقنا نحن بما أنّنا المنتظرون الحقيقيّون؟ ما الذي يتعيّن علينا فعله الآن لنوفّق إلى تأدية دورنا في زمان الظهور على أحسن وجه؟

إنّ أهمّ واجبات المنتظر الحقيقيّ هو سعيه الحثيث، على قدر وسعه وطاقته، من أجل معرفة الحقيقة، والعمل بها ليتمكّن من تجاوز ما يعترض سبيله من المعضلات بيسر وسهولة. إنّ أمثال هؤلاء هم من يحدوهم الأمل للتصدّي لزعامة الأمّة في عصر الظهور. إذ أنّى للمتهاون في معرفة الحقّ والعمل به أن يقود الآخرين؟ وبناءً على ذلك، يجب علينا أن نعدّ أنفسنا ونربّيها في البعدين العلميّ والعمليّ قبل ظهوره عجل الله تعالى فرجه الشريف.

الاعتبار من الأُمم السابقة

على طول التاريخ لم ينقطع الوعد الإلهيّ لأُمم الأنبياء بدولة الحقّ حيث كانت تلك الأمم، باستمرار، بانتظار ظهور هذه الدولة. لكن بمجرّد ظهور هذه الدولة كان يتّضح أنّ ادّعاءهم لم يكن عن صدق كامل في نيّاتهم. فعلى سبيل المثال، وعد اللّه بني إسرائيل في زمان فرعون بولادة وظهور نبيّه موسى عليه السلام، وقد تكرّرت هذه القصّة في القرآن الكريم مراراً. على إثر ذلك، بدأ فرعون بالضغط بشدّة على بني إسرائيل بأنواع التعذيب والتنكيل (ولعلّهم من نوادر الأُمم التي

تعرّضت لمثل هذا العذاب) حتّى بلغ الأمر بعلمائهم وصلحائهم، من شدّة ما قاسوه من وطأة العذاب، أن اجتمعوا ودعوا الناس إلى التضرّع إلى اللّه لتعجيل ظهور موسى عليه السلام. وفقاً للروايات الواردة فإنّ اللّه عجّل فعلاً في ظهور موسى عليه السلام من شدّة ما رأى من بكاء بني إسرائيل وتوسّلهم. فوُلد موسى وكبُر، وبعدما بلغ أشدّه قام بوجه فرعون، وتمكّن في نهاية المطافِ من إنقاذ بني إسرائيل من قبضته، واجتاز بهم البحر. لقد شاهدوا بأُمّ أعينهم كيف أنّ فرعون وجنوده، مع كلّ ما أُوتوا من عظمة وجبروت، لم يتمكّنوا من اللحاق بهم عبر البحر وغرقوا فيه.

لكنّهم - بعد أن كانوا يوماً يتضرّعون إلى اللّه لتعجيل فرج موسى عليه السلام لينجيهم من شرّ فرعون، ويتمكّنوا من عبادة ربّهم - لم يتركوا أيّ عمل قبيح إلاّ واقترفوه، في الفترة ما بين نجاتهم من قبضة فرعون حتّى وفاة موسى عليه السلام!! فبدلاً من شكر اللّه تعالى على أن خلّصهم من شرّ فرعون، وعوضاً عن تقديم فروض الولاء والطاعة لموسى عليه السلام، قابلوا الشخص، الذي انتظروا ظهوره لسنوات طوال، بقبيح الفعال وسخيف الطلبات.

وأوّل خطيئة ارتكبوها كانت في مسيرهم من مصر إلى فلسطين عندما مرّوا على مدينة يعبد قومها الأوثان. وحينما شاهدوا أهل هذه المدينة جاءوا إلى موسى عليه السلام قائلين: إنّنا لا نرى الإله الذي تؤمن به وتدعونا إليه. نحن نريد إلهاً كالذي لعُبّاد الأصنام هؤلاء: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[1]. هؤلاء هم أنفسهم الذين ذاقوا

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٨.

الويلات من جور فرعون، وتضرّعوا إلى اللّه طالبين منه تعجيل فرج موسى عليه السلام.

بعد هذه الحادثة ذهب نبيّ اللّه موسى عليه السلام إلى جبل الطور للتعبّد فيه ثلاثين يوماً بعد أن دُعيَ إليه، فطالت المدّة إلى أربعين يوماً. وفي غضون الفترة التي ذهب فيها موسى لمناجاة ربّه، جاء بنو إسرائيل إلى السامريّ فقالوا: إجعل لنا إلهاً، فوافق السامريّ وصنع لهم عجلاً من ذهب وقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾[1]؛ أيّ إنّ الإله الذي يقول به موسى هو هذا، فخرّ له بنو إسرائيل سجّداً. فهذه هي عاقبة من كانوا ينتظرون موسى عليه السلام بشغف.

وهناك قصّة قرآنيّة أخرى لها علاقة بنبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله. فالكثير من أهل الكتاب ممّن كانوا يقطنون في أطراف الحجاز وأكنافها آنذاك، وخصوصاً المدينة، كانوا يعيشون في هاجس انتظار نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله، ممّا حدى بهم إلى التمركز في المدينة المنوّرة وضواحيها ليسبقوا الآخرين في الالتحاق بالنبيّ والإيمان بدعوته عند ظهوره. يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[2]. لكن، عندما دعاهم النبيّ صلى الله عليه وآله إلى دين الإسلام فيما بعد، رأوا أنّ أهدافه لا تنسجم مع مصالحهم فلم يذعنوا له، ولم يقبلوا بدعوته.

هذه الأحداث التاريخيّة هي دروس وعبر بالنسبة لنا حتّى لا نتورّط نحن أيضاً، ممّن ندّعي انتظار الإمام المهديّ عجل الله فرجه، بهذا المصير - والعياذ باللّه - إذ ليست القضيّة أنّ عاقبتنا مضمونة، فهؤلاء كانوا

(١) سورة طه، الآية ٨٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٦.

أمثالنا. لقد جاء في بعض الروايات أنّ بعض الناس يكتبون للإمام المهديّ عليه السلام عند ظهوره أن لا حاجة لنا بك!

ومحصّلة ذلك، ينبغي لنا أن نحصّن أنفسنا من جميع الجوانب؛ بحيث ننأى بأنفسنا عن هوى النفس، ونُعدّ أنفسنا لقبوله عجل الله فرجه الشريف، وقبول ثورته، وقيامه. فإن آنسنا في أنفسنا حبّاً له، وسالت دموعنا عند سماع اسمه المبارك شوقاً إليه، فلا ينبغي أن نغترّ بأنفسنا، ونغفل عن عاقبة أمرنا.

على هذا الأساس، لن يكون انتظارنا ذا قيمة إلاّ عندما تكون لنا علاقة وطيدة وحقيقيّة بصاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف، ونكون طالبين لظهوره من أجل عزّة الإسلام وأهله، وإحياء ما دَرَس من أحكام الدين، ولأنّنا منزعجون من بقاء أحكام اللّه معطّلة في جميع أنحاء العالم. فعلينا إذن أن نُعدّ أنفسنا من كافّة الجوانب لقبول حكومته، والإذعان لأمره، وأن نسأل اللّه تعالى أن يوفّقنا لذلك.

(٦)

«اللّهُمَّ إِنّا نَشْكُو إلَيْكَ فَقْدَ نَبِيِّنا (صَلَواتُكَ عَلَيْه وَآله)، وَغَيْبَةَ وَلِيِّنا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنا، وَقِلَّةَ عَدَدِنا، وَشِدَّةَ الفِتَنِ بِنا، وَتَظاهُرَ الزَّمانِ عَلَيْنا».

النبيّ والأئمة عليهم السلام أثمن النعم

لقد سبقت الإشارة إلى أنّ على الإنسان التوجّه دائماً لحاجاته، والاستعانة في تأمينها باللّه وحده. كما وقد قلنا أيضاً إنّ حاجات الإنسان غير منحصرة باحتياجاته المادّية والدنيويّة. إنّ من أشدّ حاجاتنا إلحاحاً، والأهمّ بين سائر الحاجات، هي حاجتنا إلى وجود النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه من بعده عليهم السلام. فلو تهيّأت جميع النعم الدنيويّة للإنسان، وحُرِم في المقابل من هداية النبيّ الكريم، وحضور الإمام المعصوم، لكانت تلك النعم غاية في الضآلة والتفاهة أمام هذا الحرمان.

إنّ الفهم الصحيح لهذه الحاجة يستدعي منّا إدراك بركة وجود النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وإمام العصر عليه السلام، وأن نعرف حقيقةً مَن هو النبيّ الأكرم، أو الإمام المعصوم، وما هي البركات التي ستنعم بها الأمّة الإسلاميّة بوجودهما.

إنّ إدراك عظمة ومقام الأئمّة عليهم السلام غير متاح لنا، وغاية ما يمكننا قوله هو إنّ الكون بأكمله مخلوق لأجلهم: «**لولاك لما خلقت**

الأفلاك»[١]، أي: لولاك يا محمّد لما خلقتُ الأفلاك. كما وقد ورد في حقّ الأئمّة عليهم السلام كذلك: «لولاهم لما خلق اللّه الأفلاك»[٢]. إذن إدراكنا واستيعابنا لهذا البحث يتوقّف على سعة ظرفيّتنا الوجوديّة، ومقدار معرفتنا لهؤلاء العظماء.

ويكفي للدلالة على بركة وجودهم أنّه لولا الأئمّة عليهم السلام لما وُجد الإسلام أساساً؛ وأنصع دليل على هذا المدّعى هو الانحرافات التي حصلت بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة. فلولا الجهود التي بذلها الأئمّة الأطهار عليهم السلام في غضون الـ ٢٥٠ عاماً لم يكن ليصلنا اليوم أيّ أثر من حقائق الإسلام، وحتّى الذي بين أيدي إخواننا من أهل السنّة من حقائق الإسلام فهو ببركة جهود أئمّة الهدى عليهم السلام، وإلاّ لم يكن الخلفاء والحكّام، ممّن كانوا يقيمون الجمعة يوم الأربعاء، أو يقومون لصلاة الصبح سكارى من أثر الخمر، ليشكّلوا عاملاً لحفظ وبقاء الإسلام أبداً. والعامل الفاعل والمؤثّر في هذا الميدان كان دماء سيّد الشهداء، ومساعي سائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

وبالطبع، لم تكن ولن تكون بركة الأئمّة عليهم السلام حكراً على زمان حياتهم، بل هم منشأ للبركة حتّى بعد مماتهم. كما لم يكن نظرهم في مشاكل العباد والسعي في حلّها مقتصراً على مقرّبيهم ومحبّيهم، بل كانوا يشملون بعنايتهم حتّى غير المسلمين، ويمدّون لهم يد العون. لقد جرت على يد كلّ من المعصومين عليهم السلام، على طول

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦، الباب ١٢، ص٤٠٦، الحديث ١.

(٢) بحار الأنوار، ج ١، الباب ٢، ص ١٠٣ (يقول صاحب البحار في سياق شرحه لحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما نصّه: وقد ثبت في الأخبار كونهم عليهم السلام علّة غائيّة لجميع المخلوقات وأنّه لولاهم لما خلق اللّه الأفلاك وغيرها...).

تاريخ الإسلام، من الكرامات ما لو جمعت لم تحوها إلاّ مجلّدات ضخمة.

وخلاصة القول، إنّ من أهم بركات الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وأكثرها خلوداً هي كلامهم وسيرتهم (السُنّة). فتلك الأحاديث النورانيّة المباركة كانت ولا تزال السبب في الحفاظ على الإسلام وانتشاره، ومدعاة لسعادة الإنسان. فكلّ ما يوجب سعادة الإنسان وما له الأثر الفاعل في ذلك موجود في القرآن والسنّة. فهل كان الغرض من خلقنا يا ترى غير طيّ طريق الكمال، ونيل السعادة (الأخرويّة)؟! فأيّ مُعين ودليل لنا في شقّ هذا الطريق أعظم من هذا التراث من الأحاديث التي وصلتنا عن الأئمّة عليهم السلام ورسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

وتأسيساً على هذا، إذا تنبّه الإنسان إلى الهدف الأساسيّ من الخلقة، لوقف على حقيقة أنّ نعمة الأئمّة الأطهار عليهم السلام يستحيل مقارنتها بأيّ نعمة أخرى، وإنّ شكر هذه النعمة وتثمينها يجب أن يتناسب مع حجمها.

لكن في الظرف الراهن ـ للأسف ـ لا يأبه بهذه المسألة إلا القلّة القليلة من الناس؛ فأغلب سكّان العالم ليسوا بمسلمين، ومعظم المسلمين لا يعتقدون بحياة المهديّ عليه السلام باستثناء الأقليّة الشيعيّة فهم يعتقدون بذلك. كما أنّ معظم هذه الأقليّة أيضاً هم شيعة بالاسم فحسب، لا بالعمل، فاهتمام هؤلاء بصاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف أقلّ مقارنة بغيرهم، وذكرهم له أضعف. والنزر اليسير من المسلمين فقط هم من شُملوا بتوفيق ذكر الإمام في بعض أوقاتهم، والتوسّل به عند هجوم الشدائد. إذن علينا أن نفكّر مليّاً ونتساءل: كم مرّة في العام،

والشهر، والأسبوع نكون في ذكر الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف؟ وما هو الأثر الذي نعتقده لوجوده المقدّس في حياتنا؟ وأيّ مصيبة نراها في حرماننا من لقائه عليه السلام؟

الغفلة عن إمام العصر عجّل الله فرجه الشريف

وفي العادة نحن لا نشعر بنقص جرّاء غياب إمام زماننا أو حرماننا من زيارته؛ فحاجتنا إلى الماء والخبز مؤمَّنة، ومسائلنا الشرعيّة نستفتي فيها العلماء والمراجع، فما حاجتنا لإمام العصر عليه السلام والحال هذه؟!

لكن لماذا لا نستشعر النقص؟ ولماذا نحن غير قلقين من غيابه؟ السبب هو غفلتنا وضعف إيماننا، لا أنّنا حقّاً لا حاجة لنا به. نحن محتاجون إليه، إلاّ أنّنا غير مدركين لهذه الحاجة. إنّنا غير مدركين لمدى البلاء الذي يحفّ بنا، والذي أوجدناه نحن لأنفسنا. لقد كان السبب من وراء غيبة الإمام عجّل الله فرجه الشريف هو قبيح فعال الناس، وجحودهم لنعمة وجود الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

أليس الشقاق الذي يشاهَد اليوم في المجتمع الإسلاميّ بلاءً[1]؟ يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: إنّ من أعظم البلايا التي يُنزلها اللّه سبحانه وتعالى على البشر هو زرع الخلاف والفرقة بينهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[2]. إنّنا نلمس اليوم بوضوح كيف أنّ القلوب

(١) نلفت انتباه القارئ العزيز إلى أنّ هذه المحاضرات أُلقيت من قبل سماحة الشيخ اليزديّ قبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٦٥.

شتّى، والأفكار متباينة، والمذاهب والمناهج مختلفة، ومن الواضح أنّ هذا الخلاف والتحزّب هو من نتائج غيبة صاحب الأمر عجّل الله فرجه الشريف.

في شهر رمضان المبارك، عندما نتفرّغ للنجوى مع اللّه ونشكو بثّنا وحزننا إليه، نقرأ هذه الفقرات من دعاء الافتتاح مظهرين تأثّرنا وتأسّفنا من العيش في زمان غيبته عليه السلام، والحرمان من زيارته ولقائه. ومن الضروريّ أن تنبع عبارات الدعاء هذه من أعماق قلوبنا، وبصدق من نيّاتنا مع شيء من التفكّر والتدبّر في البركة العظيمة التي كنّا سننعم بها فيما لو حضر الإمام بين ظهرانينا، وما يحلّ بنا الآن من الشدائد والعظائم نتيجة لغيبته عنّا. فمجرّد جهلنا بما يتعيّن علينا فعله لكسب رضى اللّه تعالى ورضى صاحب الزمان عجّل الله فرجه الشريف هو بحدّ ذاته مصيبة كبرى بالنسبة لنا.

بالطبع إنّ اللّه جلّ وعلا - بإنزاله الكتاب، وإرساله النبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله، والأئمّة المعصومين عليهم السلام، وإعطائنا قوّة العقل والتفكّر - قد مهّد لنا الطريق. ولو دقّقنا في الأمر أكثر لاستنتجنا بأنّنا، في جميع موارد الخلاف والفرقة، بإمكاننا - إلى حدّ كبير - انتخاب السبيل القويم، واختيار ما فيه رضى اللّه وإمام العصر عجّل الله فرجه الشريف، في ذات الوقت الذي نكون فيه محرومين من فيض عظيم.

هناك مشكلات عظام في الداخل والخارج ضيّقت الأفق في أعيننا؛ فمن ناحية، دبّ الخلاف بين صفوفنا، ومن ناحية أخرى، انقلب الشرق والغرب ضدّنا. فلا طائفة ولا مذهب أشدّ غربة من التشيّع؛ فجميع المذاهب والمدارس الفكريّة إمّا أنّها ارتبطت بالشرق، أو سارت في إثر الغرب، وفي خضمّ هذه المعمعة يكون الشيعة وحدهم هم الذين

تعلّقوا وتمسّكوا بقائدهم ومولاهم وعقدوا الآمال على ظهوره. إذن علينا أن نتبيّن أيّ عمل يكون محبوباً عند إمام العصر ﷻ لنفعله، وأيّ تصرّف يودّ عليه السلام أن يبدر منّا لنتحلّى به.

إنّ من جملة ما نعتقد به هو أنّ إمام العصر عليه السلام مطّلع على أعمال الأمّة، لاسيّما الشيعة منهم، ففي كتبنا الروائيّة يوجد باب يُسمّى «باب عرض الأعمال»، جمعت فيه أحاديث مستفيضة في ما مضمونه أنّ أعمال المؤمنين تُعرض على صاحب الأمر عليه السلام مرّة كلّ أسبوع (أو يوميّاً كما في بعض الروايات)، وفي ليلة القدر تُعرض عليه جميع مقدّرات العباد. فالإمام واسطة الفيض بين اللّه تعالى والخلق، والفيوضات الإلهيّة تتنزّل على الناس من مجراه. فإذا كان الحال هذا، ألا يتكدّر صفو خاطره الشريف عندما يشاهد أعمالنا؟ علينا أن نفعل ما من شأنه أن يُدخل السرور إلى قلبه المبارك عندما تُعرَض عليه صحيفة أعمالنا، لا أن يقول، والعياذ باللّه: لا علاقة لي بشيعةٍ كهؤلاء.

كثيرة هي الأعمال التي تجلب رضى هذا الإمام الرؤوف عليه السلام إلاّ أنّنا لا نقوم بها، ولا نوليها اهتماماً لأنّها لا تنسجم مع أهوائنا، هذا مع علمنا بأنّنا إن قمنا بها فسيبتهج عليه السلام، وسيشملنا أكثر بعنايته.

ليس لدى أيّ منّا أدنى شكّ بأنّ النبيّ الكريم ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام إنّما جاءوا لصيانة الدين، والأحكام الإلهيّة، وإنّ كلّ جهودهم كانت منصبّة في الدعوة إلى العبوديّة للّه عزّ وجلّ، وجذب الناس إلى قربه. كما لا يساور أيّاً منّا أدنى شكّ بأنّ كلّ ما يبعث على حفظ الدين والأحكام الإلهيّة فهو مجلبة لرضى صاحب

العصر والزمان ﷺ، وكلّ ما يؤدّي إلى إقصاء الناس عن دين اللّه، وتحريف الدين، والعقائد الإسلاميّة، والأحكام الإلهيّة فهو يوجب تألّمه وغضبه عليه السلام. هل هناك ريب في ذلك؟ هل يراودنا شكّ في أنّ الأعمال التي تستدعي هجر السنن النبويّة، أو تأويل الآيات الإلهيّة، تبعث الهمّ والقلق في نفس الإمام عليه السلام؟ هل من شكّ في أنّ أولئك الذين يمهّدون الأرضيّة لتضعيف دين العباد وإيمانهم، مبغوضون عند الإمام؟ ألا نعلم أنّنا نأثم على قولنا: لابدّ من تغيير الحكم الإلهيّ الفلانيّ، وإنّه شُرّع لزمان معيّن، وهو لا يفي بحاجات عصرنا الحاضر،...الخ، ممّا يؤدّي إلى تضعيف إيمان الناس بمسألة استمراريّة الأحكام الإلهيّة؟

تكليفنا في عصر الغيبة

إذا أردنا أن يصدر هذا المقطع من الدعاء من أعماقنا بصدق، وأردنا حقّاً أن نعرب عمّا يعتلج في صدورنا من الهمّ والغمّ من جرّاء فَقْد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وغيبة إمام العصر عليه السلام لوجب علينا أن لا نألوَ جهداً في بذل ما نستطيع في سبيل الحفاظ على الدين. ينبغي أن يصل بنا الحال إلى درجة نكون فيها أطوع إلي صاحب الزمان ﷺ من بنانه في حال ظهوره، وأن نكون على أهبة الاستعداد لبذل أموالنا، وأنفسنا، وكلّ ما يتعلّق بنا من أجله، ونضعها بأجمعها تحت تصرّفه، وفي خدمته. هل يا ترى نحن كذلك؟ هل نجد في أنفسنا مثل هذا الاستعداد؟

لقد بذل أصحاب معاوية كلّ ما بوسعهم في سبيل الباطل، لكنّ أصحاب عليّ عليه السلام كانوا يفرّون من تحمّل المسؤوليّة. كانوا إذا

استُنفروا للحرب تهرّبوا من القتال متذرّعين ببرودة الجوّ تارة، وبحرارته تارة أخرى (وقانا اللّه من أن نكون كذلك) حتّى بلغ الأمر بأمير المؤمنين عليه السلام أن يقول: «**لَوَدِدت واللّه أنّ معاوية صارَفَني بكم صَرْف الدينار بالدرهم، فأخذ منّي عشرة منكم، وأعطاني رجلاً منهم**»[١].

نقرأ في أحد أدعية ليالي شهر رمضان: «**وقتلاً في سبيلك فوفّق لنا**»[٢]. إذن ينبغي أن نربّي أنفسنا، ونوطّن قلوبنا على عدم الخوف من القتل في سبيل اللّه، بل أن نطلبه أيضاً. علينا أن نسأل اللّه خالص النيّة، وصدق الحديث معه سبحانه، وأن يجعل في حياتنا ومماتنا رضاه ورضا إمام العصر عجّل الله فرجه. ينبغي أن نطلب منه أن يجعلنا من أنصار الإمام المهديّ عليه السلام، وأن يوفّقنا لما فيه سروره، ويعلّمنا ما لا نعلم.

إنّنا نحبّ أن يتزعّمنا صاحب الزمان عليه السلام، وأن يعلّمنا ما لا نعلم. لعلّ من بيننا من يحبّ أيضاً أن يزور الإمام في منامه. إذن، من الأمور المهمّة والضروريّة أيضاً هي طلب لقاء صاحب الأمر عليه السلام من أجل الاستزادة من بركات وجوده المبارك. من أجل ذلك لابدّ من أن نكسب الأهليّة اللازمة لنحظى بزيارته، ففي وجوده بركة لنا حتّى في الوقت الحاضر، إذ أنّ الأشخاص الجديرين بلقائه، ينالون هذا الشرف؛ «**هل إليك يابن أحمد سبيل فتُلقى؟ هل يتّصل يومنا منك بغده فنحظى؟ متى نرِدُ مناهلك الروِيّة فنروى؟ متى ننتقع من**

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩٧.

(٢) مفاتيح الجنان، أعمال شهر رمضان.

عذب مائك فقد طال الصدى؟ متى نُغاديك ونُراوِحُك فنقرّ عيناً؟ متى ترانا ونراك؟»[١].

وفّقنا الله تعالى لمعرفة إمام العصر عليه السلام وقدره حقّ قدره، وهدانا لمحبّته، وجعلنا من المنتظرين الحقيقيّين لحكومته وظهوره، وعرّفنا بواجباتنا في زمان غيبته، ووفّقنا للاستفادة من معين وجوده في زمان غيبته وظهوره.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، وأنجز لوليّك ما وعدته. اللهمّ أظهر كلمته، وأعْلِ دعوته، وانصره على عدوّه وعدوّك. اللهمّ بلّغه منّا تحيّة وسلاماً، وامنُن علينا برضاه، وهب لنا رأفته ورحمته. اللهمّ انفعنا بحبّه، وأحشرنا في زمرته وتحت لوائه، آمين يا ربّ العالمين.

* * *

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الندبة.

شرح مقاطع من دعاء أبي حمزة الثماليّ

(١)

«الحَمْدُ للّه الَّذي لاٰ أَدْعُو غَيْرَهُ وَلَوْ دَعَوْتُ غَيْرَهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِي دُعٰائِي، وَالحَمْدُ للّهِ الَّذِي لاٰ أَرْجُو غَيْرَهُ وَلَوْ رَجَوْتُ غَيْرَهُ لَأَخْلَفَ رَجٰائِي».

دعاء أبي حمزة

الدعاء المعروف بـ «دعاء أبي حمزة الثماليّ» والذي يُقرأ في أسحار شهر رمضان المبارك هو من الأدعية الشريفة والعالية المضامين المرويّة عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام. روى هذا الدعاء «أبو حمزة الثماليّ»، أحد أصحاب السجّاد والباقر والصادق عليهم السلام، عن الإمام السجّاد عليه السلام، وكان من أعاظم عصره حتّى قد قيل فيه «سلمان زمانه»، والدعاء العظيم هذا يظهر سعة معرفة وشخصيّة هذا الرجل[١].

(١) روى العلامة المجلسيّ في كتابه «بحار الأنوار» (ج٩٥، الباب ٦، ص٨٢، الحديث ٢) سند هذا الدعاء كما يلي: فمن ذلك ما رويناه بإسنادنا إلى أبي محمّد هارون بن موسى =

= التلّعكبريّ بإسناده عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثماليّ أنّه قال: كان عليّ بن الحسين (صلوات الله عليهما) يصلّي عامّة ليلته في شهر رمضان فإذا كان السحر دعا بهذا الدعاء.

أما علّة تسمية هذا الدعاء باسم «أبي حمزة» فهو إمّا لكونه مَن نقله، أو لأنّ الإمام السجّاد عليه السلام علّمه لأبي حمزة. أمّا من هو أبو حمزة؟ أبو حمزة هو ثابت بن أبي صفية أبو حمزة الثماليّ... وكان آل المهلب يدّعون ولاءه وليس من قبيلهم، لأنّهم من العتيك. قال محمّد بن عمر الجعابيّ: ثابت بن أبي صفيّة مولى المهلب بن أبي صفرة، وأولاده نوح ومنصور وحمزة قتلوا مع زيد. لقي عليّ بن الحسين وأبا جعفر وأبا عبد الله أبا الحسن عليهم السلام وروى عنهم، وكان من خيار أصحابنا وثقاتهم ومعتمديهم في الرواية والحديث. ورُوي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: **«أبو حمزة في زمانه مثل سلمان في زمانه»** (رجال النجاشيّ، ص١١٥، حسب طبعة دار النشر التابعة لجماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقمّ).

وكذا الشيخ أبو عمرو محمّد بن عمر بن عبد العزيز الكشّي، وكان من الرجاليّين البارزين والناقلين لأحوال أصحاب الأئمّة عليهم السلام، فقد نقل في رجاله: وجدت بخط أبي عبد الله محمّد بن نعيم الشاذانيّ، قال: سمعت الفضل بن شاذان قال: سمعت الثقة يقول: سمعت الرضا عليه السلام يقول: **«أبو حمزة الثماليّ في زمانه كلقمان في زمانه وذلك أنّه قدم أربعة منّا: عليّ بن الحسين، ومحمّد بن عليّ، وجعفر بن محمّد، وبرهة من عصر موسى بن جعفر عليه السلام»**.

وفي رجال المامقانيّ عن داود الرقيّ عن وافد أهل خراسان، أنّه ورد الكوفة، وزار أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ قال: ورأى - أي الوافد - في ناحية رجلاً حوله جماعة، فلمّا فرغ من زيارته قصدهم، فوجدهم شيعة فقهاء يسمعون. فقال: مَن الشيخ؟ قالوا: هو أبو حمزة الثماليّ. قال: فبينا نحن جلوس، إذ أقبل أعرابيّ، فقال: جئت من المدينة وقد مات جعفر بن محمّد عليه السلام. فشهق أبو حمزة، ثمّ ضرب بيده إلى الأرض، ثمّ سأل الأعرابيّ: هل سمعت له بوصيّة؟ قال: أوصى إلى ابنه عبد الله، وإلى ابنه موسى، وإلى المنصور. فقال أبو حمزة: الحمد لله الذي لم يضلّنا، دلّ على الصغير، وبيّن حال الكبير، وستر الأمر العظيم. ووثب إلى قبر أمير المؤمنين عليه السلام فصلّى، وصلّينا. ثمّ أقبلتُ عليه وقلتّ له: فسّر لي ما قلتَه؟ قال: بيّن أنّ الكبير ذو عاهة [إذن لا يمكن أن يكون إماماً]، ودلّ على الصغير أن أدخل يده مع الكبير، وستر الأمر العظيم بالمنصور... فلم أفهم جوابه. ووردتُ المدينة ومعي المال والثياب... ثمّ ساق الحديث في دخوله إلى أبي الحسن عليه السلام إلى أن قال: فقال لي: **«ألم يقل لك أبو حمزة الثماليّ بظهر الكوفة، وأنتم زوّار أمير المؤمنين عليه السلام كذا وكذا»؟ قلتُ: نعم. قال: «كذلك يكون المؤمن، إذا نوّر الله قلبه، كان علمه بالوجه»**.

تبيّن هذه الأحاديث منزلة أبي حمزة الثماليّ. بصرف النظر عن ذلك، فإنّ الأئمّة عليهم السلام، بشكل عامّ، كانوا لا يزوّدون أصحابهم بنصائحهم وأسرارهم إلاّ بما يتناسب مع ظرفيّتهم واستعدادهم، وإنّ مَن يطلع على أهميّة هذا الدعاء وعظمته سيقف على مدى علوّ منزلة أبي حمزة وكمال مقامه. =

الرابطة التكوينيّة بين الخالق والمخلوق

مع أنّ بعض الأدعية المرويّة عن الأئمّة عليهم السلام قد وردت ببيان واضح مبسّط، لكنّها تشتمل على مضامين غاية في العلوّ والرفعة ممّا يدعو الإنسان إلى المزيد من التأمّل فيها والاغتراف من معينها. وكلّما كان حال الإنسان أكثر تجاوباً ونظره أشدّ دقّة، كان استعداده للإفادة من أمثال تلك الأدعية والتزوّد منها أكثر.

وصحيح أنّ محتوى بعض الأدعية، كما هو بعض الآيات القرآنيّة، مبهم وليس من المتيسّر علينا فهمه وإدراكه، وهو ما يصطلح عليه بـ«المتشابه»، إلاّ أنّ التدبّر في مضامينها قد يكون ذا فائدة أيضاً. فمثلاً نقرأ في دعاء الافتتاح: «**الحمد للّه الذي من خشيته ترعد السماء وسكّانها، وترجف الأرض وعمّارها، وتموج البحار ومن يسبح في غمراتها**». كما جاء في القرآن أيضاً: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾[1]، وجاء في موضع آخر: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]، كما ويقول تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[3]. هذه بعض الأمثلة القرآنيّة التي نعجز عن إدراكها إدراكاً كاملاً. والمفسّرون أيضاً يعتقدون أنّ مثل هذه الآيات والأدعية هي من المتشابهات، وإن كان البعض يحاول تأويلها حسب استيعابه وفهمه. لكنّها، على أيّة حال، تحكي حقيقة الرابطة بين اللّه تعالى ومخلوقاته.

= ونحن سننقل مقاطع هذا الدعاء من كتاب مفاتيح الجنان للمرحوم الحاج الشيخ عبّاس القميّ بنقله عن مصباح المتهجّد للشيخ الطوسيّ.

(١) سورة الرعد، الآية ١٣.

(٢) سورة الجمعة، الآية ١؛ والتغابن، الآية ١.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٤٤.

ومن الممكن تشبيه هذه الرابطة بقوّة جاذبة قويّة؛ أي إنّ اللّه يجذب تكويناً عباده نحوه، وإنّ كلّ موجود يدرك تكويناً علاقته مع اللّه على قدر شعاعه الوجوديّ وبما يتناسب مع ما أُوتي من علم وفهم. إلاّ أنّ اللّه قد ميّز الإنسان على سائر الموجودات بقدرته على إدراك هذه الرابطة التكوينيّة والاطّلاع عليها. فالإنسان قادر باختياره على تقوية تلك الرابطة والسير نحو الباري عزّ وجلّ.

المشاغل مانع من إدراك الرابطة التكوينيَة

إنّ الناس، وبسبب من انشغالاتهم المادّية والدنيويّة، غافلون في العادة عن تلكم الرابطة التكوينيّة المتأصّلة أساساً في أعماق وجودهم. إنّنا، على مدار السنة، لا نوفّق غالباً إلى الالتفات لهذه العلاقة بسبب ما نشكوه من مشاكل وانشغالات فرديّة كانت أم اجتماعيّة. إلاّ أنّ شهر رمضان المبارك ـ حيث التوفيق للدعاء والمناجاة أكثر ـ هو فرصة ثمينة للغاية لأن يتخلّى الإنسان قليلاً عن حياته المادّية، ويتوجّه إلى اللّه وحده، ليشاهد تجلّيات العظمة الإلهيّة، ويدرك أسماءه وصفاته الجماليّة والكماليّة بمقدار ما يتمتّع به من الصفاء الذاتيّ.

إنّ لإدراك الصفات الإلهيّة، الجماليّة والجلاليّة، جاذبيّة خاصّة. فمن ثماره أن يستشعر الإنسان بربّه أُنساً يودّ معه لو أنّ تلك الحالة لا تُسلَب منه. إذ يصل به الحال من إدراك العظمة الإلهيّة إلى أن يهوي، بشكل غير اختياريّ، على الأرض خاضعاً خاشعاً أمام الحقّ تعالى. وبالوصول إلى مثل هذه الحالات، وبحسب مراتب الشخص المعرفيّة، يستحوذ على الإنسان من السرور واللذّة ما تتلاشى أمامهما

جميع اللذّات المادّية والدنيويّة. وكثيرون هم أولئك الذين تمتّعوا بمثل هذه اللذائذ في الماضي، والآن هم ليسوا بقلّة أيضاً.

وحينما يميل الإنسان بتوجّهه من المادّيات نحو اللّه، يستشعر من الجاذبيّة بينه وبين ربّه ما لا يمكن وصفه. حينذاك يرى نفسه قريباً من اللّه، ويرى اللّهَ قريباً منه. فاللّه ليس ببعيد عنّا؛ فهو يقول في كتابه الكريم: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]. بيد أنّنا نحن الذين نوجد أسباب ابتعادنا عن اللّه بأعمالنا وتصرّفاتنا المشينة. فإن كفّ الإنسان عن أفعاله القبيحة، وتخلّى عن أمانيه الشيطانيّة والنفسانيّة، ونبذ غرائزه الدنيويّة وغير النظيفة، فقد اقترب من اللّه. يقول الإمام السجّاد عليه السلام في نفس دعاء أبي حمزة هذا: «**وأعلم أنّك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال (الآمال) دونك**».

تنامي المحبّة لله بالالتفات إلى رأفته

ينبغي على الإنسان أن يمعن النظر في محتوى هذه الأدعية، ويجسّد في ذهنه ومخيّلته كيف كان الإمام السجّاد عليه السلام يرفع يديه نحو السماء في منتصف الليل من شهر رمضان ويناجي ربّه بهذه المناجاة: «**الحمد للّه الذي لا أدعو غيره، ولو دعوتُ غيره لم يستجب لي دعائي**».

عندما نصاب في بعض الأوقات بخيبة أمل فذلك لأنّنا عقدنا الآمال على غير اللّه. من هذا المنطلق يقول السجّاد عليه السلام: «**الحمد**

---

(١) سورة ق، الآية ١٦.

لله الذي لا أرجو غيره، ولو رجوتُ غيره لأخلف رجائي». كما أنّه يقول في دعاء آخر: «**كيف أرجو غيرَك والخير كلّه بيدك**»[1].

لابدّ أن نقرأ مثل هذه الكلمات عن لسان الإمام السجّاد عليه السلام لأنّ الذي مثله فقط يستطيع أن يخاطب اللّه بهذا الخطاب، ويدّعي هذا الادّعاء، وإلاّ فنحن لم نبلغ الرتبة التي تسمح لنا بأن ندّعي ذلك في أنفسنا.

«**الحَمْدُ للّهِ الَّذِي يَحْلُمُ عَنِّي حَتَّىٰ كَأَنِّي لا ذَنْبَ لِي**».

بالطبع لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ كلّ هذا الحِلم الإلهيّ مختصّ بهذه الدنيا حيث العقوبة على قبائح المرء مؤجّلة عَلّهُ يَؤوب ويندم على ما فعل. لذا، فإنّ اللّه يُبدي من الرأفة والرحمة بالإنسان العاصي بحيث لو أناب ورجع إليه يوماً فهو يتصرّف معه كما لو أنّ وليّه وحبيبه قد جاء إليه لا أنّه عبده المذنب؛ فلا يقول له: إنّك أنت مَن خالفتني مراراً وعصيتني تكراراً، وليس أنّه، جلّ شأنه، لا يطرده من بابه فحسب، بل ويعامله معاملة مَن لم يعصه في حياته قطّ.

عندما يلتفت الإنسان إلى هذه الحقائق تشتدّ الجاذبيّة - الموجودة أصلاً - بينه وبين اللّه، وتتنامى محبّته له، الأمر الذي يدفعه إلى الرغبة في التحدّث أكثر مع اللّه، والأنس به، والاستعداد لترك أعماله القبيحة، وغضّ الطرف عن تعلّقاته المادّية والدنيويّة، ذلك أنّه لمس أنّ الموجود الوحيد الذي يرتبط معه بعلاقة حقيقيّة هو اللّه فحسب، وأنّ الموجود الوحيد الذي بمقدوره تحقيق الأماني هو اللّه، وأنّه هو وحده الذي بيده تلبية حوائج الإنسان. إنّ الالتفات لهذه المعاني

(١) مفاتيح الجنان، مناجاة خمس عشرة، المناجاة الرابعة.

اللطيفة من شأنه أن يلغي - شيئاً فشيئاً - الحجب بين الإنسان وربّه، ويجعله يشعر - بما يتناسب مع ظرفيّته - أنّه قريب منه تعالى. حينذاك، سيسمع اللّه نداءه، وسيكون حاضراً للردّ عليه بالإيجاب.

جاء في دعاء الافتتاح في معرض توصيف اللّه جلّ شأنه: «**الباسط بالجود يده**»؛ أي إنّ مائدة العناية الإلهيّة للخلق مُعَدّة، وإنّ المبادرة بأيدينا نحن كي تُوجِد، بأعمالنا الاختياريّة، في أنفسنا حالة تعيننا على التمتّع بالفيوضات الربانيّة، وإلاّ فإنّ اللّه ليس ببخيل على عباده. إنّنا، بما أوجدناه لأنفسنا من ابتلاءات، ومشاغل، وبما دنّسنا به ذواتنا من المعاصي والذنوب، لم نعد نجد الفرصة للالتفات لهذه المسائل، مع أنّ اللّه حاضر في كلّ مكان، وفي أيّ وقت، يسمع الدعاء إن دعوناه، ويردّ الجواب إذا ناديناه، بل وفوق ذلك، فقد جاء في الحديث القدسيّ أنّ اللّه يقول: «**أناجيه في ظُلَم الليل ونُور النهار**»(١)؛ أي بدلاً من أن يخاطب العبدُ ربَّه، فإنّ اللّه هو الذي يتحدّث إليه. فإن صار العبد محبوب اللّه، فاللّه هو الذي سيلقي ذكره في قلبه إن غفل عنه.

إنّ الألطاف الظاهرة والباطنة للباري عزّ وجلّ على عباده هي من الكثرة بحيث لا يُبلَغ وصفه. وما كنّا نحن لنطّلع على هذه الألطاف والعنايات الربّانيّة إلاّ في ظلّ وجود الأئمّة الأطهار عليهم السلام. فمن أجل اغتراف غرفة من بحر الفيوضات الإلهيّة ندعو بدعاء، أو نعبّر بكلام علّنا نُشمَل بعنايته جلّ وعلا فيتلطّف بتطهير أرجاسنا، وإلاّ فإنّ كمّ الأغلال التي أوثقنا بها أيدينا وأرجلنا بلغ حدّاً لا أمل معه بالنجاة لولا الأمل باللّه وأوليائه.

فلو ظفر الإنسان بمثل هذه الحالات المعنويّة وذاق حلاوتها

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، الباب ٢، ص٢٩، الحديث ٦.

فإنّه لن يعتني بأيّ شيء آخر. إنّ أولياء اللّه الذين جرّبوا مثل هذه الحالات يقولون: «**إلهي ما ألذّ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب، وما أحلى المسير إليك بالأوهام في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبّك، وما أعذب شِرْب قُربك**»(١).

بناءً على ما مرّ، فإنّه يتحتّم علينا أن ندعو، فإن لم نقدر - ولن نقدر - على ذلك، قلّدنا الداعين الحقيقيّين على الأقلّ؛ أي حذونا حذو الذين يناجون اللّه مناجاة واقعيّة لعلّ اللّه يشملنا معهم بلطفه وعنايته. فاللّه أحياناً يحبّ أولئك الذين يقلّدون عباده في أعمالهم. جاء في الخبر أنّه كان في بلاط فرعون مُهرّج وكان أحياناً يقلّد نبيّ اللّه موسى عليه السلام لتسلية فرعون، فيلبس الصوف ويحمل العصى ويقف أمام فرعون قائلاً: إنّني نبيّ، أنا مرسل من عند اللّه، أو: آمنوا باللّه، أو: إنّني أفعل كذا وكذا. تقول الرواية إنّ اللّه عندما أغرق فرعون وجنوده في اليمّ لم يغرق هذا المهرّج لأنّه كان يتشبّه بعبده وحبيبه.

إذن، نحن أيضاً نتشبّه بأحبّاء اللّه وأودّائه، ونقول نفس العبارات التي قالوها لعلّ اللّه يحيطنا بعنايته ولطفه لهذا السبب(٢).

إلهي إنْ كان قلّ زادنا في المسير إليك، فلقد حسن ظنّنا بالتوكّل عليك، وإن كان جُرْمُنا قد أخافنا من عقوبتك، فإنّ رجاءنا قد أشعرنا بالأمن من نقمتك(٣).

---

(١) مفاتيح الجنان، مناجاة خمس عشرة، المناجاة الثانية عشرة.

(٢) «**من تشبه بقوم فهو منهم**»، بحار الأنوار، ج١١، الباب ٣، ص١٧٤، الحديث ١٩. وعن علي عليه السلام أنّه قال: «**من تشبّه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم**» (نهج البلاغة، شرح بن أبي الحديد، ج١٩، ص٢٧.

(٣) مأخوذة من مناجاة الراغبين للإمام السجاد عليه السلام، مناجاة خمس عشرة، مفاتيح الجنان.

(٢)

«أَدْعُوكَ يٰاسَيِّدِي بِلِسٰانٍ قَدْ أَخْرَسَهُ ذَنْبُهُ، رَبِّ أُنٰاجِيكَ بِقَلْبٍ قَدْ أَوْبَقَهُ جُرْمُهُ، أَدْعُوكَ يٰارَبِّ رٰاهِباً رٰاغِباً رٰاجِياً خٰائِفاً، إِذٰا رَأَيْتُ مَوْلاٰيَ ذُنُوبِي فَزِعْتُ، وَإِذٰا رَأَيْتُ كَرَمَكَ طَمِعْتُ، فَإِنْ عَفَوْتَ فَخَيْرُ رٰاحِمٍ، وَإِنْ عَذَّبْتَ فَغَيْرُ ظٰالِمٍ».

التوجّه إلى صفات اللّه حال الدعاء

الدعاء في الواقع توجّه من قبل العبد إلى ربّه وتقوية لرابطة العبوديّة، تلك الرابطة التي يشكّل أحد طرفيها الإله المتعال، وطرفها الآخر العبد العاصي.

فعندما يلتفت العبد إلى خطيئاته تنتابه حالة من الخجل والوجل، لكن حينما يتوجّه إلى رحمة اللّه الواسعة تستحوذ عليه حالة الرجاء. ولابدّ لهذا التوازن بين حالتي الخوف والرجاء أن يستمرّ في الإنسان.

لقد كَثُر التأكيد في الأدعية الشريفة على ضرورة أن يرى الداعي نفسه دوماً بين الخوف والرجاء. فمن ناحية، عندما يشاهد ذنوبه وآثامه ينعقد لسانه، ويستولي عليه الندم والحسرة، ومن ناحية أخرى، حينما يتأمّل في سعة الرحمة الإلهيّة، تأسره حالة الرجاء فيستغرق في النظر إلى صفات اللّه الجماليّة، فتنبسط لذلك أساريره، وتنحلّ عقدة لسانه، فينطق طالباً رحمة ربّه.

من هذا المنطلق يخاطب الإمام السجّاد عليه السلام اللّه عزّ وجلّ بقوله: «**أدعوك يا سيّدي بلسان قد أخرسه ذنبه**»؛ فعندما أُجيل الطرف في جرائمي ومعاصيّ يخرس لساني من شدّة الخجل والحياء، «**ربّ أناجيك بقلب قد أوبقه جرمه**» ولم يُبقِ فيه حتّى بصيص أمل للنجاة. وفي السياق نفسه يقول عليه السلام في إحدى مناجاة خمس عشرة: «**إلهي ارحم عبدك الذليل ذا اللسان الكليل**»[1]. ثمّ يقول: «**إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت**» وتأوّهت، «**وإذا رأيت كرمك طمعت**» بعفوك فينطلق لساني بالكلام.

وشبيه بهذا المعنى بيان الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة حيث يقول: «**إلهي كلّما أخرسني لُؤمي أنطقني كرمُك، وكلّما آيَستني أوصافي أطمعتني مِنَنُك**».

انقباضٌ وانبساط أم تجلّ لأسماء الجلال والجمال الإلهيّة؟

كما قد سبقت الإشارة إليه، فإنّه توجد بين الإنسان وربّه رابطة تكوينيّة. فعندما يتلطّف الباري عزّ وجلّ ويفتح باباً من أبوابه بوجه عبده يحلّق العبد، ويستغرق في مناجاة ربّه، ويأنس به. ولتقريب المبحث إلى الذهن، فلنفترض طفلاً ارتكب بحقّ أمّه خطأً ولا ملجأ له إلاّ إليها، فتراه لا يلجأ إلى غير أمّه مهما عَظُم جرمه. وكذا العبد، فهو عندما يقف على مدى احتياجه وفقره إلى اللّه، لا يجد بدّاً من التعلّق بأذيال رحمته مهما كان عظيم الجرم وكبير الخطيئة. في مثل هذه الحالة، إمّا أن تتجلّى له عظمة اللّه وجلاله، وإمّا عفوه ورحمته وصفاته الجماليّة.

(١) مفاتيح الجنان، المناجيات الخمس عشرة، المناجاة الحادية عشرة.

وبشكل عامّ، فإنّ للحالات التي تحصل لأولياء اللّه مع محبوبهم صنفين: فحيناً يتوجّهون إلى صفات اللّه وأسمائه الجلاليّة، ويغرقون في بحر عظمة الباري تعالى إلى درجة شعورهم بمنتهى الذلّ والحقارة، وهلعهم من القدرة الإلهيّة، فيستولي الخوف والخشية على كلّ ركن من أركان وجودهم. في هذه الحالة، والتي يطلق عليها «الانقباض»، ينعقد لسان العبد، ويشعر بانقباض في قلبه، وأنّ حجاباً قد أُسدل عليه. غير أنّهم يلتفتون ـ حيناً آخر ـ إلى صفات اللّه وأسمائه الجماليّة، ويستغرقون في النظر إليها، فتحصل لديهم حالة من «الانبساط» يرغبون عندها في التحدّث إلى ربّهم، ويشكون إليه بثّهم وحزنهم. في مثل هذه الحالات تنفكّ عقدة لسان العبد، ويستمتع كثيراً بالتحدّث إلى اللّه ومخاطبته. ويُصطلَح على مثل هذه الحالة باسم «الدلال» الذي هو ضرب من الغُنج؛ وهي حالة ينطلق فيها اللسان فيتكلّم العبد مع اللّه بلهجة وكأنّه ـ في كلامه وتصوّره ـ يهدّد اللّه، والعياذ باللّه. في نفس دعاء أبي حمزة هذا يخاطب الإمام زين العابدين عليه السلام اللّه قائلاً: «**ولئن أدخلتني النار لأُخبرنّ أهل النار بحبّي إيّاك (لك)**»، ويقول في موضع آخر: «**إلهي إن أدخلتني النار ففي ذلك سرور عدوّك، وإن أدخلتني الجنّة ففي ذلك سرور نبيّك، وأنا واللّه أعلم أنّ سرور نبيّك أحبّ إليك من سرور عدوّك**»؛ أيّ إنّني واثق من أنّك لن تلقي بي في جهنّم لأنّك ترجّح سرور نبيّك على سرور عدوّك.

يختلف لسان الداعي في الحالتين المذكورتين اختلافاً تامّاً؛ ففي حالة الانبساط يغلب عليه لسان الدلال والغُنج، أمّا في حالة الانقباض فيستوعب الخوف والهلع تمام وجود الداعي بحيث يفقد

القدرة على النطق فضلاً عن التحدّث بلسان الغنج والدلال. بل إنّ أصحاب المعرفة الكاملة قد تحصل لديهم، في مثل هذه الظروف، حالة الإغماء وفقدان الوعي أيضاً، وقد روي في حالات الإمامين أمير المؤمنين وزين العابدين عليهما السلام من هذه الأمثلة الكثير. ويمكن لمس هاتين الحالتين، أي الانقباض والانبساط، بشكل واضح في أدعية هؤلاء العظماء، لاسيّما في دعاء أبي حمزة، ودعاء كميل، ودعاء الصباح، ودعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام، ومناجاة خمس عشرة، وغيرها الكثير من الأدعية المرويّة في الصحيفة السجّاديّة وغيرها من كتب الأدعية.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في بعض فقرات دعاء إبي حمزة: «**فمن يكون أسوأ حالاً منّي إنْ أنا نُقِلتُ على مثل حالي إلى قبري**»، ويقول في دعاء آخر: «**وإن أدخلتني النار أعلمتُ أهلها أنّي أحبّك**»[1]؛ وكأنّه يريد أن يقول هنا: سوف أعلنها أمام الجميع أنّ اللّه قد ألقى بحبيبه في جهنّم! بالطبع هذا الكلام لا يليق بأمثالنا، ووحدهم أولئك الذين وصلوا إلى مرتبة المعرفة الكاملة هم المؤهّلون لأن يتفوّهوا بمثل هذه الكلمات من دافع الغنج والدلال. هذه نماذج من حالات الدلال التي تنتاب أولياء اللّه من جرّاء مشاهدة صفات اللّه الجماليّة.

وبالتأمّل في تلك المضامين نفهم أنّه لا يجوز القنوط من رحمة اللّه في أيّ حال من الأحوال. وفي ذات الوقت يجب أن لا نأمن مكر اللّه أبداً. بل على الإنسان أن يعيش دوماً حالة التأرجح بين الخوف والرجاء؛ فهو يدرك، من جانب، أنّ اللّه إن عذّبه فلاستحقاقه

(١) مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانيّة.

العذاب، وأنّه إن غفر له تمام ذنوبه، فلن ينقص ذلك من اللّه شيئاً: «**فإن عذّبتَ فغيرُ ظالم، وإن عفوتَ فخيرُ راحم**».

وعلى العبد المؤمن أن يربّي نفسه بتلقينها هذه المسائل، وأن يكون دائم التنقّل بين الخوف والرجاء كي لا يُبتلى بالغرور فيغفل عن مكر اللّه، ولا ييأس أيضاً من الرحمة الإلهيّة، لأنّ كليهما من عظائم الذنوب.

إنّ عباد اللّه الحقيقيّين، حتّى الأولياء والأنبياء عليهم السلام مع كونهم معصومين، كانوا إذا انتابتهم حالة الخوف أصابتهم رعدة ورعشة لا يمكن وصفهما. لقد كانت تظهر على أمير المؤمنين والإمام السجاد عليهما السلام كما هو الحال مع سائر الأئمّة عليهم السلام حالات عجيبة من الخوف أثناء مناجاتهم بحيث كان يغشى عليهم أحياناً من شدّتها. لكنّهم - من ناحية أخرى - عندما كانوا يستلهمون فضل اللّه ورحمته كانت تستحوذ عليهم حالة من الانبساط كما هي حالة الطفل الذي يناغي أمّه ويتودّد إليها في حجرها. ولا ينبغي لهاتين الحالتين أن تنفصلا عن بعضهما؛ فيجب أن لا يصل الحال بالإنسان بحيث ينسى معاصيه، ووضاعته، ودناءته في حال توجّهه إلى رحمة اللّه وفضله، إذ أنّ التوازن بين هاتين الحالتين هو من لوازم وجود العلاقة بين العبد وربّه.

إنّ علينا نحن أيضاً أن نربّي أنفسنا بالصورة التي علّمَنا إيّاها أئمّتنا الأطهار عليهم السلام في مناجاتهم وأدعيتهم؛ أي أن نكون ملتفتين إلى وضاعتنا وأخطائنا من جهة، وإلى رحمة الباري عزّ وجلّ وسعة لطفه وعفوه من جهة أخرى.

الاعتراف بالخطيئة مدعاة للتقرّب إلى اللّه

يحبّ اللّه أن يعترف عبيده بذنوبهم. هذا الاعتراف بالطبع لن ينفع اللّه شيئاً على الإطلاق، فسواء اعترف العبد بذنبه أم لم يعترف فلن يزيد ذلك في ملك اللّه وجبروته، ولن يُنقِص منهما شيئاً. إذن، رغبة اللّه تعالى في اعتراف عباده بذنوبهم هي من أجل أن يقف العبد على مدى ذلّه، ودناءته، وآثامه فيستشعر عفو الباري أكثر.

وفي الواقع عندما يعترف العبد بدناءته، وحقارته، وخطيئاته فإنّه يتذوّق حلاوة عفو اللّه سبحانه وتعالى. فما لم يقف الإنسان على وضاعة نفسه، فإنّه لن يتذوّق طعم العفو الإلهيّ؛ ذلك أنّه كلّما كان توجّه الإنسان إلى معاصيه أشدّ، وإدراكه لذلّه أعمق، كان العفو الإلهيّ بالنسبة له أكثر حلاوة، وإدراكه لرحمة اللّه أعظم.

جاء في بعض الأدعية من البيان والعبارات المختلفة بحيث يمكن الادّعاء بأنّ من شأنها تأجيج الرحمة الإلهيّة. وليس المراد من ذلك أنّ الإنسان قادر على التأثير في اللّه، بل المراد هو أنْ يتملّك الإنسانَ حالٌ يستحقّ معه استدرار الرحمة الإلهيّة. فعلى سبيل المثال، جاء في بعض الأدعية [ما مضمونه]: إلهي، كيف تعذّب عبداً بعد أن تلطّفت عليه كلّ هذا اللطف؟ وقد زوّدته بكلّ ما يحتاج من أوّل خلقك إيّاه، بل وحتّى قبل ولادته، وأنشأته في صنوف نعمك. وإن عصاك بشّرته بعفوك ومغفرتك، ودعوته إلى الاستغفار والتوبة كي يكون آملاً لرحمتك، وألقيت في قلبه محبّتك حتّى سارع إلى مواطن طاعتك، ورجا رأفتك، وبكى من خوفك.

هذه الأدعية في الحقيقة تعطف قلب الإنسان إلى اللّه وتوجد فيه الأهليّة لنيل رحمته؛ أو بتعبير آخر، تؤجّج الرحمة الإلهيّة.

ومحصّلة ذلك، هي أنّ من المناسب جدّاً، كلّما سنحت الفرصة، أن ينهمك الإنسان في إحصاء ذنوبه، والالتفات أيضاً إلى ألطاف اللّه التي لا تحصى ولا تعدّ عليه، وذلك بأن يتذكّر كم مرّة، منذ بلوغه سنّ التكليف وحتّى الساعة، ارتكب الخطيئة وخالف أمر اللّه؟ وأيّ خطايا؟ تلك التي تكفي واحدة منها لأن يُعاقَب على مدى أعوام. إلاّ أنّ اللّه يغضّ الطرف عن كلّ ذلك، بل ويُنزِل عليه رحمته.

هذه الاعترافات من شأنها أن توجد في الإنسان الاستعداد لنيل الرحمة الإلهيّة، ذلك أنّه كلّما اشتدّ إدراك الإنسان لفقره ومسكنته، زاد خضوعه وإذعانه لربّه، وأصبح أكثر استحقاقاً للطف اللّه وفضله؛ «**ها أنا أتوسّل إليك بفقري إليك**»[١].

أجل، إنّ ما يحول بيننا وبين اللّه هو أنانيّتنا وغرورنا. فلو مزّق الإنسان تلك الحُجُب وشاهد نفسه على حقيقتها، فسيقف حينذاك على مدى مسكنته ومذلّته، وسيُشمَل برحمة اللّه الواسعة، ويحظى بنعم أجلّ.

ويصرّح القرآن بأنّ اعتراف نبيّ اللّه يونس عليه السلام بخطئه كان هو وراء لفت نظر اللّه إليه، واستدرار رحمته: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.

كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١]. فاستجاب اللّه في هذه الأثناء دعاءه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢].

وبناءً على ذلك، فليس لإظهار الذلّة، والاعتراف بالذنوب في حضرة الباري عزّ وجلّ أيّ مكسب له سبحانه، ولا يصل إلى اللّه بهذه الطريقة شيء كان مفتقراً له قبل ذلك، والعياذ باللّه. فالإنسان أقلّ من أن يؤثّر في اللّه بأعماله. فمهما عصينا أو أطعنا فلن يكون لذلك أيّ أثر في اللّه، بل إنّنا إن أطعناه فسوف يزيد هو في إيماننا ومعرفتنا بفيّاضيّته، ممّا يبعث على نيلنا حالات معنويّة. وأكثر من ذلك، فإنّ التوفيق للاعتراف بالخطيئة هو بحدّ ذاته تفضّل من اللّه علينا، ولطف منه.

يخاطب الإمام الحسين عليه السلام ربّه الجليل في دعاء عرفة قائلاً: «**إلهي تقدّس رضاك أن يكون له علّة منك، فكيف يكون له علّة منّي**». فاللّه أسمى من أن تؤثّر فيه أفعال عباده. بل إنّنا نحن - باعترافنا بذنوبنا، وقيامنا بما يرضي اللّه عنّا - الذين نوجِد في أنفسنا الاستعداد لتقبّل الرحمة الإلهيّة، ونجعلها - بأعمالنا - في معرض رحمته الواسعة. ومن باب التشبيه نقول: إنّ الرحمة والفيض الإلهيّين أشبه ما يكونان بشلاّل دائم الهطول والانهمار، وإنّ على الإنسان أن يجهد ليضع نفسه في مسير هذه الرحمة وهذا الفيض، وأن يوجد في نفسه الظرفيّة التي تهيّئ له الإفادة القصوى من هذه الرحمة. فليس عملنا هو المحفّز للرحمة الإلهيّة، أو أنّه يستحدث في اللّه حالة معيّنة تدفعه

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٨.

لمعاملتنا معاملة خاصّة. فالتصرّفات الإلهيّة ثابتة لا تتغيّر، ونحن - بقيامنا بموزون الأعمال، والإنابة والتوبة، والتضرّع والدعاء - الذين يتعيّن علينا اكتساب اللياقة اللازمة لإدراك رحمة اللّه، وإضفاء القابليّة والسعة على ظرف وجودنا لتقبّلها، الأمر الذي لا يتأتّى إلاّ من خلال إدراك عبوديّتنا للّه، وذلّ موقفنا تجاهه.

وكلّما تنامى فهمنا واستيعابنا لهذا الموضوع، توسّعت ظرفيّتنا لتقبّل المزيد من الرحمة، وكلّما رأى الإنسان نفسه أشدّ حاجة، وأكثر حقارة، واعترف بفقره وفاقته، تضاعف لطف اللّه به. فالذي يرى نفسه غنيّاً، سوف لن يتوجّه إلى اللّه طالباً منه شيئاً أصلاً. إذ أنّ مثل هذا الشخص لا يرى نفسه محتاجاً كي يسعى في طلب حاجته من اللّه، لذا فهو لن يحظى بالرحمة الإلهيّة.

ومن هنا فإنّ إقرارنا بعجزنا وفقرنا، واعترافنا بمذلّتنا تجاه اللّه هو في الواقع توسيع لظرفيّتنا لاستيعاب المزيد من الرحمة من اللّه جلّ شأنه. فإن تنامى استعدادنا، زاد مقدار انتفاعنا من الرحمة الإلهيّة. على هذا الأساس يقول اللّه في محكم كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. فاللّه سبحانه وتعالى غنيّ عن عبادة عبيده، غير أنّ حصيلة العبوديّة هي هذا الظهور للفقر والحاجة والمملوكيّة فينا ممّا يوجب تكاملنا والمزيد من انتفاعنا بفيوضاته عن طريق عبادتنا وعبوديّتنا.

وما يجدر الالتفات إليه كذلك هو أنّ إظهار العجز والحاجة في الحضرة الربوبيّة لا يختصّ بالأمور المادّية والدنيويّة، بل يتعدّاه

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

إلى المسائل الأُخرويّة أيضاً. فكما نسأل اللّه الماديّات، وإصلاح الأمور الماديّة، يتحتّم علينا طلب المعنويّات والأمور الأخرويّة منه أيضاً، لأنّ الدنيا والآخرة وكلّ ما فيهما فهو منه سبحانه وهو ربّ العالمين.

من أجل أن نشعر بذلّنا وحقارتنا أكثر فقد أمرنا اللّه بأن نتّخذ من أوليائه وسيلة. فأولياؤه هم وسائط نزول الفيض الإلهيّ إلى الموجودات التي من جملتها الإنسان. من هذا المنطلق، فإنّ التقرّب لأولياء اللّه هو في الواقع تقرّب إليه سبحانه: «**إنّ ذكرنا من ذكر اللّه**»[١]، لأنّهم نالوا هذا المقام من خلال عبوديّتهم. فعندما نشاهد المرتبة التي وصلوا إليها نكتشف قيمة العبوديّة للّه، ونفهم أيّ مقامات يمكن بلوغها في ظلّ عبوديته.

وفي مرحلة تشخيص التكليف أيضاً لابدّ من معونة اللّه كي يطلعنا على ما يرضيه من الأعمال، وما يحبّه ويرغب فيه أولياؤه منها. فاللّه هو الذي يُفهمنا هذه الأمور ويوفّر لنا وسائل فهمها أيضاً. علاوة على ذلك، إنّه هو الموفّق للعمل بالتكليف. فإن وُفِّقنا للقيام بعمل فيه خير وصلاح فإنّه من جرّاء لطفه وتفضّله علينا.

إنّ ذكر اللّه والانشغال به يستوجب توفيقاً منه أيضاً، وهي نعمة هو الذي يعطيها. من هذا المنطلق، لا ينبغي أن نقيم لأعمالنا أيّ وزن ونتصوّر أنّنا، بالقيام بها، بلغنا مقاماً، ذلك أنّها لا تعدو أن تكون أداء تكليف كلّفنا اللّه به. فإنّ النتيجة الصحيحة والمطلوبة هي في ظلّ إرادة اللّه؛ فلابدّ أن يريد اللّه ويشاء كي تُتوَّج أعمالنا بالنتيجة المطلوبة.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٢، الباب ٩٥، ص٤٦٨، الحديث ٢٠.

ويشير القرآن لهذه الحقائق في آيات عديدة. ففي أحد المواضع، وبعد قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(١)، يتبع بالقول: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢). أي حتّى الملائكة لا يستطيعون فعل شيء بإرادتهم، وإنّ نزولهم الذي أوجب نصر المسلمين كان بإرادة اللّه ومشيئته. فلا نتصوّرنّ أنّ بإمكان أيّ أحد فعل شيء خلاف إرادة اللّه، أو بصرف النظر عنها. فالشدائد والمآزق التي نقع فيها هي نتيجة أعمالنا وما اجترحناه من السيّئات. لكن ـ في ذات الوقت ـ لابدّ من أن نرجو لطف اللّه في رفع ما يلمّ بنا منها. غير أنّ اللّه لا يرفع تلك الشدائد عنّا إلاّ في حال ندَمِنا على قبيح أعمالنا، وكفّنا عن كفران نعمه.

على أيّة حال يجب أن نرجو لطف اللّه ولا نغترّ بأعمالنا. فلم يزل مسلمو صدر الإسلام مشمولين برحمة اللّه ولم يزل النصر حليفهم في حروبهم على خصومهم ما داموا يرجون اللّه، لكن عندما اغترّوا بأنفسهم فشلوا مع امتلاكهم للعدد والعُدّة. يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾(٣)، لكنّه يقول في موضع آخر: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾(٤). هذا لنعلم أنّ التوكُّل ينبغي أن يكون على اللّه فحسب، لا على الأسباب المادّية ولا على أعمالنا. فقد أوكل اللّه الكفّار إلى

(١) سورة الأنفال، الآية ٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٢٣.
(٤) سورة التوبة، الآية ٢٥.

الأسباب المادّية لكنّه لم يكل المؤمنين إلى ذلك، بل أخذ هو على عاتقه نصر المؤمنين شريطة أن يحافظوا على إيمانهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

تأسيساً على ذلك، يجب أن نفكّر في تقوية إيماننا، وأن نكون آملين للطف اللّه ورحمته، ولا نغترّ إطلاقاً بأعمالنا التافهة. فإن كان ذلك، فإنّه لن يتسلّل الخوف والرعب إلى قلوبنا مهما قست الظروف، ذلك لاعتقادنا بوجوب العمل بالتكليف ليس غير، أمّا النصر فهو مضمون من قبل اللّه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

(٣)

«اللّهُمَّ إنِّي كُلَّما قُلْتُ قَدْ تَهَيَّأتُ وَتَعَبَّأتُ وَقُمْتُ لِلْصَلاةِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَناجَيْتُكَ أَلْقَيْتَ عَلَيَّ نُعاساً إذا أَنا صَلَّيْتُ، وَسَلَبْتَنِي مُناجاتَكَ إذا أَنا ناجَيْتُ. مالي كُلَّما قُلْتُ قَدْ صَلُحَتْ سَرِيرَتِي، وَقَرُبَ مِنْ مَجالِسِ التَّوّابِينَ مَجْلِسِي، عَرَضَتْ لِي بَلِيَّةٌ أَزالَتْ قَدَمِي، وَحالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ خِدْمَتِكَ. سَيِّدِي لَعَلَّكَ عَنْ بابِكَ طَرَدْتَنِي، وَعَنْ خِدْمَتِكَ نَحَّيْتَنِي ...»

الحضرة الربوبيّة أعلى مرتبة من عبادة العباد

إنّ طبيعة تعلّقات الإنسان في عالم الدنيا توجب غفلته عن الإله المتعال وعوالم الغيب. فكلّما أراد الإنسان التخلّص من العالم المادّي، والتوجّه إلى عالم القدس، شغلته الأفكار والتعلّقات الدنيويّة إلى درجة يُسلَب معها حالة الدعاء والمناجاة. لكن، بين الحين والآخر، وبين ثنايا الفترات الطوال التي تذهب من عمر الإنسان هباءً، تأتي عليه لحظات يوفَّق فيها إلى الدعاء، والمناجاة، والصلاة بحضور قلب، وهذه لحظات ثمينة للغاية.

أحياناً، عندما يلاحظ الإنسان شحّة ما يصيب هو والآخرون من توفيقات، ويلتفت إلى المجتمعات البشريّة والمليارات من الناس المنشغلين بكلّ شيء سوى اللّه، تراوده فكرة: كم إنّ النظام الإلهيّ غريب! وبصرف النظر عن سائر الأقوام والملل، نرى أنّ غالبيّة

المسلمين أنفسهم غافلون عن اللّه، واليوم الآخر، ناهيك عن أولئك الذين لا يعتقدون باللّه أصلاً، أو يدينون بأديان منحرفة.

اشتهر عن أحد العرفاء أنّه عندما استيقظ من نومه للتهجّد وقيام الليل ولاحظ الناس غارقين في نومهم، طرأت في ذهنه هذه الفكرة وهي: كم إنّ النظام الإلهيّ مقفر وموحش! إلاّ أنّه أُلهِم فيما بعد أنّ النظام الإلهيّ على درجة من العلوّ والرفعة بحيث لا يوفَّق أيّ إنسان كان لبلوغه.

من أجل ذلك، إذا ما وفّق اللّه تعالى عبدَه للدعاء والمناجاة، مع كلّ ما يكبّله من الانشغالات والمعضلات، يتعيّن على العبد أن يقدّم جزيل شكره له تعالى. في المقابل، ذلك الإنسان الذي يتمتّع بالمزيد من هذه التوفيقات لا ينبغي أن يتملّكه الغرور متصوّراً أنّه يحظى بأهميّة بالغة عند الحضرة الربوبيّة. فهذه التوفيقات هي من جملة نعم اللّه السابغة على الإنسان، والتي تتطلّب شكراً جزيلاً: «**إلهي من أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا، وإذنك لنا بدعائك**»[١]. فنحن لم نُعطَ هذه النعم لكوننا أعزّاء على اللّه عزّ وجلّ، بل لاختبار مدى شكرنا. فأيّ نعمة لا يشكر الإنسان عليها، ولا يقدّرها سوف تُسلَب منه. إذن، على الإنسان المتنعّم أيضاً أن يخاف زوال النعمة، ويلتفت إلى حقيقة أنّ النعم المعنويّة والأُخرويّة لا تقارَن بالنعم المادّية والدنيويّة من حيث القيمة. ويُعدّ في هذا السياق قولُنا في زيارة السيّدة فاطمة المعصومة عليها السلام في خطابنا للباري تعالى: «**فلا تسلب منّي ما أنا فيه**».

(١) مفاتيح الجنان، مناجاة خمس عشرة، المناجاة الثالثة عشرة.

وعلى الرغم من أنّ معظم صلواتنا وأدعيتنا لا تعدو أن تكون تقليداً لأولياء اللّه وتشبّهاً بهم، إلاّ أنّ التوفيق للقيام حتّى بهذا المقدار من العبادات يُعَدّ بحدّ ذاته من جزيل النعم التي يجب علينا شكرها، والتوسّل إلى اللّه حتّى لا يسلبنا إيّاها، وأن يغدقها علينا أكثر، فكثيرون هم أولئك الذين سُلِبوا النعم الإلهيّة نتيجة عدم شكرها.

علل سلب التوفيق من الإنسان

يخاطب الإمام السجّاد عليه السلام الباري تعالى في جانب من دعاء أبي حمزة قائلاً: «**اللّهُمَّ إنِّي كُلَّما قُلْتُ قَدْ تَهَيَّأْتُ وَتَعَبَّأْتُ وَقُمْتُ لِلْصَّلاةِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَناجَيْتُكَ أَلْقَيْتَ عَلَيَّ نُعاساً إذا أَنا صَلَّيْتُ، وَسَلَبْتَني مُناجاتَكَ إذا أَنا ناجَيْتُ. مالِي كُلَّما قُلْتُ قَدْ صَلُحَتْ سَريرَتِي، وَقَرُبَ مِنْ مَجالِسِ التَّوّابينَ مَجْلِسِي عَرَضَتْ لِي بَلِيَّةٌ أَزالَتْ قَدَمِي، وَحالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ خِدْمَتِكَ. سَيِّدِي، لَعَلَّكَ عَنْ بابِكَ طَرَدْتَنِي، وَعَنْ خِدْمَتِكَ نَحَّيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُسْتَخِفّاً بِحَقِّكَ فَأَقْصَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُعْرِضاً عَنْكَ فَقَلَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ وَجَدْتَنِي فِي مَقامِ الكاذِبِينَ فَرَفَضْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي غَيْرَ شاكِرٍ لِنَعْمائِكَ فَحَرَمْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجالِسِ العُلَماءِ فَخَذَلْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي فِي الغافِلِينَ فَمِنْ رَحْمَتِكَ آيَسْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي آلِفَ مَجالِسِ البَطّالِينَ فَبَيْنِي وَبَيْنَهُمْ خَلَّيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ لَمْ تُحِبَّ أَنْ تَسْمَعَ دُعائِي فَباعَدْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ بِجُرْمِي وَجَرِيرَتِي كافَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ بِقِلَّةِ حَيائِي مِنْكَ جازَيْتَنِي**».

عند مطالعة هذا المقطع وإمعان النظر فيه نستنتج أنّ حصول الإنسان، متى شاء، على حالة الدعاء، والمناجاة، وعبادة اللّه ليس بالأمر الهيّن. والتجربة تثبت أيضاً أنّ نيل تلك الحالات ليس باختيار

الإنسان بشكل كامل. ففي أحيان كثيرة، وعلى الرغم من رغبة الإنسان في الإتيان بالدعاء أو الصلاة بحال قلبيّ مناسب، لكن عندما يلتفت إلى نفسه يجد أنّه في حال آخر وقد سهى عن كونه في حال الدعاء أو الصلاة. والمقطع المذكور من الدعاء يخبرنا أنّ أعمالنا السابقة هي السبب في بروز مثل هذه الحالات وسلب التوفيق من الإنسان للعبادة.

فالإنسان الذي يقضي ليله ونهاره في البطالة والتفاهات ليس بمقدوره أن يركّز تفكيره في الصلاة والمناجاة، ويمنع الأفكار الباطلة من النفوذ إلى ذهنه. إنّ معاشرة من لا يصدر منهم إلاّ المشين من الأعمال، واللغو والباطل من المقال من شأنها أن تترك أثراً سلبيّاً في روح الإنسان، وتسلب منه حالة الدعاء والمناجاة. وكذا فإنّ الابتعاد عن العلماء، وعن عباد اللّه الصالحين، بالإضافة إلى ارتكاب الآثام تفعل في نفس الإنسان ذات الفعل. فقد جاء في بعض الروايات ما مضمونه أنّ اللّه يحرم الإنسان أحياناً من التهجّد وقيام الليل عقوبة على المعصية التي ارتكبها في النهار الذي سبق تلك الليلة.

بناءً على ذلك، إذا رغب الإنسان في أن يوفَّق إلى دعاء مشفوع بنشاط الروح، وصلاة مصحوبة بحضور القلب، وتلاوة القرآن فعليه أن يهيّئ المقدّمات لذلك مسبقاً. فإن لم يُشفَع ذلك بالتوطئة المناسبة فهو لن يوفَّق لأن يحظى حال الدعاء أو الصلاة بالنشاط القلبيّ المناسب.

هذه الجمل من دعاء أبي حمزة تنبّهنا لأن نتوخّى كامل الحذر حتّى لا يكون انجرافنا وراء التصرّفات غير المسؤولة سبباً لسلبنا

حالة الدعاء وحضور القلب في العبادات. فأولئك الذين يحبّون أن يُشمَلوا بتوفيق التهجّد والتعبّد في جوف ليلهم عليهم مراقبة أقوالهم وأفعالهم في نهارهم؛ عليهم أن يحفظوا أبصارهم وأسماعهم ممّا لايجوز النظر والاستماع إليه، وأن لا يشغلوا قلوبهم بالأمور الباطلة، ولا يفسحوا المجال للخيالات الواهية لأن تتسرّب إلى مخيّلتهم، لأنّ كلّ ذلك من شأنه أن يحول دون حضور القلب.

من هنا يمكن الادّعاء أنّ كلّ المآزق التي يقع فيها الإنسان هي من صنع يديه؛ فهو الذي يُبعِد النعم المعنويّة عن نفسه بأعماله، وهو الذي بيده أيضاً مفتاح حلّ كلّ تلك المسائل.

نتيجة الأعمال

إنّ للأعمال الاختياريّة التي يقوم بها الإنسان في هذا العالم نتيجتين، تظهر إحداهما في هذا العالم والثانية في عالم الآخرة.

فالنتيجة الدنيويّة لأعمال الإنسان الصالحة هي التوفيق للقيام بالمزيد منها. وعلى العكس، فإنّ نتيجة الأعمال القبيحة التي يرتكبها هي سلب التوفيق منه للقيام بالأعمال الصالحة من جهة، والمزيد من الاستعداد لارتكاب المعاصي من جهة أخرى. لذا على الإنسان مجانبة عصيان الأمر الإلهيّ لسببين رئيسيّين: الأوّل: هو النتائج الأخرويّة لهذه الأعمال المتمثّلة بالعذاب الأخرويّ، والثاني: هو سلب التوفيق للإتيان بالأعمال الصالحة، والمزيد من التدنّس بالأعمال المشينة في هذه الدنيا. والالتفات إلى هذه النتائج يدفع بالإنسان إلى مراقبةٍ أشدّ لأعماله، ومراعاة تقوى اللّه سبحانه وتعالى؛ فلا يتناول أيّ طعام، ولا يتفوّه بأيّ كلام، وبشكل عام لا

يبدر منه أيّ تصرّف بدافع الهوى، بل يقصد بكلّ أعماله رضى اللّه. فبالتقوى والعبوديّة للّه يمكن كسب التوفيق للدعاء والمناجاة، الذي هو، في الواقع، الحضور في محفل الأُنس الإلهيّ.

وكذا الحال في الأُمور الدنيويّة، فلا يفسح المجال لأيٍّ كان للمشاركة في محفل الأُنس. فمن الممكن أن تربط الشخص علاقة بعدد من أصدقائه ومعارفه، بيد أنّ محفل أُنسه يكون عادة مع الخواصّ منهم فحسب. فالمسلمون الذين لا يكنّون أيّ عداوة للّه كثيرون، غير أنّهم - في الوقت ذاته - لا يوفَّقون إلى الأُنس باللّه. والذين ينالون شرف الحضور في حفل الأُنس الإلهيّ هم فقط أولئك الذين يتوخّون دقّة أكبر في أفعالهم، وتصرّفاتهم، ومعاشرتهم للآخرين، والذين يضعون اللّه دائماً نصب أعينهم.

أولئك الذين أصابتهم الأرجاس، من جرّاء ما ابتلوا به من العثرات والانحرافات على امتداد سنيّ عمرهم، عليهم أن يجهدوا في شهر رمضان المبارك - حيث التوفيق إلى أن تكون ضيافة اللّه من نصيبهم، والدعوة إلى محفل الأُنس الإلهيّ قد شملتهم - أن يجهدوا لأن يطهّروا أنفسهم من الرجس والآثام، ويبذلوا قصارى جهدهم لأن يوطّنوا أنفسهم في هذا الشهر الفضيل على تقوى اللّه كي تدوم عندهم حالة التقوى هذه إلى ما بعد هذا الشهر أيضاً.

إنّ من أعظم بركات هذا الشهر هو أن يوفّق الإنسان فيه إلى أفضل الطاعات. ففي هذا الشهر يقوم الإنسان بمراقبة أشدّ على تمام أفعاله؛ فلا يتناول أيّ طعام كان، ويحاول أن لا ينطق بأيّ كلام، ويراقب نظره وسمعه ... الخ. لذا، كلّما بذل الإنسان دقّة أكبر، ومارس

تمريناً أشدّ في مراقبة هذه المسائل في شهر رمضان، كانت الثمار التي يجنيها من هذا الشهر أعظم. وبعد انتهاء الشهر الفضيل أيضاً فليجهد للمحافظة على الثمار التي قطفها خلال شهر من التمرين من أجل أن تدوم توفيقاته.

على أيّ حال، من أجل أن يتمتّع الإنسان دائماً بحال الدعاء والمناجاة، يجب عليه تمهيد الأرضيّة لذلك مسبقاً؛ ذلك بأن يخصّص ساعة من يومه ينأى بنفسه فيها عن أفكاره وشؤونه الدنيويّة متفرّغاً إلى حالات نفسه، وأمور آخرته، ويحضر مجالس العلماء، وعباد اللّه الصالحين، ذلك أنّ معاشرة الأطهار والصلحاء من شأنها أن تذكّر الإنسان باللّه، كما أنّ معاشرة البطّالين وعبيد الدنيا تزجّ الإنسان في متاهات الغفلة عن اللّه. كذلك فإنّ زيارة قبور العظماء، والأولياء، وأولاد الأئمّة عليهم السلام هي من جملة الأمور التي تدعّم ذكر اللّه في قلب الإنسان، وتضعف فيه التوجّه نحو الدنيا.

وكذا، إذا أصبنا بعض التوفيق فإنّه يتعيّن علينا الحذر من الوقوع فريسة للغرور، ولا نحسبنّ أنفسنا من المتمتّعين بالكمالات والموفقيّات من خلال النظر للآخرين باحتقار واستعلاء. فعلى الرغم من أنّ إنجاز الأعمال الخيّرة نعمة عظيمة، لكن من غير المعلوم أنّ مثل هذا التوفيق سوف يدوم لنا، أو أنّ الآخرين سيحرمون منه إلى الأبد. فكم هم الأشخاص الذين كانوا من أهل الطاعات والعبادات، ولم تُختم عاقبتهم على خير، وكم هم الأفراد الذين كانوا من أهل المعاصي، فآلت بهم الأمور إلى الفلاح. لذا، لا ينبغي النظر بنظرة الاحتقار حتّى إلى أهل الفسق والمعصية، فإنّ ما يبغضه اللّه أشدّ

البغض هو الغرور والعجب بالنفس إلى حدّ أن جاء في بعض الروايات أنّ اللّه يحرم بعض الأشخاص من توفيق صلاة الليل كي لا يصابوا بالغرور، لأنّ الضرر الذي يُلحِقه الغرور بالإنسان يصل إلى حدّ لاتجبره حتّى صلاة الليل[١].

اللهمّ احملنا في سفن نجاتك، ومتّعنا بلذيذ مناجاتك، وأوردنا حياض حبّك، وأذقنا حلاوة ودّك وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمّنا في طاعتك[٢].

---

(١) أصول الكافي (للكلينيّ)، ج٢، باب الرضا بالقضاء، ص٦٠، الحديث ٤؛ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: قال اللّه عزّ وجلّ: ... وإنّ من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي، فيقوم من رقاده ولذيذ وساده، فيتهجّد لي الليالي، فيتعب نفسه في عبادتي، فأضربه بالنعاس الليلة والليلتين نظراً منّي له، وإبقاءً عليه، فينام حتّى يصبح، فيقوم وهو ماقت لنفسه، زاريٌ عليها، ولو أخلّي بينه وبيين ما يريد من عبادتي لدخله العجب من ذلك، فيصيّره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه لعجبه بأعماله، ورضاه عن نفسه، حتّى يظنّ أنّه قد فاق العابدين، وجاز في عبادته حدّ التقصير، فيتباعد منّي عند ذلك وهو يظنّ أنّه يتقرّب إليّ..».

(٢) مفاتيح الجنان، مناجاة خمس عشرة، المناجاة السابعة.

(٤)

«إلٰهي لَوْ قَرَنْتَني بالأَصْفادِ، وَمَنَعْتَني سَيْبَكَ مِنْ بَيْنِ الأَشْهادِ، وَدَلَلْتَ عَلىٰ فَضائِحي عُيُونَ العِبادِ، وَأَمَرْتَ بي إلَىٰ النّارِ، وَحُلْتَ بَيْني وَبَيْنَ الأَبْرارِ، ما قَطَعْتُ رَجائي مِنْكَ، وَما صَرَفْتُ تَأميلي لِلْعَفْوِ عَنْكَ، وَلا خَرَجَ حُبُّكَ مِنْ قَلْبي. أَنَا لا أَنْسَىٰ أَيادِيكَ عِنْدي، وَسِتْرَكَ عَلَيَّ فِي دارِ الدُّنْيا..»

الخوف والرجاء من لوازم الإيمان

من الموضوعات التي يكثر التأكيد عليها بشتى التعابير في الأدعية الشريفة، لاسيّما أدعية شهر رمضان المبارك، هي موضوع الخوف والرجاء والموازنة بينهما.

من الطبيعيّ، عندما يدرك الإنسان العظمة الإلهيّة جيّداً فإنّه يشعر بالهلع، والحقارة، والخضوع، والخشوع. هذه الحالة النفسانيّة مودعة في فطرة الإنسان فهو يشعر بالخوف والضعة أمام أيّ عظمة. لذا فإنّ إدراك عظمة الباري عزّ وجلّ بشكل كامل لا يمكن أن يكون من غير خوف.

لماذا كان أولياء اللّه على جانب عظيم من الخوف إلى درجة بحيث كانت تتغيّر ألوانهم من شدّته أحياناً، وقد تصيبهم رعدة يعجز البيان عن توصيفها أحياناً أخرى؟ أيمكن أن نَصِف الإمام عليّ، أو

الإمام السجّاد، أو سائر الأئمّة عليهم السلام وصفاً دقيقاً بمعزل عن حالات الخوف التي تنتابهم؟

لكنّ الشخص المؤمن، مع كلّ هذا الخوف، فهو على جانب من الرجاء لرحمة الحقّ ممّا يجعله وكأنّه لم يرتكب أيّ خطأ في حياته. يقول الإمام الصادق عليه السلام: إنّ من جملة وصايا لقمان الحكيم لابنه قوله له: «**خَفِ اللّه عزّ وجلّ خيفة لو جئتَه ببرّ الثقلين لعذّبك، وارْجُ اللّه رجاءً لو جئتَه بذنوب الثقلين لرحمك**»[(١)].

ورد في أحاديث مستفيضة أنّ الخوف والرجاء متساويان في قلب المؤمن. فلا يغلب على قلبه الخوف إلى حدّ اليأس من رحمة اللّه، ولا الرجاء إلى درجة الغرور. يُنقَل عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّه ليس من عبد مؤمن إلاّ وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء؛ لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا**»[(٢)]، كما قال عليه السلام في حديث آخر: «**نجوى العارفين تدور على ثلاثة أصول: الخوف، والرجاء، والحبّ؛ فالخوف فرع العلم، والرجاء فرع اليقين، والحبّ فرع المعرفة**»[(٣)].

الظهور الكامل للخوف والرجاء عند زين العابدين عليه السلام

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في هذا الموضع من الدعاء: «**إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللت على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلى النار، وحُلتَ بيني وبين**

(١) أصول الكافي (للكليني)، ج٢، باب الخوف والرجاء، ص٦٧، الحديث ١.

(٢) أصول الكافي (للكليني)، ج٢، باب الخوف والرجاء، ص٦٧، الحديث ١.

(٣) بحار الأنوار، ج٦٧، الباب ٤٣، ص٢٢، الحديث ٢٢.

الأبرار، ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك، ولا خرج حبّك من قلبي، أنا لا أنسى أياديك عندي، وسترك عليّ في دار الدنيا...».

مثل هذه المضامين تشاهَد بكثرة في مناجاة وأدعية الأئمّة المعصومين عليهم السلام. فقد جاء في المناجاة المنظومة المنسوبة لأمير المؤمنين عليه السلام ما نصّه:

إلهي لئن عذّبتني ألف حِجّة فحبل رجائي منك لا يتقطّع[1]

كما أنّه عليه السلام يخاطب اللّه في دعاء كميل قائلاً: «**يامولاي فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما سلف من حلمك، أم كيف تُؤلِمه النار وهو يأمُل فضلك ورحمتك**».

لابدّ لنا عند استعراضنا لهذه الجمل من بعض التأمّل، والرجوع إلى النفس سائلين إيّاها: هل لنا أن ندّعي مثل هذا الادّعاء حقّاً؟ هل نستطيع أن نخاطب اللّه تعالى بهذا الأسلوب بصدق من نيّاتنا؟ هل إنّنا في واقع الأمر، وإن فَضَحَنا اللّه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وسحبنا بالأغلال والسلاسل، وقادنا إلى جهنّم، سوف نرجو رحمته مع كلّ هذا؟ بل، وفوق ذلك، هل بمقدورنا الادّعاء بأنّ محبّته سوف لن تفارق قلوبنا رغم ذلك؟

إنّ مثل هذا الادّعاء مُشكِل بالنسبة لنا، وليس لنا أن ندّعي مثله بصدق، وأفعالنا وتصرّفاتنا في هذه الدنيا لخير شاهد على ذلك. فنحن إذا ابتُلينا في حياتنا بأزمة تافهة وطالت بعض الشيء، فإنّه

(١) مفاتيح الجنان، المناجاة المنظومة لأمير المؤمنين عليه السلام.

تجري عبارات الاعتراض على ألسنتنا. في هذه الحالة ليس فقط لن يبقى أثر للمحبّة في قلوبنا، بل سوف نضمر للّه الحقد، والعياذ باللّه. إنّ لدينا تعلّقاً بالدنيا بحيث لا نملك في أذهاننا أدنى تصوّر للتخلّص منه.

على هذا الأساس، من الممكن القول إنّ حالنا لا يسمح بمثل هذا الادّعاء، وليس لنا أن نعبّر بهذا المقطع من الدعاء، كما هو حال الكثير من غيره من المقاطع، عن لسان حال أنفسنا. فقط أمثال الإمام زين العابدين وأمير المؤمنين عليهما السلام من حقّهم أن يخاطبوا اللّه بهذا الأسلوب ويدّعوا هذا الادّعاء. أمّا نحن فما علينا إلاّ أن نعبّر بهذه الكلمات عن لسانهم عليهم السلام. لكن، ينبغي أن نبذل قصارى جهدنا في إيجاد مثل هذه الحالات في أنفسنا، والتقرّب من هذه المسائل.

سبل الظفر بمحبّة اللّه

[١] **الالتفات إلى آلاء اللّه**: إنّ نيل المحبّة تجاه اللّه من شأنه أن يبعد الإنسان عن معصية اللّه وعن التنصّل من اتّباع أوامره ونواهيه.

ما الذي يتحتّم علينا فعله في سبيل زرع المحبّة للّه في قلوبنا كي لا نبتعد عنه فيما إذا أصابنا بلاء أو شدّة؟ ماذا نفعل ليصل رجاؤنا في اللّه حدّاً بحيث لو سلكونا في جهنّم فإنّه لا يفارق تأميلُنا لرحمة اللّه قلوبَنا؟

ولا يمكن اكتساب هذه الحالات في العالم الآخر، فالمكان المناسب لاكتساب مثل هذه الحالات والصفات هو هذه الدنيا وهي تتجلّى هناك في الآخرة؟

إذن، ما هو السبيل إلى إيجاد المحبّة للّه في القلب والرجاء منه سبحانه؟ في هذا المقطع من دعاء أبي حمزة يقول الإمام السجّاد عليه السلام: إنّ عدم خروج محبّتك من قلبي راجع إلى أنّني لا أنسى أياديك وآلاءك عليّ، ولا يذهب من خاطري سترك على ذنوبي وآثامي. يُستفاد من هذه الجمل أنّ العبد إذا أراد أن تستقرّ محبّة اللّه في قلبه فإنّه يتعيّن عليه أن يكون دائماً في ذكر اللّه وذكر آلائه الوافرة. يقول نبيّ الإسلام الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**أحِبُّوا اللّه لِما يَغذُوكُم به من نِعَمِه**»[1]. كما ورد في الحديث القدسيّ أنّ اللّه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام فقال: «**حبّبني إلى خلقي وحبّب خلقي إليّ. قال: يا ربّ كيف أفعل؟ قال: ذكّرهم آلائي ونعمائي ليحبّوني** ...»[2].

وبشكل طبيعيّ إذا علم الإنسان أنّ أحداً مّا صنع معه معروفاً وعامله باللطف فسوف يشعر في قلبه بالمحبّة تجاهه خصوصاً إذا كان الإنسان في مأزق ولا سبيل له إلى النجاة. ما من أحد إلاّ وقد عرضت له في فترة من فترات حياته بليّة وهرع أحدُ أقاربه أو أصدقائه إلى نجدته ومساعدته. في مثل هذه المواقف لا يمكن أن يَنسى الإنسان هذا اللطف حتّى آخر لحظة من عمره وسوف تنشأ في قلبه - قهراً - محبّةٌ تجاه ذلك الشخص.

من هنا، فمن أجل أن تتولّد في قلوبنا محبّة وعاطفة تجاه اللّه تعالى فلابدّ أن نتذكّر آلاء الباري وألطافه واحدة واحدة. غير أنّ نعم اللّه وآلاءه من الكثرة، وإنّنا فيها من الاستغراق، بحيث لا ندرك

(١) بحار الأنوار، ج٢٧، الباب ٤، ص١٤٢، الحديث ١٥٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٢، الباب ٨، ص٤، الحديث ٦.

وجودها، ولسنا واعين لقيمتها إلاّ إذا ابتلينا باختبار شديد فسُلِبنا نعمة أو بضعة نعم، عند ذاك نلتفت إلى أنّه أيّ نعمة كنّا متمتّعين بها ولم نقدرها حقّ قدرها.

إنّ دعاء «الجوشن الصغير» هو أحد الأدعية المفعمة بأمثال تلك المضامين العالية. هذا الدعاء يعرض للبلايا المبتلى بها الناس والتي من الممكن أن نُبتَلى بها نحن أيضاً. في البدء يشير إلى غلّ الحاقدين والأعداء وكيف أنّ اللّه تعالى يحمينا منهم: «**إلهي كم من عدوّ انتضى عليّ سيف عداوته، وشحذ لي ظُبَّةَ مُديَته، وأرهَفَ لي شَبَا حَدِّه، وداف لي قواتِلَ سُمُومِه، وسدَّدَ إليّ صَوائِبَ سِهامِه، ولم تنم عنّي عين حراسته، وأضمر أن يَسُومني المكروه ويجرّعني زُعاف مرارته، نظرتَ إلى ضعفي عن احتمال الفوادح...**». إلى أن يقول: «**اجعلني لنعمائك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين**».

وتأسيساً على ذلك، لابدّ من أن نرسم لأنفسنا منهاجاً يوميّاً نخصّص فيه لحظات من اليوم والليلة للتفكّر في آلاء اللّه علينا وتذكّرها وما ستر من عيوبنا وخطايانا، فنثني بذلك على اللّه. ذلك على الرغم من أنّ العبد إن قضى تمام عمره في شكر أنعم اللّه سبحانه وتعالى عليه فهو لن يستطيع، حسب قول الإمام الحسين عليه السلام[1]، أن يشكر حتّى واحدة من أنعُمِه من غير توفيقه هو جلّ وعلا. فالشكر، ونيل مقام الشاكرين منزلة لا يعطيها اللّه إلاّ للمؤمنين من عباده، وإلاّ فمتى يتسنّى للعبد أن يؤدّي شكر أنعُم اللّه؟ يقول الإمام

(١) يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «لو حاولتُ واجتهدتُ مدى الأعصار والأحقاب لو عُمِّرتُها أن أؤدّي شكر واحدة من أنعمك ما استطعت ذلك إلاّ بمنّك الموجب عليّ به شكرك أبداً جديداً».

زين العابدين عليه السلام: «**فآلاؤك جمّة ضعُفَ لساني عن إحصائها، ونعماؤك كثيرة قَصُرَ فهمي عن إدراكها فضلاً عن استقصائها. فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يفتقر إلى شكر؟! فكلّما قلت لك الحمد، وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد**»[١].

من ذا الذي يفي أداء شكرهِ بالفعل كان الشكر أم بقوله[٢]

ومن جملة السبل التي يمكننا من خلالها التعرّف بشكل أفضل على نعم الله علينا هي مقارنة حالنا بحال الفاقدين لتلك النعم، وسندرك حينها أيّ نعم عظيمة مَنَّ اللّه بها علينا، في حين أنّ الآخرين محرومون منها. إنّ الالتفات لتلك النعم من شأنه أن يزرع محبّة الباري عزّ وجلّ في قلب الإنسان، ويبعث في نفسه حالة الشكر والرجاء.

يستعرض الإمام زين العابدين عليه السلام في موضع آخر من هذا الدعاء النعم الإلهيّة على الإنسان بقوله: «**أَنٰا الصَّغيرُ الَّذي رَبَّيْتَهُ، وَأَنٰا الجٰاهِلُ الَّذي عَلَّمْتَهُ، وَأَنٰا الضّٰالُّ الَّذي هَدَيْتَهُ، وَأَنٰا الوَضيعُ الَّذي رَفَعْتَهُ، وَأَنٰا الخٰائِفُ الَّذي آمَنْتَهُ، وَالجٰائِعُ الَّذي أَشْبَعْتَهُ، وَالعَطْشٰانُ الَّذي أَرْوَيْتَهُ، وَالعٰاري الَّذي كَسَوْتَهُ، وَالفَقيرُ الَّذي أَغْنَيْتَهُ، وَالضَّعيفُ الَّذي قَوَّيْتَهُ، وَالذَّليلُ الَّذي أَعْزَزْتَهُ، وَالسَّقيمُ الَّذي شَفَيْتَهُ ...**».

وبالإضافة إلى أنّ الالتفات إلى هذه النعم يسهم في تعزيز المحبّة في قلب الإنسان للمُنعِم، فهو يحيي في قلبه الأمل والرجاء أيضاً.

---

(١) مفاتيح الجنان، مناجاة خمس عشرة، المناجاة السادسة.

(٢) في إشارة إلى بيت للشاعر الإيرانيّ «سعدي الشيرازيّ» بالفارسيّة:

از دست و زبان كه برآيد كز عهده شكرش به در آيد

فالإله الذي يهب كلّ تلك النعم للإنسان، لا يرغب في سوق هذا الشخص إلى جهنّم من دون سبب وعلّة. فهو سبحانه يُعبِّد طريق السعادة للإنسان إلاّ أنّ جحود العبد وطغيانه هو الذي يقتضي أن يقوم اللّه الحكيم بجعل فارق بينه وبين عباده الصالحين، فيعذّب المعاندين لعنادهم.

[٢] **الالتفات إلى ستر اللّه للعيوب**: بالنسبة للذنوب التي اجترحناها في خلواتنا بعيداً عن أنظار الآخرين فقد نسّق اللّه الأمور بحيث لا يطّلع الناس على تلك الذنوب كي لا يُفتضح أمرنا. وهذه أيضاً من جملة ما مَنّ اللّه به من النعم العظيمة جدّاً على الإنسان. فالإنسان أحياناً يرتكب القبيح في خلواته، بيدَ أنّ اللّه يستر عليه هذا الذنب، ويحول دون اطّلاع الآخرين عليه، وإلاّ لم يتمكّن الإنسان من الظهور أمام الناس، والانخراط في المجتمع. من هذا المنطلق يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «**أنا لا أنسى أياديك عندي، وسترك عليّ في دار الدنيا**»[1].

وبناءً على ما مرّ، فمن أجل اكتساب المحبّة تجاه اللّه وتعزيزها، والرجاء لرحمة اللّه وعفوه، علينا أن ننظّم لأنفسنا برنامجاً نخصّص فيه فترة من كلّ يوم للتفكّر بأنعُم اللّه وتذكّرها. فأيّ واحد من هذه الأمور، من محبّة اللّه، أو الخوف منه، أو الرجاء له فإنّه لا يأتي ذاتيّاً، بل يجب الاجتهاد في طلبه.

ونحن إن لم نهيّئ أنفسنا لمثل هذه الأعمال في شهر رمضان المبارك، فلن نجد فرصة أكثر ملاءمة من هذا الوقت. إن لم نغتنم

(١) دعاء أبي حمزة الثماليّ.

هذه الفرص، فسيأتي يوم تقتلنا فيه الحسرة والندامة عليها. وفجأة ننتبه إلى أنفسنا ونشاهد أنّ شهر رمضان آخر قد فات ولم نتُب بعدُ من ذنوبنا وسيّئاتنا، ولم نسكب الماء على النيران التي أوقدناها في أرواحنا، ولم نردّ ما في ذمّتنا للناس من حقوق، ولم نتدارك ما اقترفناه من الغيبة، والاتّهام، والكذب، وما إلى ذلك من الذنوب.

«[اللهمّ] أَفَبِلِسانِي هذا الكالِّ أَشْكُرُكَ، أَمْ بِغايَةِ جُهْدِي فِي عَمَلِي أُرْضِيكَ؟ وَما قَدْرُ لِسانِي يا رَبِّ فِي جَنْبِ شُكْرِكَ، وَما قَدْرُ عَمَلِي فِي جَنْبِ نِعَمِكَ وَإِحْسانِكَ».[1]

(١) مقطع من دعاء أبي حمزة.

(٥)

«يٰا مَوْلاٰيَ بِذِكْرِكَ عٰاشَ قَلْبِي، وَبِمُنٰاجاتِكَ بَرَّدْتُ أَلَمَ الخَوْفِ عَنِّي»

في هذا المقطع القصير من الدعاء إشارة إلى بحثين مهمّين: ذكر اللّه، والحياة المعنويّة (حياة القلب).

ذكر اللّه

إنّ الهدف الأساسيّ والعامّ لكلّ التكاليف الإلهيّة، وبالأخصّ العبادات منها، هو إيجاد وتقوية الرابطة بين الإنسان واللّه تعالى، وإنّ روحها جميعاً تتمثّل بالالتفات إلى اللّه سبحانه و«ذكره». وبتعبير آخر، إنّ شرط صحّة هذه الأعمال، أو شرط كمالها في بعض الموارد، هو توجّه الإنسان إلى اللّه أثناء ممارستها. فالقرآن يقول في حقّ الصلاة، التي هي من أسمى العبادات، والتي حظيت بأهمّ توصية وتأكيد: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]. وبالنسبة لسائر العبادات يقول الفقهاء إنّها إن أقيمت بدون توجّه أو ذكر للّه، لم يتحقّق امتثال الأمر الإلهيّ منها.

حقيقة الذكر

ما هو المراد من الذكر؟

تُطلَق كلمة «الذكر» بالعربيّة على أمور شتّى. وهي تطلق أحياناً،

(١) سورة طه، الآية ١٤.

بما يتناسب مع السياق، على الكتب السماويّة، بل وعلى الأنبياء أيضاً؛ إذ يقول القرآن بخصوص «التوراة»: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ﴾(١). وقد أُطلق على القرآن كذلك لفظة الذكر في آيات كثيرة منها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَافِظُونَ﴾(٢). ولعلّ تسمية الكتب السماويّة وشخص الأنبياء بالذكر هو لأنّهم يذكّرون الناس باللّه. فالناس يتذكّرون اللّه عند قراءتهم لهذه الكتب أو مشاهدة الأنبياء؛ (وحسب رأي الأدباء هناك علاقة سببيّة بين الاثنين). إذن، فإنّ أصل المعنى اللغويّ لكلمة الـ«ذكر» هو التذكّر والالتفات.

إنّ ذكر أيّ شخص أو شيء فهو ينحصر تارة في القلب، ويسري تارة أخرى من القلب إلى اللسان. فعندما تقول: تذكّرت صديقي، أو تذكّرت الحادثة أو الذكرى الفلانيّة، فإنّ هذا التذكّر أمر قلبيّ قد خطر في ذهنك. وحقيقة الذكر هو هذا التذكّر القلبيّ، والحضور في القلب. إلاّ أنّ هذا الذكر يسري أحياناً إلى اللسان فتقول لصديقك: ذكرتك بالخير؛ أي علاوة على الذكر القلبيّ، فقد جرى اسمه على لسانك. والذكر اللسانيّ ناشئ عن التوجّه القلبيّ؛ فما لم يلتفت ذهن المرء إلى أمر، فهو لا يذكره بلسانه. من هنا، فإنّ الذكر اللسانيّ يحكي عن التوجّه القلبيّ الذي هو حقيقة الذكر.

ومن المناسب أن أُشير هنا إلى أنّه في الأمور العاديّة يكون الذكر اللسانيّ مصحوباً بالتوجّه القلبيّ دائماً، أمّا فيما يخصّ الذكر الإلهيّ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩.

فممّا يُؤسَف له أنّ أذكارنا، في العادة، تفتقر إلى التوجّه القلبيّ. فإنّنا قد نصلّي أو نقرأ القرآن إلاّ أنّ الشيء الوحيد الغائب كلّ الغيبة عن أذهاننا وتوجهّنا، أثناء ذلك، هو ذكر اللّه في حين أنّ حقيقة وروح الصلاة ليست سوى الالتفات إلى اللّه، والتوجّه إليه. بل إنّنا لا نلتفت إلى اللّه تعالى حتّى عندما ندعوه ونطلب منه حاجة. فلو نظر مَن يتمتّع بعين البصيرة إلى باطن أكثرنا ونحن في حال الصلاة لشاهد مزيجاً من ذكر الزوجة، والأولاد، والكسب، والعمل، والمنزل، والسيّارة، والمنصب، والمقام، ...الخ. فنحن عبارة عن مجموعة من هذه الخيالات، وما نفتقر إليه تماماً هو الالتفات إلى اللّه وذكره.

وعلى أيّة حال، فإنّ حقيقة الذكر هو هذا التوجّه والالتفات القلبيّ. يقول القرآن الكريم: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[1]. فذكر اللّه ليس بحاجة إلى صياح. بل ليس من المناسب أن ينطق المرء باسم اللّه رافعاً صوته. تُعلّمنا هذه الآية كيف أنّ ذكرنا لاسم اللّه يجب أن يكون بهمس وبإخفات. بالطبع، في المواطن التي يكون فيها ذكر اللّه من باب الشّعار كما في «الأذان»، أو «التكبير» في ساحة القتال، فلابدّ من رفع الصوت من أجل تحقّق الهدف المقصود.

الطمأنينة في ظلّ ذكر الله فحسب

إنّ حياة المرء في هذا العالم مصحوبة بالاضطراب بشكل متواصل. حتّى إنّ بعض المدارس الفكريّة في علم الإنسان «الأنثروبولوجيا»

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

تعتبر أنّ الاضطراب والقلق من مقوّمات وجود وحياة الإنسان؛ وبعبارة أخرى، هي تعتبر أنّه مرحلة الإنسان المميّز. فهم يقولون: إنّ إنسانيّة الإنسان هي في اضطرابه وقلقه. وبالطبع إنّ هذا الرأي رأي مُفرط للغاية، إلاّ أنّه يبيّن بعض الحقيقة.

فالناس عادة يصابون بضرب من الاضطراب والقلق جرّاء عوامل شتّى؛ فهم في قلق دائم من المستقبل. حتّى وإن كانت هذه الحالة مفيدة من بعض الجوانب وإنّ من الممكن أن تكون لها آثار إيجابيّة، إلاّ أنّها ليست بالحالة المطلوبة أساساً، فالإنسان فطريّاً يسعى وراء الطمأنينة وراحة البال. وإن حصل وأصابه الاضطراب بدرجة معيّنة، فيتعيّن إزالته من خلال مستوى أعلى من الطمأنينة؛ إذ لابدّ لعمق قلب المرء أن يكون هادئاً مطمئنّاً. وينبغي للأمور الجزئيّة التي تثير القلق والاضطراب أن تكون كأمواج البحر؛ فهي تظهر على السطح فقط أمّا عمقه فيبقى هادئاً. وكذا أعماق قلب الإنسان، فلابدّ أن تنعم بالهدوء والطمأنينة، وتكون الاضطرابات - كما في الأمواج - سطحيّة وعابرة، وإلاّ لتحوّلت الحياة إلى مشهد قاتم وكئيب.

يا ترى ما هو العامل الذي بإمكانه أن يبعث في نفس الإنسان الطمأنينة وراحة البال؟ يقول القرآن إنّ ذكر اللّه تعالى فقط هو الذي من شأنه أن يزرع الطمأنينة في القلوب المضطربة الهائجة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]. فالذاكرون الحقيقيّون للّه، والذين نفذ ذكر اللّه إلى أعماق نفوسهم وترسّخ فيها، هم على مستوىً

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨.

من الطمأنينة والسكينة بحيث لا تستطيع أيّ نازلة أن تدفع بهم إلى الاضطراب والهيجان.

والإمام الخمينيّ قدّس سرّه هو خير نموذج لهؤلاء في زماننا الحاضر. فرغم الحوادث الجسام التي تتصدّع منها الجبال، لم تكن طمأنينة وسكينة هذا الرجل الإلهيّ لتتأثّر قيد شعرة، حتّى وكأنّ شيئاً لم يكن. أيّ قلب هذا؟ ومن أيّ منهل كان ينهل؟ فالشرق والغرب قد تضافروا على مخاصمته، لكنّه شقّ طريقه نحو هدفه بكلّ عزيمة وإصرار.

ولا يمكن الحصول على مثل هذه الطمأنينة والقدرة إلاّ من خلال التوجّه إلى اللّه. فنحن إن لم يكن لنا حظّ من هذه الطمأنينة، أو كان حظّنا منها الأقلّ، فهو بسبب ضعف ذكر اللّه في قلوبنا. فكلّما كان ذكر اللّه والتوجّه إليه في القلب أقوى، زاد استقرار القلب وسكينته.

ومن باب التشبيه، الناقص جدّاً طبعاً، تخيّلوا زورقاً أو سفينة ترسو على ساحل البحر. هذا الزورق أو هذه السفينة إن لم يُربَطا بشيء ثابت وراسخ على الساحل، فإنّ أمواج البحر ستحرّكهما، وتأخذهما بعيداً، بل وتغرقهما أيضاً إن كانت متلاطمة. لكنّهما إن كانا مربوطين بشيء ثابت ومحكم، فلن تحرّكهما الأمواج مهما كانت شديدة ومتلاطمة. نعم قد تحرّكهما حركة طفيفة، إلاّ أنّها لا تستطيع إغراقهما.

والمؤمن أيضاً يتّكل على القدرة الإلهيّة الأزليّة، فلا تستطيع النوازل أن تهدّد سكونه وطمأنينته. لقد شبّهت الروايات المؤمن بالجبل، بل ووصفته بأقوى من ذلك أيضاً؛ لأنّ ذرات الجبل تتطاير بسبب الرياح العاتية، لكنّ عواصف النوازل لا يمكنها أن تزحزح

إيمان المؤمن مثقال ذرّة؛ فالمؤمن «**كالجبل الراسخ لا تحرّكه العواصف**»[١]. لماذا؟ لأنّ قلبه مرتبط بموضع لا يتزلزل، ولا يتغيّر ولا يفنى.

محصّلة ذلك، بالإضافة إلى ما يفيده «ذكر» اللّه من الفلاح السرمديّ، فإنّه من موجبات الطمأنينة في الدنيا أيضاً، وهي نعمة عظيمة تجلّ عن الوصف.

نظر اللّه الخاصّ لأوليائه

يعبّر اللّه تعالى في القرآن الكريم عن الذكر تعبيراً لطيفاً فيقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٢]. إنّ هذا التعبير قابل لتحليلات شتّى بحسب الرؤى المختلفة، والمراتب المتفاوتة من المعرفة.

بالطبع، إنّ اللّه عزّ وجلّ ليس بغافل عن أيّ أحد، أو أيّ شيء، في أيّ حال من الأحوال؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣]. كما أنّه جلّ وعلا لا ينسى أيّ شيء أيضاً؛ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[٤]. كذلك فإنّ علم اللّه محيط بالماضي، والحاضر، والمستقبل بشكل متساو ولا يخفى عليه شيء على الإطلاق؛ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[٥].

من هنا يصبح معلوماً أنّ المراد من الذكر في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي

(١) بحار الأنوار، ج٢٤، الباب ٣٧، ص١٠٦، الحديث ١٥.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٢.
(٣) سورة هود، الآية ١٢٣.
(٤) سورة مريم، الآية ٦٤.
(٥) سورة يونس، الآية ٦١.

أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ هو ذكر آخر. حيث يُقصد به النظرة الخاصّة التي ينظر اللّه بها لأوليائه، وليس ذكر اللّه العامّ الذي يذكر به كلّ الخليقة.

يقول بعض المفسّرين في تفسير هذه الآية: إنّ اللّه يقصد بهذا الكلام: «أذكروني بصالح أعمالكم من أجل أن أذكركم بالرحمة وصالح الجزاء». هذا فهم معيّن للآية وهو لا يُظهِر من الحقيقة إلاّ النزر اليسير. بينما الآية قد تكون مشيرة إلى بحث أدقّ وألطف؛ فالذين عرفوا طعم المحبّة، وذاقوا حلاوتها يرغبون في أن يلتفت محبوبهم إليهم باستمرار. فإن حضروا، مثلاً، في مجلس حضر فيه معشوقهم، ودّوا لو أنّه يوليهم اهتماماً بين الحين والآخر، ولو بنظرة خاطفة بطرف عينه. فمقدار لذّة المحبّ الصادق بهذه النظرة من محبوبه يفوق جميع اللذائذ المادّية ويسمو عليها. واللّه سبحانه وتعالى له من هذه الإشارات بخصوص أوليائه الكثير.

على أساس من ذلك، يقول الباري تعالى: إن أردتم أن أُلاحظكم ملاحظة (خاصّة)، وأن (أنظر إليكم بطرف عيني) فاذكروني أنتم أيضاً؛

إذا لم ترُمْ قطعَ الحبيبِ وصالَهُ فحافظْ على وصلِ الحبيبِ يُحافِظِ[1]

من أجل ذلك، فإنّ الأشخاص الذين ذاقوا ذرّة من حلاوة محبّة اللّه عزّ وجلّ، لا تغفل قلوبهم ولا لحظة عن ذكره. إنّ أمثال هؤلاء

---

(١) في إشارة إلى بيت شعر بالفارسيّة:
گرت هواست كه معشوق نگسلد پيوند نگاه دار سر رشته تا نگهدارد

متوجّهون إلى اللّه حتّى في رقادهم، وأوّل ما يجري على ألسنتهم عند انتباههم من نومهم هو ذكر اللّه. يقول بعض العظماء: إنّ الإنسان يصل، بفعل التمرين والريّاضة، إلى درجة أنّ ذكر اللّه ليس فقط لا يفارقه في خلواته، بل يظلّ قلبه ذاكراً للّه حتّى في أثناء ممارسته لأعماله، ومتابعة شؤون معيشته، ومعاشرة الناس. حتّى أنّه من الممكن أن يستمرّ التوجّه للّه في حال النوم، بل وقد تطرأ على الإنسان حالات من التوجّه أشدّ أثناء الرقاد. ولعلّ قولهم: «نوم المؤمن عبادة» راجع إلى هذا.

بناءً على ذلك، فإنّ ذكر اللّه يوجب نظراً خاصّاً من اللّه إلى ذاكره. كان المرحوم العلاّمة[١] في أواخر عمره الشريف تُطلب منه النصيحة، وفي كثير من المرّات، عندما كان يُكرَّر طلب النصيحة عليه، كان يتلو هذه الآية: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

إنّنا لا ندرك أهميّة وقيمة نظر اللّه إلى العبد بشكل كامل إلاّ عندما نفهم أنّ أشدّ حسرات الكفّار يوم القيامة هي عدم نظر اللّه إليهم. فعندما يريد اللّه أن يبيّن مدى شدّة عذاب الكفّار يوم القيامة، وعمق حسرتهم يقول: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾[٢]. فهذا هو أشدّ صنوف العذاب بالنسبة لهم وأكثرها إيلاماً. على الرغم من أنّنا الآن لا نستوعب مدى عمق الألم والعذاب الكامن في عدم نظر اللّه إلى العبد، لكن في الآخرة، عندما تُرفَع الحجب، ستتجلّى أهميّة هذه المسألة على نحو يدركه حتّى الكافر.

(١) إشارة إلى العلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ رحمه الله.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٧٧.

ذكر الله في كلّ حال

نختم حديثنا بالرواية التي تبيّن أنّ ذكر اللّه في كلّ حال مستحسن. لمّا كان للإنسان بُعد مادّي وحيوانيّ أيضاً، فهو مُجبَر في بعض الأحيان على ممارسة أعمال تتعلّق بهذا البعد من شخصيّته. ويتخيّل الإنسان ابتداءً أنّ ذكر اللّه أثناء ممارسته لمثل هذه الأمور غير مرغوب فيه. إلاّ أنّ اللّه تعالى يأمر بعدم الغفلة عن ذكره حتّى في مثل تلك الحالات.

رُويَت عن المعصومين عليهم السلام في هذا السياق - وهو أنّ العبد لا ينبغي أن يغفل عن ذكر ربّه في أيّ حال من الأحوال - أحاديث حول الكثير من الأحوال الآدميّة، بل ولْنَقُل لجميعها، وغالباً ما كان الأئمّة أنفسهم يطبّقونها.

روي عن حالات رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لا يجلس ولا يقوم إلاّ على ذكر اللّه جلّ اسمه**»[١]. وقد رُويَت حتّى الأذكار التي كان يقرأها صلى الله عليه وآله وسلم في قيامه وقعوده. فكان لا يرتدي لباساً جديداً إلاّ وتلا ذكراً خاصّاً. وكذا عند النوم، كان يقرأ ذكراً خاصّاً، وأحياناً يتلو آية الكرسيّ. وعند الاستيقاظ كان يسجد للّه شكراً؛ فعن الباقر عليه السلام أنّه قال: «**ما استيقظ رسول اللّه من نوم إلاّ خرّ للّه ساجداً**»[٢]. كما كان يقرأ بعد الاستيقاظ: «**الحمد للّه الذي أحياني بعد موتي ...**»[٣]، وغيرها الكثير ممّا روي عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

(١) مكارم الأخلاق (للطبرسي)، ص١٤.
(٢) مكارم الأخلاق، ص ٣٩.
(٣) مكارم الأخلاق، ص ٣٩.

ويُستشَفّ من ذلك أنّ على المؤمن أن يكون ذاكراً للّه دائماً، وفي كلّ حال، وأن يبدأ بكلّ عمل من أعماله بذكره عزّ وجلّ.

عندما أوحى اللّه في ما أوحاه لموسى بن عمران عليه السلام بأن «**لا تنسني على كلّ حال**»[١]، سأل موسى عليه السلام ربّه فقال: «**إلهي إنّه يأتي عليّ مجالسٌ أعزُّكَ وأُجِلُّكَ أن أذكرك فيها. فقال: ياموسى إنّ ذكري حسن على كلّ حال**»[٢].

وحسب الرؤية القرآنيّة أيضاً فإنّه لا ينبغي أن يشكّل أيّ شيء عائقاً أمام توجّه المؤمن للّه تعالى. فقد جاء في آي الذكر الحكيم في أوصاف الصادقين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٣]. فمع أنّهم في الظاهر منهمكون في الكسب، والعمل، ومعاشرة الناس، إلاّ أنّ التفاتهم دائماً إلى اللّه، وليس لأيّ شيء أن يشغلهم عنه سبحانه. وقد وصف اللّه مثل هؤلاء المؤمنين في خطابه لنبيّه في ليلة المعراج فقال: «**ثمّ يُقالُ لها** (للروح): **كيف تركت الدنيا. فتقول: إلهي وعزّتك وجلالك، لا علم لي بالدنيا؛ أنا منذ خلقتني خائفة منك. فيقول اللّه تعالى: صدقتَ عبدي؛ كنتَ بجسدك في الدنيا، وروحُك معي**»[٤].

الأُنس باللّه لذّة الأولياء

أجل، فإن التفت المؤمنون الحقيقيّون إلى الدنيا فإنّ التفاتهم سطحيّ ومن باب الاضطرار، وإلاّ فإنّ أعماق قلوبهم متوجّهة للّه جلّ

(١) بحار الأنوار، ج١٣، الباب ١١، ص٣٤٤، الحديث ٢٤.
(٢) بحار الأنوار، ج١٣، الباب ١١، ص٣٤٣، الحديث ٢١.
(٣) سورة النور، الآية ٣٧.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٤، الباب ٢، ص٢٧، الحديث ٦.

اسمه. فإذا التفتوا أحياناً إلى النعم الدنيويّة فلأنّها هديّة المحبوب؛ فالعاشق الذي تصله ريحانة أو فاكهة من يد معشوقه تكون بالنسبة له أثمن من العالم بأسره.

أولياء اللّه ليسوا فقط منشغلين عن اللذّات المادّية في الدنيا، بل إنّهم في الآخرة عندما يتنعّم المؤمنون ذوو الدرجات الوسطى بالنعم الإلهيّة فإنّ هؤلاء يخلون بإلههم. يقول اللّه عزّ وجلّ في حديث المعراج: «**وإذا تلذّذ أهل الجنَّة بالطعام والشراب، تلذّذوا بكلامي وذكري وحديثي**»[١]. فعلى الرغم من أنّ طعام وشراب الجنّة أكثر قيمة بكثير من أطعمة وأشربة الدنيا، ولا سبيل إلى مقارنته بها إطلاقاً، وإنّ أصحاب الهمم العالية غضّوا الطرف عن اللذّات الدنيويّة المحرّمة كي يتنعّموا بأطعمة وأشربة الجنّة تلك، إلاّ أنّ أولئك الذين تذوّقوا حلاوة ذكر اللّه والأُنس معه لن يلتفتوا حتّى لذلك الطعام والشراب الفردوسيّ؛

هات الحبيب ودَعْ كلّ الجنان وما تحويه من نَهَر بالخمرِ والعسلِ[٢]

أمثال هؤلاء المؤمنين حتّى عندما يتلذّذون أحياناً بغير الأُنس باللّه فهم يستغفرونه. يقول الإمام السجّاد عليه السلام في مناجاته مع اللّه: «**وأستغفرك من كلّ لذّة بغير ذكرك، ومن كلّ راحة بغير أُنسك، ومن كلّ سرور بغير قربك**»[٣].

فما الذي وجد هؤلاء في ذكر اللّه كي يصلوا إلى تلك الحالة

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، الباب ٢، ص٢٣، الحديث ٦.
(٢) في إشارة إلى مثل بالفارسيّة: «دوست ما را و همه نعمت فردوس شما را».
(٣) مفاتيح الجنان، مناجاة خمس عشرة، المناجاة الثالثة عشرة.

من عدم الاكتراث باللذّات الأخرى؟ يمكن العثور على إجابة لهذا السؤال في الآية الكريمة: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾. كما ويظهر ذلك بوضوح أكثر في حديث المعراج حيث يقول الباري تعالى: «**أنظُرُ إليهم كلّ يوم سبعين مرّة**»[1]. فهذا في الواقع هو ذات الشيء الذي وجده هؤلاء في ذكر اللّه؛ ألا وهو نظر المحبوب إليهم. رزقنا اللّه وإيّاكم ذلك إن شاء.

اللهمّ اجعل لساننا بذكرك لهجاً، وقلبنا بحبّك متيّماً، ومنّ علينا بحسن إجابتك.

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، الباب ٢، ص٢٣، الحديث ٦.

(٦)

«يٰامَوْلاٰيَ بِذِكْرِكَ عٰاشَ قَلْبِي، وَبِمُنٰاجاتِكَ بَرَّدْتُ أَلَمَ الخَوْفِ عَنِّي»

بعض خواصّ القلب

حَظِيَ «ذكر اللّه» في الآيات القرآنيّة الشريفة، وكلمات الأئمّة الأطهار عليهم السلام باهتمام وتأكيد بالغين، حيث طُرح على أنّه الكيمياء التي تُضفي على حياة الإنسان المحدودة والمؤقّتة قيمة غير متناهيّة، وتنوّر قلبه من أجل تقبّل الحقائق.

فمن خصوصيّات القلب السليم الطاهر هي إمكانيّة أن يكون مرآة تعكس تمام الحقائق. فما دام قلب المرء في حالته الفطريّة الطبيعيّة، ولم يُصَب بالصدأ نتيجة الذنوب والتعلّق الشديد بالدنيا، انعكست الحقائق فيه. لكنّه إذا ما خرج عن حالته الفطريّة، فلن يعود بإمكانه إدراك الحقائق كما يجب، وليس من جلاء لهذا القلب غير «ذكر اللّه». يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**إنّ اللّه سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوَقْرَة، وتُبصِر به بعد العَشْوَة**»[١].

تُستخدم كلمة «الجلاء» عندما يعاني الشيء من الكدورة والصدأ ويحتاج إلى إزالة ما ران عليه من الصدأ والخبائث، ليُصقَل ويصبح

(١) نهج البلاغة (د. صبحي الصالح)، الخطبة ٢٢٢.

لامعاً؛ كما في حالة المعدن الذي يصدأ لملامسته الهواء، وعند إزالة ما عليه من صدأ يصير لامعاً وبرّاقاً.

وكذا قلب الآدميّ فهو يصدأ لعوامل مختلفة. روي عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: «**إنّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**». قيل: يا رسول اللّه وما جلاؤها؟ قال: «**قراءة القرآن، وذكر الموت**»[(١)].

في الحديث السابق يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّ للقلب عيناً وأذناً، وإنّ العمى والصمم يصيبانه لعوامل شتّى، فلا يعود يدرك الحقائق بشكل سليم؛ أي إنّ مرآة القلب تعاني من الكدورة فلا تعكس الحقائق. يقدّم عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر اللّه كعلاج لذلك، فيقول: إنّ العين العمياء تصبح باصرة، والأذن الصمّاء تصير سامعة نتيجة للذكر، وحينها سيشاهد المرء الحقائق التي كان عاجزاً عن إدراكها. ثمّ يقول بعد ذلك: «**يَتَنَسَّمون بدعائه روح التجاوز**»؛ وكأنّ للقلب شامّة وهي تنعدم أيضاً بسبب تلك العوامل نفسها فيأتي ذكر اللّه ليعيدها إلى العمل ويقوّيها؛ لذا فهو يقول: إن ذاكري اللّه يتنشّقون نسيم رحمة اللّه.

من هنا نعلم أنّ عين قلبنا وحواسّه مختلّة، وهو الأمر الذي يجعله لا يحسّ بالكثير مّما يحسّه أولياء اللّه. فلو كان فيه ذرّة من الإحساس، لأحسّ بثقل الآثام والذنوب. فأولياء اللّه يعلمون بما يؤدّي إليه الذنب الواحد من العواقب، ويشعرون بمقدار ثقله، فيصابون بالجزع وترتعد فرائصهم لذلك.

عندما تزداد معاصي المرء - وتصبح المعصية اثنتين، وثلاثة،

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٢، الباب ١٧، ص١٠٤، الحديث ١٥٤٨.

و... وألفاً ـ يلتفت فجأة فيشاهد أنّه ينوء بحمل شاحنة أحجار، بل وأثقل من ذلك. فإن أحسّ بها، صَرَخ من فوره بلا شعور، إذ لا طاقة له بحملها. إنّنا إذ لا نرفع أصواتنا بالصراخ والعويل فلأنّنا لا نعلم ولا ندرك، فحواسّ قلوبنا معطّلة، ولا تحسّ شيئاً، وشامّة قلوبنا مختلّة لا تشمّ الرائحة النتنة للذنوب، ولو كانت حسّاسة لشمّت رائحة جيفة نتنة. إنّنا نأكل الجيَف [أحياناً] من دون أن نشعر برائحتها العفنة؛ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1]. ولا يقتصر الأمر على أنّنا لا نشعر بالرائحة المتعفّنة من جرّاء الغيبة، بل نحن نتلذّذ بذلك. ومن هنا يُعلَم أنّ شامّة قلوبنا ضعيفة.

أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إنّ من كان ذكر اللّه شغلهم الشاغل، يشمّون نسيم رحمة الباري عزّ وجلّ. نسيم الرحمة الإلهيّة له رائحة عطرة إلاّ أنّنا لا نشعر بها ولا نعرفها، لضعف شامّة قلوبنا.

من الجليّ أنّ المقصود من ذكر اللّه هنا ليس لقلقة اللسان، ذلك أنّ مجرّد تلفّظ الألفاظ باللسان من دون أن تجد طريقها إلى القلب هو أمر يسير حتّى على المنافق والكافر. فلا فائدة من أداء اللفظ فحسب، وإنّ المناط والمحور هو شيء آخر غير اللسان، وحقيقته القلب. فالذكر هو ما ينفذ إلى القلب وينوّره.

بالطبع، على الرغم من أنّ حقيقة الذكر هو التوجّه القلبيّ، إلاّ أنّ الأذكار اللسانيّة لا تخلو من الفائدة والأثر، وهي أفضل من الكثير من اللغو والكلام الفارغ. كان لسان أئمّة الهدى عليهم السلام دائم الذكر إلاّ في الأوقات التي كانوا ينشغلون فيها بالحديث مع الأصحاب، والإجابة

(١) سورة الحجرات، الآية ١٢.

على أسئلتهم. عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام: «**كان أبي... وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلاّ اللّه**»[١].

فالقلب يشبه البحر من حيث تأثير الذكر فيه. فتارة يكون الذكر أشبه بحصيّة صغيرة تسقط في البحر فتحدث أمواجاً سطحيّة طفيفة سرعان ما تتلاشى، كما هو حال الكثير من الأذكار والعبادات التي نمارسها نحن؛ فتأثيرها لا يعدو أن يكون موجة سطحيّة، أما أعماق القلب فهي في عالم آخر. فالألفاظ تجري على ألسنتنا، غير أنّ خيالنا يجول بين الآلاف من المواقع والأمكنة ولا ننتبه إلاّ بعد انتهاء العمل العباديّ. وتارة أخرى يكون الذكر كإعصار مهول، يقلب القلب رأساً على عقب، ويُحدِث فيه أثراً مستمرّاً. إذن، من خصائص القلب الطاهر السليم هو قدرته على إدراك الحقائق على نحو دقيق.

ومن الخصائص الأخرى للقلب الآدميّ هي استعداده لأن يكون ممرّاً ومحطّاً لكلّ شيء. فإن أطلق المرء لقلبه العنان صار بإمكانه التعلّق كلّ لحظة بشخص أو شيء ما، وأصبح كسوق الخضار ليس للإنسان نفسه اطّلاع على ما يجري فيه. يكفي أن يتأمّل المرء في نفسه لدقائق ويسجّل كلّ ما يخطر في قلبه من خواطر، عندها سيكتشف أيّ جَلَبَة تحدث في قلبه بحيث لا يعلم هو نفسه شيئاً عنها. أحياناً، وفي غضون عبادة مختصرة (كصلاة ركعتين)، تشغل المرءَ أفكارٌ شتّى، وتشَرِّق به وتغَرِّب، حتّى إذا التفت إلى نفسه دُهِش ممّا هو فيه. ولا يقتصر هذا على حالة اليقظة، بل إنّ هذه الأفكار تعصف في قلب الإنسان حتّى في منامه فتظهر في صورة رؤياً.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، الباب ٦، ص٢٩٧، الحديث ٢٩.

قيمة القلب

إنّ قيمة القلب بما أُودع فيه؛ أو بعبارة أخرى، إنّ القلب يكتسب قيمته من الشيء الذي تعلّق به القلب نفسه. لذا، تراه تارة يسقط ويتسافل ويفقد قيمته إلى حدّ يصير فيه «إسطبلاً» أو ما هو أدنى من ذلك. وتارة يسمو ويرتفع حتّى يصبح «عرش الرحمٰن»؛ «**قلب المؤمن عرش الرحمن**»[1]، وهذا باختيار الإنسان نفسه. فالشخص المشتغل الذهن دائماً بماله وأملاكه ومواشيه ومزرعته، ولا ينفكّ يفكّر بها، ألا يصير قلبه «حضيرة للمواشي» ليس غير؟ أو المرء المشتغل البال دائماً بالأرض والعقار والمنزل الفلانيّ والبيع والشراء، والاحتيال على الناس، وما إلى ذلك، ألا يتحوّل قلبه إلى «مكتب سمسَرة»؟ أو إذا كان الإنسان دائم التفكير بهذه السيارة وتلك، وهذا الموديل وذاك، أيكون كلامنا جزافاً إن وصفناه بـ «موقف سيّارات»؟

أمّا - في المقابل - فإنّ بالإمكان أن يُودَع القلب لدى من يكون عنده مصداقاً لـ «**قلب المؤمن عرش الرحمن**». فإن احتلّ اللّه موضعاً من قلب المرء، وإن أُودع القلب لديه جلّت أسماؤه، أو بتعبير مولى الموحّدين عليّ عليه السلام: «**يَقطَعُون به أيّام الحياة**»[2]، فسوف يقضي الإنسان عمره في ذكره سبحانه، ومثل هذا القلب سيكون مستقَرّ عظمة اللّه وعرشه. نفهم من هذا، أنّ ذكر اللّه يمكن أن يرتقي بالقلب إلى هذا الحدّ ويصيّره ذا قيمة.

بناءً على ما مرّ، فإن تركتَ القلب وشأنه لتحوّل إلى ما يشبه منزل

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٥، الباب ٤، ص٣٩، الحديث ٦١.

(٢) نهج البلاغة (د.صبحي الصالح)، الخطبة ٢٢٢.

القوافل؛ لا بوابة له، ترتاده القوافل من أطراف الأرض وأكنافها، وقد يكون الشخص نفسه في غيب عمّا يجري فيه. لكن إذا جعل الإنسان قلبه تحت تصرّفه فسيكتشف حينها أيّ جوهرة نفيسة لديه، وكم لديه من الاستعداد للنموّ والتكامل؛ تماماً مثل الألماسة النفيسة المخبّأة في طبقات الأرض التي تحتاج إلى خبير جواهر حاذق كي يستخرجها من جوف الأرض ويثمّنها.

إنّ خبراء جواهر هذا الوادي هم الأنبياء والأولياء المعصومون عليهم السلام. فخبير ألماس القلب عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي يقول: «اجلوا قلوبكم بذكر اللّه كي تظهر حقائقها»[1]. وخبير الجواهر الحقيقيّ هو الإمام السجّاد عليه السلام، هذا البحر اللجّي، حيث يقول: «إنّ حياة القلب وعيشه بذكر اللّه»[2]. فإن خلا القلب من ذكر اللّه فسيحلّ محلّه شيء آخر، وقيمة القلب بما تعلّق به.

على أيّة حال، فإن لذكر اللّه آثاراً جمّة لا مجال لطرحها هنا، إلاّ أنّ من أهمّ آثاره، التي يشير الإمام زين العابدين عليه السلام إليها هنا هي «حياة القلب».

الحياة المعنويّة للإنسان

الحياة لها مراتب؛ إحداها ما ننسبه إلى النباتات في مقابل الجمادات، فنقسّم النبات، على أساس ذلك، إلى «حيّ» و«مَيْت» (أي ذابل). فللنبات نوع من أنواع الحياة التي من آثارها النموّ والتكاثر. هذه المرتبة من الحياة

(١) في إشارة إلى الحديث: «**إن اللّه سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب ...**».

(٢) في إشارة إلى مقطع الدعاء مورد البحث: «**بذكرك عاش قلبي ....**».

تدعى الحياة «النباتيّة». المرتبة الأعلى منها هي الحياة «الحيوانيّة» التي من لوازمها، علاوة على النموّ، شكل من أشكال التحرّك والإدراك. فالموجود الذي لديه هذه الآثار يتمتّع بحياة حيوانيّة.

والإنسان عنده كلا النوعين من الحياة؛ النباتيّة والحيوانيّة. فهو، علاوة على صفة النموّ فيه، له قابليّة الإدراك، والشعور والحركة، لكن بمستوى أعلى وأوسع من الحيوان والنبات طبعاً. لذا فالإنسان يشترك مع النبات والحيوان في هذا الجانب.

ونحن لا نفهم عادة معنى للحياة والعيش سوى هذا المعنى. فلازم الحياة النباتيّة التغذية والنموّ، كما أنّ لازم الحياة الحيوانيّة الإدراك والحركات الإراديّة. فإن لمسنا مثل هذه الآثار في شخص ما، نعتناه بالحيّ، وإلاّ قلنا عنه إنّه مَيْت.

لكنّه، ووفقاً للمستفاد من القرآن الكريم وأخبار أهل البيت عليهم السلام، فإنّ للإنسان قابليّة الظفر بحياة أسمى من تلكم الحياة النباتيّة والحيوانيّة، ألا وهي الحياة «المعنويّة»، التي تستلزم أموراً لو فقدها الإنسان لما نال حقيقة الإنسانيّة، على الرغم من اعتباره حيّاً وفق مقاييس الحياة الحيوانيّة. إنّ الميزان المعتبر لدينا للتمييز بين حياة الإنسان وعدمها هو عادةً الميزان المعتبر للحياة الحيوانيّة، وليس الإنسانيّة. فتناول الطعام، والتنفّس، والإدراك الحسّي، والحركة، وأمثال ذلك هي من لوازم الحياة النباتيّة والحيوانيّة، أمّا الحياة الإنسانيّة فهي شيء مختلف. يقول عزّ من قائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[1].

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

يُستشَفّ من هذه الآية أنّ الإنسان بإمكانه نيل شكل من أشكال الحياة يكون من لوازمها حصول النورانيّة لديه. ونتيجة لذلك، إن امتلك الإنسان النورانيّة فهو حيّ، وإن حُرِم منها فهو إنسان ميْت حتّى وإن تمتع بالحياة النباتيّة والحيوانيّة؛ «**فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يَعرِفُ باب الهدى فيتَّبِعه، ولا باب العمى فيَصُدَّ عنه. وذلك مَيِّت الأحيَاء**»(١).

في هذه الجملة من دعاء أبي حمزة: «**بذكرك عاش قلبي**» يشير الإمام السجّاد عليه السلام إلى هذه الحياة الأفضل التي قوامها ذكر اللّه، بالضبط كما تقوم الحياة النباتيّة بالنموّ، والحيوانيّة بالشعور والإدراك وأمثالهما. فمثلما أنّ الإنسان يموت خلال فترة وجيزة إذا لم يصله الأوكسجين، فإنّ قلب المؤمن يفقد الحياة إذا غفل عن ذكر اللّه، وانغمس في المادّيات.

وكما سبقت الإشارة إليه، فإنّ الحياة التي نعرفها نحن تنحصر عادة بالحياة النباتيّة والحيوانيّة التي لكلّ منهما آثارها ولوازمها، إلاّ أنّ المستفاد من كتاب اللّه عزّ وجلّ، وكلمات أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، وما تؤيّده الشواهد العقليّة، هو أنّ هناك أشكالاً أخرى من الحياة ممّا ليس باستطاعتنا إدراك كمّه وكيفه بعقولنا القاصرة.

إحدى مراتب الحياة هي الحياة الإيمانيّة، ولعلّ بمقدورنا الادّعاء أنّها هي الحياة الحقيقيّة للإنسان. فطبقاً لما ورد في الخبر، فإنّ للمؤمن روحاً يُقال لها «روح الإيمان» تشكّل منشأ الحياة له. فطالما

(١) نهج البلاغة (د. صبحي الصالح)، الخطبة ٨٧.

تجنّب المؤمن ارتكاب المعصية، فهو يتمتّع بحياة مختلفة في ظلّ تلك الروح، وبمجرّد أن يصدر منه الذنب، فإنّ تلك الروح تنفصل عنه، لكنّها سرعان ما تعود مجدّداً إليه بعد الإنابة إلى اللّه، والتوبة إليه.

وعدا «روح الإيمان» هناك أصناف أخرى من الأرواح تختصّ بأنبياء اللّه وأوليائه؛ مثل «روح القدس» التي توجد عند النبيّ الأكرم ﷺ والأئمّة الهداة عليهم السلام.

على أيّة حال، فهناك أشياء أخرى، غير ما نشاهده نحن وما ندركه بإدراكاتنا الحيوانيّة، قد اَطلَع اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ، والعترة الطاهرة عليهم السلام عليها. فإن قبلنا باللّه ورسوله ﷺ وجب علينا الاعتقاد بتلك الأمور.

إنّ قيمة تلك الأشكال من الحياة لا يمكن مقارنتها إطلاقاً بما نعرفه نحن من أنواع الحياة النباتيّة والحيوانيّة. فقط أولئك الذين يتنعّمون بهذا النوع من الحياة هم الذين يعرفون قدرها وقيمتها.

تفاوتِ مراتب الحياة

عندما نقارن نباتاً حيّاً يتنفّس وينمو مع آخر فقد الحياة وذبل، نلاحظ أنّ الفرق بين هذين الاثنين قليل وبسيط. لكن إذا ما قارنّا حيواناً حيّاً مع آخر ميْت، نجد أنّ الفرق بينهما ملحوظ. وهذا التفاوت يكون كبيراً بين الإنسان الحيّ والميْت.

وللحياة (المادّية) قيمة كبرى (على الأقلّ بالنسبة للفرد ذاته)

إلى درجة أنّه لو كان يملك المليارات، لكان مستعدّاً لإنفاقها كلّها في سبيل أن يطيل عمره لبرهة من الزمن؛ بل هو حاضر أن ينفق الملايين من أجل أن يُبقي على أحد أعضاء بدنه، مثل عينه أو أذنه أو ما شابههما، سالماً.

وهذا حاصل بسبب الاختلاف بين مراتب الحياة، وأفضليّة الحياة (المادّية) للإنسان بالنسبة لتلك التي للحيوان والنبات. فالإنسان يتخلّى عن كلّ مادّياته وممتلكاته من أجل أن تدوم حياته المادّية مدّة أطول. وعين هذا التفاوت، بل وبدرجة أشدّ، يُشاهَد بين حياة الإنسان المادّية والمعنويّة. فالحياة المعنويّة للإنسان أسمى وأفضل بكثير من حياته المادّية، بل لا مجال للمقارنة بينهما أساساً. فأولئك الذين وقفوا على قيمة الحياة المعنويّة، وذاقوا حلاوتها، مستعدّون لأن يضحّوا بالدنيا وما فيها في سبيل لحظة يقضونها في ذكر اللّه.

كيف يتسنّى لنا يا ترى إدراك هذه القيمة؟ كم هي الفاصلة التي تفصلنا عن هؤلاء ونحن لا نستطيع - إلاّ بشقّ الأنفس - أن نهيّئ أنفسنا لبضع دقائق في اليوم والليلة لذكر أو صلاة، ومن ثمّ نمنّ على اللّه أيضاً إن فعلنا ذلك!؟

كم هم المحرومون من هذه الحياة الإنسانيّة، بل إنّ إفهام هؤلاء مثل هذه الأمور أمر مُشكِل للغاية. ما هو السبيل إلى إفهام إنسان غافل، لا يعرف من حياته إلاّ ميوله وغرائزه، أنّ حياة الإنسان غير مقتصرة على الحياة النباتيّة والحيوانيّة؟ بأيّ وسيلة يجب أن يُوضَّح لهؤلاء أنّ إنسانيّة الإنسان لا تتلخّص بالأكل، والنوم، والتمتّع

باللذّات المادّية والحيوانيّة؟ يقول عزّ من قائل في وصف هؤلاء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾(١).

فكما أنّ النباتات لا تعرف شيئاً عن حياة الحيوانات ولا تدرك مشاعرها، وأنّ الحيوانات أيضاً لا اطّلاع لها على خصوصيّات حياة البشر - إذ لا يمكن إطلاقاً إفهام الحيوان أيّ لذّة يشعر بها المرء عند مشاهدته أثراً فنّياً جميلاً، وأيّ متعة تغمر الإنسان عند التفكير والاكتشاف والاختراع، ففكر الحيوان وإدراكه منحصر فيما يتّصل بحياته الحيوانيّة - فنحن نشكو نفس الحالة بالنسبة للحياة الإنسانيّة الأسمى والأفضل. فعلى الرغم من أنّ أولياء اللّه يقولون: إنّ ذكر اللّه له من اللذّة كذا وكذا، ولا توازيها أيّ لذّة مادّية على الإطلاق، وإنّ بإمكان الإنسان أن يعيش حياة لا يمكن أن تُقارَن بحياته الحيوانيّة، وإنّ جوهر الإنسان هو غير الأكل والنوم والشهوة، وإنّ هذه الأمور، في مقابل تلك اللذّة الروحيّة والحياة المثلى، لا تعدو أن تكون لعبة يلهو بها الطفل، فإنّ الشخص البعيد عن هذا الوادي ليس بمقدوره أن يدركها، بل قد يتّخذها هزواً!

فلمّا كان اللّه قد هدانا لهذا، وأصبحنا نعلم أنّ مثل تلك الأمور لها واقع، فلا ينبغي أن نمرّ عليها مرور الكرام. ولنعلم أنّ أئمّتنا الأطهار عليهم السلام وعظماء ديننا قد نقلوا لنا هذه الأمور من العالم الآخر من أجل جذب قلوبنا إليها، فنسعى للحصول عليها. فلنعلم أيضاً أنّ مثل هذه الأشياء لها وجود وواقع، ولا ينبغي أن نتصوّر أنّ اللذّات تقتصر على المتع المادّية والأكل والنوم. فإنّ تلك اللذائذ

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

من آثار الإنسان الحيوانيّة، وليست من لوازم إنسانيّته وكماله؛ أي لا تمثّل كمال إنسانيّته، فكمال إنسانيّة الإنسان يسمو، غاية السموّ، عن اللذائذ الحيوانيّة.

نسأل اللّه تعالى أن يُنعم علينا - نحن الذين ندّعي الإيمان باللّه، والإسلام، والنبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام - بتلك الحياة واللذّات المعنويّة.

«اللهمّ اشغَلنا بذكرك، وأعِذنا من سَخَطِك، وأجِرنا من عذابك، وارزُقنا من مواهبك، وأنْعِم علينا من فضلك».

(٧)

«يٰا مَوْلاٰي بِذِكْرِكَ عٰاشَ قَلْبِي، وَبِمُنٰاجٰاتِكَ بَرَّدْتُ أَلَمَ الخَوْفِ عَنِّي»

تعرّضنا في الفصل السابق إلى موضوع الذكر وبعض آثاره. ومن جملة آثاره المهمّة التي ينبّه عليها الإمام زين العابدين عليه السلام هي «الحياة المعنويّة للإنسان» التي تصبح من نصيب المرء في ظلّ ذكر اللّه.

فكما كان للحياة النباتيّة والحيوانيّة آثار ولوازم، فإنّ الحياة المعنويّة لها آثار ولوازم أيضاً. وكما أنّ بقاء الحياة النباتيّة والحيوانيّة يتطلّب التغذية المناسبة، فإنّ هذا النوع من الحياة (المعنويّة) أيضاً يلزمه تغذية خاصّة به؛ ألا وهي «ذكر اللّه».

مراتب الذكر

ذكرنا مسبقاً أنّ القلب الآدميّ أشبه بالبحر، وأنّ للذكر أثراً فيه. فأحياناً يكون الذكر كالحصى الصغيرة؛ لا تثير في البحر إلاّ أمواجاً سطحيّة عابرة عند سقوطها فيه وسرعان ما تضمحلّ وتتلاشى، كما هو حال معظم ما نمارسه من أذكار وعبادات؛ إذ أنّ الأمواج التي تثيرها في القلب سطحيّة ومؤقّتة في حين تبقى أعماق القلب في واد آخر؛ فالألفاظ تجري على ألسنتنا، لكنّنا نفكّر في ألف أمر وأمر، حتّى إذا انتبهنا إلى أنفسنا اكتشفنا أنّ العبادة شارفت على الانتهاء.

وأحياناً أخرى يكون أثر الذكر في قلوبنا أشبه بإعصار عاتٍ، يُحدِث فيه انقلاباً كاملاً، وأثراً مستمرّاً. إذن من هذه الناحية، لا يتساوى جميع الناس في مجال الذكر.

وفي مضمار ذكر اللّه والالتفات إليه فإنّ لمختلف الناس حالات متفاوتة، بحيث يمكن تقسيمهم على هذا الأساس إلى طوائف. فأهل الطائفة الأولى ليس فقط لا يجنون أيّ لذّة من الذكر، بل إنّ قلوبهم لتنفر وصدورهم لتضيق من ذكر اللّه. يقول القرآن الكريم في هؤلاء: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾(١).

الطائفة الثانية هم أولئك الأشخاص الذين لا يشعرون بالحاجة إلى اللّه إلاّ عندما تدور عليهم الدوائر، وتنزل بهم النوازل، ولا يهتدون إلى رفعها من خلال الأسباب العاديّة سبيلاً، أو تقصر أياديهم عن تلك الأسباب، فيذكرون اللّه حينئذ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(٢).

وأمّا الطائفة **الثالثة** فأفرادها قلقون على مصيرهم يوم القيامة. فقد اقترفوا الآثام واجترحوا المعاصي في حياتهم ويرجون غفرانها. فتراهم يُقبلون على اللّه من أجل أن يغفر لهم ذنوبهم، أو يطلبون منه نِعَم الآخرة وثوابها، فيتوجّهون إلى اللّه بالذكر طلباً للحور، والقصور. فأفراد هذه الطائفة في الواقع إنّما يذكرون اللّه من أجل الخلاص من العذاب، ونيل النعم الأخرويّة. هذا النوع من ذكر اللّه والتوجّه إليه، وإن كان مطلوباً بحدّ ذاته لأنّه يحكي عن إيمان

---

(١) سورة الزمر، الآية ٤٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

المرء بربّه، إلاّ أنّ الإنسان فيه يكون - ابتداءً - متوجّهاً إلى حوائجه وطلباته، ومن ثمّ يكون متوجّهاً - عن هذا الطريق - إلى اللّه. ولعلّ أمثال هؤلاء يُعرضون عن ذكر اللّه والالتفات إليه فيما لو أُمِّنت حوائجهم بواسطة غير اللّه.

لكنّ المجموعة **الرابعة** هم أولئك الأشخاص الذين يشعرون بأمسّ الحاجة إلى ذكر اللّه، لا لأجل قضاء الحوائج الشخصيّة الآنفة الذكر، بل من باب الشعور بأنّ في ذكر اللّه ضالّتهم المفقودة، وإلى ذكر اللّه فحسب تسكن نفوسهم؛ أو بعبارة أخرى، إنّ للذكر بذاته «أصالة» لديهم، وليس هو وسيلة لتأمين الحوائج، وبتعبير سيّد الساجدين عليه السلام: هم يشعرون أنّ حياة قلوبهم بذكر اللّه عزّ وجلّ، وبدونه ينشأ عندهم إحساس بموت القلب.

إنّ قوام حياة ومعيشة هؤلاء هو ذكر الحقّ. فكما أنّه إذا مُنع شخص من التنفّس، فإنّه يهيج وتضطرب نفسه، وقد يشرف على الموت، فإنّ أمثال هؤلاء إذا حُرموا من ذكر الباري تعالى، فإنّهم يضطربون ويقلقون، لكن عندما يجد ذكر الإله طريقاً إلى قلوبهم، ينتابهم نوع خاصّ من السكينة واطمئنان البال. ويعبّر القرآن الكريم عن هؤلاء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[1]. فمثلما أنّ استنشاق الهواء السليم يبعث فينا الحياة ويعطيها الاستمراريّة، فإنّ ذكر اللّه بالنسبة لهؤلاء يبثّ الحياة في قلوبهم.

إنّ أمثال هؤلاء يفرّون من الغفلة عن ذكر اللّه كما نفرّ نحن من

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨.

الموت. فنحن نرى الموت في ذلك الموت الحيوانيّ والنباتيّ فحسب، في حين يرى أشخاص كهؤلاء الموت في الانشغال عن الذكر.

وبالرغم من أنّ هذه الحالة تُعدّ من المراتب العليا للذكر، وقيمتها تسمو بكثير على المراتب الأدنى منها، لكن لا زالت الـ «أنا» مطروحة فيها؛ فالمرء في هذه الحالة «يرغب» في أن يذكر اللّه، وهو يتلذّذ به. وفي الواقع، إنّ قلبه «هو» يسكن إلى الذكر ويطمئنّ به؛ وبعبارة أخرى، إنّ توجّه المرء إلى اللّه، حتّى في هذه الحالة، هو من أجل تأمين حاجة (بيد أنّها حاجة أسمى من الحوائج السابقة الذكر). فهو يتوجّه إلى اللّه من أجل قضاء تلك الحاجة، ونيل الطمأنينة. من أجل ذلك، فإنّه لا زال يعاني من إحدى مراتب حبّ الذات.

لكن، إذا سلك الإنسان طريق المعرفة في سيره نحو اللّه، فسوف يصل إلى مقام لا يعود ملتفتاً فيه إلى ذاته أو حاجته، بل يكون تمام توجّهه والتفاته إلى اللّه تبارك وتعالى، فينشغل عن نفسه وميوله على نحو لا يعود لحبّ الذات أصالة عنده، ولا تبقى سوى محبّة اللّه في قلبه. وعندها فإنّه بدلاً من أن يطلب المرءُ اللّهَ لنفسه، فهو يهب له نفسه، بل إنّه لا يعرف حينها معنىً للـ «أنا»، ولا يرى إلاّ اللّه:

وصل العبد مكاناً لا يرى فيه غير الواحد الحقّ الإلٰه[1]

يقول اللّه جلّ وعلا لرسوله ﷺ في ليلة المعراج عن صفات بعض عباده: «**إذا كُتب الناس من الغافلين كُتبوا من الذاكرين، في أوّل**

(١) في إشارة إلى بيت شعر بالفارسيّة:
رسـد آدمـی بـه جـایی كـه بـه جـز خـدا نبیند

النعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون... ولا يَشغلُهم عن اللّه شيء طرفة عين»؛ فإنّ بعض عبادي يصِلون إلى درجة يكون فيها ذكري وشكر آلائي شغلهم الشاغل ولا هَمّ لهم غيره. ثمّ يبيّن عزّ وجلّ له ما سيفعله بأمثال هؤلاء بقوله: «**فوعزّتي وجلالي لأحيِيَنَّهم حياة طيّبة ...**»[١] وفي مصدر آخر جاءت تتمّة الموضوع بهذه الصورة: «**ولأستَغرِقَنَّ عقلَه بمعرفتي، ولأقومَنّ له مقام عقله**»[٢].

هذه من جملة الحقائق التي وردت في الروايات، وإنّ الإدراك الحقيقيّ لهذه الحالات أمر صعب بالنسبة للكثير منّا. نسأل اللّه تعالى أن يتلطّف علينا بزيادة المعرفة، ويجعل مثل تلك الحالات من نصيبنا.

التعلّق بالدنيا مانع لذكر اللّه

إنّ ما يوجب غفلة الإنسان عن التفكير بالكمالات الإنسانيّة العليا هو التعلّق بالدنيا ولذّاتها. فطالما وُجدت تلك التعلّقات فنحن بعيدون عن هذه الأمور. يقول اللّه تبارك وتعالى لنبيّه ﷺ في ليلة المعراج: «**يا أحمد! لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض، وصام صيام أهل السماء والأرض، وطوَى عن الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العابدين، ثمّ أرى في قلبه من حُبّ الدنيا ذرّة، أو سمعتها، أو رئاستها، أو صيتها، أو زينتها، لا يجاورني في داري، ولأنزعنّ من قلبه محبّتي، ولأظلمنّ قلبه حتّى ينساني، ولا أذيقُه حلاوة محبّتي**»[٣].

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، الباب ٢، ص٢٤، الحديث ٦.

(٢) سرّ الإسراء في شرح حديث المعراج (للشيخ علي سعادت برور)، ج١، ص١٤١.

(٣) مستدرك الوسائل، ج١٢، الباب ٦١، ص٣٦، الحديث ١٣٤٤٦.

إنّ همّة أولياء اللّه من العلوّ بمكان بحيث أنّهم لا يعيرون أدنى اهتمام لما نأنس به نحن. بل إنّ نعم ولذّات الآخرة، التي يعدّ الظفر بها أقصى أمانينا، لا تمثّل بالنسبة لهؤلاء أيّ قيمة. إنّ همّة هؤلاء هي من العلوّ إلى درجة أنّهم يخاطبون اللّه قائلين: إلهي، إنّي أفضّل أن تلقي بي إلى النار مع بقاء محبّتك في قلبي ورضاك عنّي، على أن تدخلني الجنّة وأنت غير راض عنّي. فما لم تجد محبّة اللّه طريقها إلى قلب المرء فإنّه ليس بمقدوره أن يدّعي مثل هذا الادّعاء.

ومن أجل أن تنغرس محبّة اللّه في القلب، على المرء أن ينأى بنفسه عن التعلّقات الدنيويّة، ويفكّر في استدرار رضى اللّه. فالمؤمن منذ بدء نشاطه في الصباح الباكر يفكّر بعبادة ربّه، وما يريده منه. فإن تناول الطعام، أو اشتغل بالدرس، أو الكسب والعمل، أو كلّ عمل يمارسه - بشكل عامّ - فهو يقوم به طاعة لأمر اللّه، وطلباً لمرضاته. إنّ ذلك ممكن، غير أنّه يتطلّب إرادة صلبة، وهمّة عالية. فإذا انتهج الإنسان هذا النوع من الحياة، فلن ينقص من لذّاته ونعمه الدنيويّة شيء، ولا ممّا هو فيه من دعة وراحة، بل إنّ آلامه وهمومه ستتقلّص مقارنة بالآخرين. مثل هذا الشخص لن يتعلّق - والحال هذه - بالرئاسة، والثروة، وأمثال ذلك، ولن يغتمّ أو يهتمّ من جرّاء عدم الوصول إليها، وكلّ همّه وجهده يكون متعلّقاً باللّه وذكره.

إنّ المؤمن يرى نفسه عبداً للّه، وهو يعتقد بأنّ كلّ ما لديه فهو منه تعالى، ولا يملك هو شيئاً من نفسه؛ لا مال، ولا ولد، ولا مقام، ولا منزلة، ولا أيّ شيء آخر؛ إذ كلّ ما هو موجود فهو ملك له سبحانه. من هنا تراه مشتغلاً على الدوام في جلب رضى اللّه. هذا الإنسان هو

نموذج العبد الحقيقيّ للّه؛ فكلّ ما يقوله الباري يتقبّله من باب المِنّة، وهو يتغاضى عن المحرّمات، ويقوم بتكليفه على أتمّ وجه. فإن كان الأمر كذلك، أصبح العبد متنعّماً بالحياة الإنسانيّة الأفضل، وعاش الحياة الحقيقيّة.

كيفيّة تعاطي الإنسان مع النقائص والحاجات المادّية والمعنويّة

إنّ الإنسان طالب للكمال والسعادة بالفطرة، فهو يرغب في إزالة نقائصه وعيوبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وأساساً، فإنّ اللّه جلّ شأنه قد فطر الأحياء عموماً والإنسان خصوصاً على السعي الذاتيّ لكسب الكمال، والابتعاد عن كلّ ما يضرّ بسعادتها وكمالها، وهذا ما يسمّى بـ«حبّ الذات»؛ أي إنّ كلّ كائن حيّ فهو يحبّ نفسه وحياته وكماله.

كلّنا، على وجه التقريب، نرى في أنفسنا نقائص وعيوباً، ويودّ كلّ واحد منّا لو رفعها، كلّ بحسب طاقته وقدرته. إلاّ أنّ هناك مشكلتين في هذا المضمار؛ **الأولى**: إنّنا لا ندرك عيوبنا ونقائصنا الحقيقيّة تماماً، ولسنا نعرف حاجاتنا الأساسيّة بشكل جيّد. **والثانية**: إنّنا - إن حصل التعارض بين تلك الحاجات عند تأمينها، أو عند تحديد الأولويّات - غالباً ما نخطئ فنقدّم المادّيّ على المعنويّ لشدّة أُنسنا به.

فلو دار الأمر بين العمل على رفع نقص مادّي، أو السعي من أجل تأمين حاجة معنويّة، فإنّه ينقاد تفكيرنا وجهدنا نحو النقائص المادّية، ذلك أنّنا أكثر وأفضل إدراكاً لها. فالشدّة المادّية أكثر إيلاماً لنا، ونحن أكثر أُلفة مع اللذّات المادّيّة والدنيويّة. وحتّى إذا انتبهنا،

في بعض الأوقات، إلى بعض ما نشكوه من نقص معنويّ، وحاجات أخرويّة، فإنّنا لا نجد في أنفسنا الميل اللازم لرفعها، ولا الرغبة في السعي من أجل ذلك.

من هنا، فإنّ اللّه تبارك وتعالى بعث الأنبياء لأجل أن ينبّهوا الناس لواقع حاجاتهم وما يشكون من العجز الحقيقيّ، ويُفهموهم بأنّه، علاوة على حاجاتهم الحيوانيّة والمادّية والدنيويّة التي يدركونها، فإنّ لهم حاجات أكبر، وهم يعانون من نقائص أعظم وأهمّ منها، وأنّ عليهم أن يبذلوا جلّ مجهودهم في سبيل رفع النقائص المعنويّة، وتأمين الحاجات الأخرويّة، هذا **أوّلاً**؛ **وثانياً**: لينبّهوهم على مدى أهميّة المسائل المعنويّة، وحقارة الأمور المادّية والدنيويّة، وافتقارها إلى القيمة مقارنة بتلك.

لقد جاء الأنبياء عليهم السلام ليُفهموا الإنسان أنّه - إضافة إلى اللذائذ المادّية - فإنّ هناك لذّات أخرى لا يمكن قياسها إليها إطلاقاً. إنّ بغيتهم هي تهذيب علاقة الإنسان بالمسائل المادّية، واللذّات الدنيويّة التافهة العابرة، ولفت انتباهه بشكل تامّ إلى الأمور المعنويّة، واللذّات الأخرويّة الباقية.

يحاول الأنبياء عليهم السلام أن يوصلوا لنا فكرة أنّ اللذّات المادّيّة، التي نأنس بها، ونعتبر أنّ لها أهميّة بالنسبة لنا، ليست ذات قيمة تُذكَر، ولابدّ من أن ننتزع قلوبنا المتعلّقة بها لنتذوّق لذّات أسمى، ونقف على ما نعانيه من نقص إنسانيّ واقعيّ، فنسعى لرفعه.

إنّ الأنبياء يُفهمون الإنسان أنّ ظرفيّته للرُقيّ والتكامل أكبر من الحيوان، كما أنّ النقص الذي يشكو منه والحاجات التي هو بحاجة إليها أكثر بنفس النسبة. إنّ البون الذي يفصلنا عن القمّة التي أعدّها

اللّه سبحانه وتعالى لنا، ومنحنا الاستعداد للوصول إليها لشاسع. فاللّه قد أعطى الإنسان ظرفيّة للرُقيّ والتكامل ممّا لا يسعنا تصوّره. بناءً على ذلك، فالأنبياء يلفتون انتباه الإنسان إلى هذه النقطة، ويدعونه لبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إلى كماله النهائيّ، وإزالة ما يحيط به من العيوب والنقائص.

من هنا يتحتّم علينا أن نلتفت إلى حقيقة أنّ العجز والفاقة التي في حياتنا لا تنحصر بالمسائل المادّية والدنيويّة. فالنقائص الدنيويّة، سواء الفرديّة منها أم الاجتماعيّة، غاية في الضآلة والحقارة في مقابل الأمور المعنويّة، والعجز الذي يهدّد سعادتنا الأبديّة بالخطر.

أجل، هناك فرق بين الإنسان والحيوان، ولا تطابق بين الحياة الإنسانيّة والحياة الحيوانيّة. فالحياة الإنسانيّة لها لوازم أخرى غير الأكل والنوم والتنعّم باللذّات المادّية والحيوانيّة. فإن كنّا نعتقد باللّه والأنبياء، ونصدّق بما جاءوا به، وإن كنّا نصدّق أنّ من وراء هذه الحياة حياةً أخرى تليق بإنسانيّة الإنسان، فلابدّ من أن تطابق تصرّفاتنا ما نعتقد به. فلا ينبغي لأفعالنا وأعمالنا اليوميّة أن تكذّب هذا المنحى الفكريّ. لابدّ من وجود الفارق بين تصرّفات الشخص المعتقد بوجود هذه الحياة وذلك الذي يرى الحياة مقتصرة على الحيوانيّات. إنّنا نعتقد قطعاً بوجود مثل هذه الحياة الإنسانيّة، إلاّ أنّ ضعف الإرادة والإيمان يؤدّيان بنا إلى التقصير في ميدان العمل. فإيماننا ضعيف ممّا يستلزم أن يكون أثره على أعمالنا وأفعالنا شبه معدوم. لكن، لنعلم أنّه كان ولا زال هناك أشخاص تمتّعوا بإيمان راسخ، فنالوا مقامات الكمال والسعادة.

خداع الدنيا عقبة أمام الظفر بالحياة المعنويّة

في الواقع إنّنا نحن الذين هيّأنا أسباب انحطاط وتسافل درجات كمالنا بأيدينا. لقد حمّلنا أنفسنا أثقالاً قصمت ظهورنا، وربطنا أيدينا وأرجلنا بالأغلال والسلاسل فلم نعد قادرين على الحركة. ولعلّ أمير المؤمنين عليه السلام يخاطب اللّه تعالى بلساننا في دعاء كميل فيقول: «**اللهمّ عظم بلائي، وأفرط بي سوء حالي، وقصُرت بي أعمالي، وقعدت بي أغلالي، وحبسني عن نفعي بعد أملي، وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بجنايتها، ومطالي**».

هل نحن صادقون يا ترى في نطقنا بهذه العبارات؟ هل نحن نعلم واقعاً بأنّ ظهورنا منحنية من ثقل المعاصي؟ هل نعلم أنّنا بسيّئاتنا قد قيّدنا أيدينا وأرجلنا بالسلاسل والأغلال، وأنّ الدنيا وزينتها قد خدعانا؟ يقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]، ويقول في موضع آخر: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[2].

ما هو المراد بغرور الحياة الدنيا؟ وكيف للدنيا أن تغرّ الإنسان؟

عندما يريد الكبار خداع الطفل فإنّهم يلهونه ببعض الحلوى أو شيء آخر بدل الشيء الثمين الذي طلبه. إنّ لدينا منافع لابدّ من بلوغها، إلاّ أنّ الدنيا وزينتها تبدو لنا جميلة ونفيسة فتغرّنا وتمنعنا من الوصول إلى اللذّات الحقيقيّة والمنافع الأصيلة. ومع الأسف فإنّ خداعنا لا يتمّ بواسطة الدنيا وظواهرها فحسب، بل إنّنا أحياناً

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.
(٢) سورة لقمان، الآية ٣٣.

نخدع أنفسنا بأنفسنا فنقول: إنّ ما يقوله الأنبياء هو عين ما تصبو إليه قلوبنا، أو إنّ ما يقوله الشيطان هو عين ما يقوله الربّ!

فإن كان ما جاء به الأنبياء والأئمّة عليهم السلام صحيحاً - وهو كذلك - فنحن بعيدون كلّ البعد عن الحقائق، ونتخبّط في أخطائنا، وضالّون عن طريق الصواب. فإذا كان دعاء «كميل» مرويّاً عن الإمام عليّ عليه السلام، ودعاء «أبي حمزة» وأدعية الصحيفة السجاديّة مرويّة عن الإمام زين العابدين عليه السلام فكيف ندّعي أنّنا أتباعهما ولا يجمعنا معهما أيّ شبه؟ هل نحن نصدّق مضامين تلك الأدعية؟ هل الأمور المذكورة في تلك الأدعية تمتّ إلى الواقع بصلة أم لا؟ أليست الدنيا التي خدعتنا وتخدعنا، وتلك المباهج الظاهريّة التي تحول بيننا وبين الوصول إلى المنافع الحقيقيّة، أليست هي سوى لذّات عابرة شغلتنا، وتعلّقت قلوبنا بها؟ ألسنا نرغب أن نتناول كلّ يوم طعاماً ألذّ ممّا تناولناه في اليوم الذي سبق؟ ألسنا نريد أن نغيّر كلّ يوم طابع حياتنا، وشكل منزلنا، وأثاثنا، وموديل سيّارتنا، وكلّ لوازم معيشتنا؟

هل يمكن تفسير خداع الدنيا لنا وغرورها إيّانا بغير ما ذكرنا؟ علينا أن نفكّر مليّاً بـ: ما هو الشيء الذي سُلِب منّا لنُعطى تلك الأمور بدله؟ ما هي النفائس التي كنّا ولا زلنا نملك الاستعداد للظفر بها فغفلنا عنها وشغلنا قلوبنا بهذه الأمور العابرة بدلاً عنها؟

أجل، إنّنا في الحقيقة قد حُرِمنا من الحياة الإنسانيّة والعيش الإيمانيّ، وغفلنا كلّ الغفلة عن الحياة الأفضل والأسمى التي قوامها ذكر اللّه سبحانه وتعالى.

(٨)

«وَارْحَمْني صَريعاً عَلَىٰ الفِراش تُقَلِّبُني أَيْدي أَحِبَّتي، وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ مَمْدُوداً عَلَىٰ المُغْتَسَل يُقَلِّبُني صٰالِحُ جيرَتي، وَتَحَنَّنْ عَلَيَّ مَحْمُولاً قَدْ تَنٰاوَلَ الأَقْرِبٰاءُ أَطْرٰافَ جِنٰازَتي، وَجُدْ عَلَيَّ مَنْقُولاً قَدْ نَزَلْتُ بِكَ وَحيداً في حُفْرَتي، وَارْحَمْ في ذٰلِكَ البَيْتِ الجَديدِ غُرْبَتي، حَتَّىٰ لاٰ أَسْتَأْنِسَ بِغَيْرِكَ».

سبب غفلة الإنسان عن الآخرة

إنّ الإنسان يدرك حاجاته المادّية بسبب الغرائز التي أودعها اللّه عزّ وجلّ في كيانه الوجوديّ. ولتأمين تلك الحاجات تراه يلجأ إلى الأسباب والوسائل المادّية طالباً العون من بني جنسه. فالإنسان يدرك جوعه، وعطشه، وشهوته الجنسيّة، وحاجته إلى المأوى، وسائر الحاجات الدنيويّة والماديّة الأخرى بشكل غريزيّ فيسعى في طلبها وإشباعها. من هذا المنطلق، فالإنسان يتعلّق ويأنس، ليس فقط بتلك الأسباب التي لها دور في تأمين حاجاته، وتوفير هذه اللذّات له، بل يأنس أيضاً بالأشخاص الذين مدّوا له يد المساعدة في هذا المضمار، وأعانوه على إسكات آلامه وألوان عذابه. إنّ علاقة الإنسان بالولد، والزوج، والأصدقاء، والأقرباء، وكلّ من يشترك معه في حياته ـ بشكل أو بآخر ـ تكون في العادة على هذا الأساس.

بيد أنّ الأُنس بالأمور المادّية والدنيويّة يحول دون توجّه المرء

إلى المسائل المعنويّة، ويدفع به إلى الغفلة عنها. فالإنسان، من ناحية، يتصوّر أنّ احتياجاته منحصرة بتلك المادّية والدنيويّة، ومن ناحية أخرى يتخيّل أنّ تأمين حاجاته إنّما يتمّ عن طريق نفس تلك الوسائل المادّية، وبواسطة نفس الأفراد الذين يألفهم ويأنس بهم. لكنّ الإنسان غافل عن أنّ الحاجات التي يألفها لا تشكّل عادة إلاّ النزر اليسير من حاجاته الفعليّة، وهي متعلّقة بالحياة الدنيا المحدودة فقط. وهو لا يعلم أنّ حاجاته الأساسيّة هي أمور أخرى؛ ألا وهي الشؤون المرتبطة بالحياة الآخرة غير المحدودة.

يتخيّل المرء أنّ الأشخاص الذين يألفهم في هذه الدنيا سوف يظلّون إلى جانبه إلى الأبد، وما عليه إلاّ أن يعي حقيقة أنّه سيأتي اليوم الذي يرحل عنه فيه كلّ هؤلاء. كلّنا تقريباً نأنس بالأمور الدنيويّة، واللذّات المادّية، والأشياء والأفراد الذين يسهمون في تأمين احتياجاتنا، وإذا ما حيل بيننا وبينها شعرنا بالوحشة والغربة؛ وبعبارة أشمل، إنّ أفكارنا وتصوّراتنا تدور حول محور القضايا المادّية والدنيويّة. لكن علينا أن نفهم أنّ هذه الدنيا فانية غير باقية، وأنّه سيأتي ذلك اليوم الذي نشدّ فيه الرحال عن هذه الدار. ويتحتّم علينا من الآن أن نفكّر في تلك الدار الباقية، وننظر إن كان لنا في ذلك العالم من حاجات ورغبات أم ليس لنا؟ وإذا كان لدينا في الحياة الأبديّة أيّ حاجات، فما هي السبيل والطريقة إلى تأمينها؟ هل إنّ حاجاتنا في ذلك العالم هي عين التي لنا في عالمنا هذا؟ هل سيكون المرء أيضاً بحاجة إلى الأكل واللبس والوسائل المادّية في حال ارتحاله عن هذه الدنيا؛ كما كان بنو البشر يتصوّرون في السابق عندما كانوا يدفنون بعض الطعام وأسباب المعيشة مع موتاهم بتصوّر أنّها ستنفعهم يوماً ما؟

من الجليّ أنّ هناك بوناً شاسعاً بين عالم الآخرة وعالم الدنيا. فالأنبياء جاءوا لإفهام الإنسان بأنّ لوازمه واحتياجاته في ذلك العالم ليست هي من قبيل الاحتياجات الدنيويّة، بل إنّها تختلف عنها كلّ الاختلاف. فهناك لا تعود الشؤون الدنيويّة عليه بالنفع، بل ولا يستطيع استصحابها معه إلى ذلك العالم. إنّه سيحلّ اليوم الذي سيتركه فيه كلّ الأصدقاء والأحبّة والمقرّبون، وعندها لن يتمكّن هؤلاء من تقديم يد المساعدة إليه حتّى إذا أرادوا ذلك. عندما يأتي اليوم الذي يتحتّم فيه على المرء أن يغادر هذه الدنيا فعليه، وهو يحتضر على فراش الموت ويشاهد المنيّة بأمّ عينيه، أن يُدير ظهره لكلّ ما جمع، وكلّ ما استثمر من رؤوس الأموال، وأن يستعدّ لفراق الأصدقاء والأقرباء الذين تعلّق قلبه بهم. حينذاك يُمسي أيّ تعلّق للمرء في شيء آخر أو شخص آخر [غير اللّه] من شأنه أن يجعل الحسرة والوحشة تهيمنان عليه، وليس هناك من مفرّ.

عندها ستتوقّف أعضاؤه وجوارحه الواحدة تلو الأخرى عن العمل، وتحلّق روحه، في نهاية المطاف، تاركة جسده، فتشاهد ما يجري بعد الموت؛ حيث يحمل الأحبّة والأقارب جنازته نحو المقابر، وينزلونها في أحد القبور، ويهيلون عليها أكواماً من التراب، ويبقون ساعة ليعودوا في آخر الأمر إلى منازلهم. حينها يبقى هو ووحشة القبر! هذا القبر الذي يصفه الإمام السجّاد عليه السلام بهذا الوصف: «**فَمَنْ يَكُونُ أَسْوَأَ حٰالاً مِنِّي إِنْ أَنٰا نُقِلْتُ عَلَىٰ مِثْلِ حٰالِي إِلَىٰ قَبْرِي [قَبْرٍ] لَمْ أُمَهِّدْهُ لِرَقْدَتِي، وَلَمْ أَفْرُشْهُ بِالعَمَلِ الصّٰالِحِ لِضَجْعَتِي، وَمٰالِي لاٰ أَبْكِي، ولاٰ أَدْرِي إِلىٰ مٰا يَكُونُ مَصِيرِي، وَأَرَىٰ نَفْسِي تُخٰادِعُنِي وَأَيّٰامِي تُخٰاتِلُنِي، وَقَدْ خَفَقَتْ عِنْدَ رَأْسِي أَجْنِحَةُ المَوْتِ، فَمٰالِي لا**

أَبْكِي؟ أَبْكِي لِخُرُوجِ نَفْسِي، أَبْكِي لِظُلْمَةِ قَبْرِي، أَبْكِي لِضِيقِ لَحْدِي، أَبْكِي ...».

إنّه عمر كامل من الكدّ والتعب - يقضيه الإنسان من أجل جمع ثروة، وبناء بيت، وشراء لوازم العيش، والاستئناس بالآخرين - ينتهي بأجمعه في هذه اللحظة وعليه، من الآن فصاعداً، أن يبقى وحيداً في حالة من الغربة. إلى متى ستطول هذه الحالة؟ إنّها مدّة بالغة الطول، بل لا يمكن إطلاقاً مقارنتها بعمر الدنيا. خلال هذه الفترة الطويلة، التي على المرء أن يقضيها في عالم البرزخ ثمّ بعد ذلك في عالم القيامة والآخرة، لن تجديه نفعاً أيّ من الأمور التي كنَزَها وجمعها في دار الدنيا. إذن، ما الذي يجب عليه فعله؟ بل ماذا يمكنه أن يصنع؟

الأُنس بالله أفضل الزاد لما بعد الموت

إذا أراد الإنسان أن يحول دون هيمنة غمّ الغربة وحزنها عليه بعد تركه لهذا العالم، وأن لا يفارق هذه الدنيا صفر اليدين، فما عليه إلاّ أن يفكّر بهذا اليوم في أثناء حياته الدنيا وقبل الموت، ويتزوّد بزاد يلائم سفراً كهذا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[1]، لا أن يجعل تمام همّه وجهده الحياة الدنيا ولذّاتها. عليه أن يعرف منذ الآن مع من عليه أن يأنس؟ مع الذي لا يُسلِمُه إلى الوحدة في ساعة غربته. عليه أن يأنس مع الذي بمقدوره أن يؤمّن حاجاته الأساسيّة، وهو ذاته الذي مهّد له الأرضيّة لتأمين حاجاته المادّية والمعنويّة من خلال توفير الأسباب والوسائل في هذه الدنيا.

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٧.

يُلفِت الإمام زين العابدين عليه السلام الأنظار إلى هذه الحقائق في بعض فقرات دعاء «أبي حمزة»، فيقول مخاطباً الباري عزّ وجلّ: «**وارحمني صريعاً على الفراش تقلّبني أيدي أحبّتي، وتفضّل عليّ ممدوداً على المغتسل يقلّبني صالح جيرتي، وتحنّن عليّ محمولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتي، وجُدْ عليّ منقولاً قد نزلتُ بك وحيداً في حفرتي، وأرحم في ذلك البيت الجديد غربتي، حتّى لا أستأنس بغيرك**».

إنّ من أهمّ الالتفاتات التي تركّز عليها تلك الفقرات من الدعاء هو قوله عليه السلام لربّه: «**وارحم في ذلك البيت الجديد غربتي حتّى لا أستأنس بغيرك**». أمِنَ الممكن أن يتذوّق المرء في هذا العالم طعم الأُنس باللّه ثمّ يأنس بغيره عند نزوله في القبر؟ أم إنّ من الممكن أن يكون أُنس المرء في هذه الدنيا بغير اللّه تعالى، ثمّ يكون أُنسه به فقط عند نزوله في حفرته؟ يقول اللّه جلّ شأنه لداود عليه السلام: «**يا داود أبلغ أهل أرضي أنّي حبيب من أحبّني، وجليس من جالسني، ومؤنس لمن أنِس بذكري، وصاحب لمن صاحبني**»[1].

فقلب الإنسان مشدود لكلّ ما أنس به في الدنيا، وحشْرُهُ يوم القيامة معه أيضاً؛ إذ «**أنت مع من أحببت ولك ما اكتسبت**»[2]. فالشخص الذي ليس له من هذه الدنيا سوى أمواله، وأصحابه، وزوجته، وأولاده سيغمره سيل من الحزن والحسرة إذا أُودع في القبر، وتُرِك يقاسي الوحدة. في ذلك العالم لا يأنس باللّه إلاّ الذي أنس به في الحياة الدنيا، وتعرّف عليه، وجعل قلبه متعلّقاً به.

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، الباب ٤٣، ص٢٦، الحديث ٢٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٨، الباب ٢٠، ص ٢١، الحديث ١٣.

إنّنا إن بقينا ساعة في البيت لمفردنا من دون زوجة ولا ولد ولا صاحب يؤنسنا، ولم يكن لدينا عمل نتسلّى به، أحسسنا بالوحدة والوحشة. فلا يفهم أمثالنا معنى الأُنس باللّه لأنّنا لم نتذوّق حلاوته. إنّنا إن لم نَرَ أحداً من أصدقائنا أو معارفنا لفترة من الزمن، اشتقنا إليه، لكن هل حصل مرّة أن اشتقنا إلى الصلاة؟ هل حدث مرّة أن تحيَّنّا الفرص من أجل الدعاء والمناجاة، أو تمنّينا لو اتّخذنا زاوية قصيّة نخلو فيها بربّنا ونناجيه؟

نحن عادة نشعر بالوحشة في الخلوات فنبحث عمّن نتحدّث إليه، فإن لم نعثر على أحد خاطبنا أنفسنا في عالم الخيال، أو شغلناها بأيّ شكل من الأشكال. فإن كان حالنا كذلك فمن الطبيعيّ أن لا ننسى كلّ شيء دفعة واحدة عند نزولنا في القبر لنأنس باللّه.

بناءً على ما مرّ، إذا أحببنا أن لا نعاني الغربة والألم في العالم الآخر فعلينا أن نهيّئ مقدّمات الأُنس باللّه في الدنيا كي يلازمنا اللّه ولا يتركنا هناك. علينا أن نُعدّ منهاجاً لأنفسنا نخصّص فيه ساعات نخلو فيها لأنفسنا ويكون توجّهنا فيها إلى اللّه لا إلى أيّ شيء آخر؛ ساعات ننسى فيها الدنيا وكلّ ما يتعلّق بها من مال، وثروة، وعمل، وزوجة، وولد، وأصحاب، ومعارف، وكلّ شيء، متوجّهين فقط إليه تعالى ومنشغلين بذكره فحسب. فإن لم نفعل ذلك ابتُلينا في عالم البرزخ بحسرة عظيمة، واستولت علينا غربة ووحدة وعذاب وحزن ليس بوسع أيّ أحد أو أيّ شيء دفعها عنّا.

ومن وصايا فاطمة الزهراء لأمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا أنا متُّ فتولّ أنت غسلي وجهّزني... واجلس عند رأسي قُبالة وجهي فأكثر**

من تلاوة القرآن والدعاء»[1]؛ وذلك لأنّ قلبها الطاهر مأنوس باللّه، أحبّت أن يأنس سمعها أيضاً بكلام اللّه تبارك وتعالى.

هناك أشخاص ينتظرون، ولو لحظات، من وقت الفراغ لينشغلوا بالقرآن، فهم يلتذّون بقراءة القرآن والإصغاء إلى آياته. أمثال هؤلاء يُقبلون على العبادة والصلاة بعشق؛ فهل من عاشق يملّ الإصغاء إلى كلمات حبيبه؟ أمّا نحن فإنّ قلوبنا في حال الصلاة لاهية في مكان آخر، وهي كالعصفور المحبوس في قفص ينتظر فتح بابه، فنحن ننتظر نهاية الصلاة، وانتهاء شهر رمضان بنفاد صبر، وحواسّنا في أثناء الصلاة لاهية باستمرار هنا وهناك ننظر من قَدِم ومن ذهب. وكفى بذلك شاهداً على أنّه ليس لنا أُنس باللّه تبارك وتعالى.

كيف نأنس باللّه؟

نتضرّع إلى اللّه أن يعطينا بلطفه همّة لنشعر بالأُنس باللّه ومحبّته من أعماق قلوبنا كي نصل إلى درجة الأُنس به. إنّ هذا ممكن، لكن علينا طلب التوفيق من اللّه لذلك، وأن تكون لدينا الإرادة والعزم عليه كذلك. بالطبع إنّ هذا الأمر بحاجة إلى التمرين أيضاً.

من الطرق البسيطة لذلك هو أن نُعدّ لأنفسنا منهاجاً يوميّاً ننتخب فيه فترة من هذه الساعات الأربع والعشرين نخلو فيها لأنفسنا بحيث لا نفكّر بأيّ شيء سوى اللّه سبحانه وتعالى. ومن الممكن أن يكون ذلك بالصلاة، أو الدعاء، أو قراءة القرآن، أو ما شابه، المهمّ هو أن لا نغفل عن حقيقة أنّ اللّه حاضر وناظر، فهو يرانا ويُغرقنا دائماً بلطفه،

(١) بحار الأنوار، ج٧٩، الباب ١٢، ص٢٧، الحديث ١٣.

فنستغفر من ذنوبنا من صميم قلوبنا. علينا قدر المستطاع أن نديم هذا البرنامج حتّى لا نُسلَب الرجاء في ذلك العالم بلطفه عزّ وجلّ.

عندما يرحل الإنسان عن هذا العالم فإنّه يشاهد حصاد أعماله، وحينها كلّما نادى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، فإنّه يأتيه الجواب: ﴿كَلَّآ﴾(١)، فقد فات الأوان.

لذا لابدّ من استغلال كلّ دقيقة من أعمارنا، ومن بين آلاف الأعمال التي ننجزها لدنيانا علينا أن ننجز واحداً لآخرتنا. ومن بين آلاف الأحبّة الذين نأنس بهم، فلنخصّص زاوية من قلوبنا للّه وذكره. إن لم نخصّص كلّ قلبنا للّه وللأُنس به، فلنُشرِك اللّه تعالى في أعمالنا على الأقلّ.

اشتُهِر أنّ المرحوم الشيخ جعفر الشوشتريّ قال يوماً من على المنبر: أيّها الناس، أريد أن أقول لكم اليوم كلاماً يخالف كلام جميع الأنبياء والأولياء! فتعجّب القوم من ذلك. فقال: كلّ الأنبياء دعوا الناس إلى التوحيد، وأريد أن أدعوكم إلى الشرك! كلّ الأنبياء والأولياء كانوا يقولون: اعملوا للّه فحسب، وأنا أقول: أشركوا اللّه أيضاً في أعمالكم؛ فإن لم تكونوا من الموحّدين، ولم تجعلوا تمام قلوبكم للّه، فخصّصوا على الأقلّ جانباً من قلوبكم له سبحانه؛ لا تُسلِموا قلوبكم بأسرها لغير اللّه لأنّكم ستندمون يوماً على ذلك.

[اللّهمَّ] اغرس في أفئدتنا أشجار محبّتك، وأتمِم لنا أنوار معرفتك، وأذِقنا حلاوة عفوك ولذّة مغفرتك، وأقرِر أعيُنَنا يوم لقائك برؤيتك(٢).

---

(١) سورة «المؤمنون»، الآيتان ٩٩ و١٠٠.

(٢) مفاتيح الجنان، مناجاة خمس عشرة للإمام السجّاد عليه السلام، المناجاة الخامسة عشرة.

(٩)

«اللّهُمّ إنّي أَسْأَلُكَ إيماناً تُباشِرُ بِهِ قَلْبي، وَيَقيناً حَتّى أَعْلَمَ أَنَّهُ لَنْ يُصيبَني إلاّ ما كَتَبْتَ لِي، وَرَضِّني مِنَ العَيْشِ بِما قَسَمْتَ لِي يا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ»

قيمة الإيمان

هذه الفقرة تضم آخر عبارات دعاء «أبي حمزة الثماليّ» الشريف. وكأنّ الإمام السجّاد عليه السلام، بعد الدعاء والمناجاة، يلخّص آخر وأهمّ طلبين له من اللّه في هاتين الجملتين الأخيرتين من الدعاء؛ ألا وهما «الإيمان الراسخ» و«الرضا بالقضاء الإلهيّ».

يُستشَفّ من ذلك مدى الأهميّة التي يتمتّع بها الإيمان حتّى يطلب الإمام عليه السلام من اللّه أن يمنّ عليه بالإيمان بعد هذه المناجاة المطوّلة. ولمّا كان الإيمان، بعد تحقّقه، في معرض الخطر والآفات فإنّه يسأل اللّه إيماناً راسخاً ثابتاً في القلب. فإن حصل المرء على الإيمان فلا ينبغي أن يغترّ به ويتخيّله باقياً ثابتاً إلى الأبد.

إنّ لسان الإنسان عاجز عن وصف قيمة الإيمان. فالإيمان جوهرة ثمينة من شأنها أن تبثّ الطمأنينة في روح الإنسان، وتكون له الملجأ الأمين عند شدائد الدنيا وتقلّباتها، والأهمّ من ذلك كلّه، فالإيمان هو من موجبات السعادة الأبديّة للإنسان، ونجاته من العذاب الأخرويّ.

والإيمان، مهما كان ضعيفاً، فهو من أكبر ما يسبغ اللّه تعالى على الإنسان من النعم. وبالرغم من أنّ آثار مثل هذا الإيمان (الضعيف) غاية في الضعف والشحّة إلاّ أنّه، في الوقت ذاته، ذو قيمة عظمى وأهمّية بالغة لسعادة الإنسان الدنيويّة والأُخرويّة. فمَثَل الإنسان بالنسبة للإيمان كالسمكة بالنسبة للماء؛ فالسمكة لا تدرك قدر الماء ما دامت فيه، لكنّها إذا ما أُخرجت منه أحسّت بأيّ نعمة عظيمة كانت غارقة وقد سُلبت منها. إنّنا، وبحمد اللّه، متنعّمون بهذه النعمة أيضاً. وبالرغم من ضعفها، إلاّ أنّ حياتنا ومعيشتنا في ضوئها. فإن سُلِب منّا هذا الإيمان الضعيف - والعياذ باللّه - وأُسلِمنا إلى الشكّ والريبة، فسوف نفهم حينها أيّ نعمة عظيمة كانت تغمرنا وقد سُلبناها.

يروي أحد الأشخاص أنّه تعرّف على رفيق في سفر وكان عاديّاً في جميع أحواله سوى أنّه كان ملتزماً بإحياء كلّ ليلة جمعة حتّى الصباح. فسألته عن علّة ذلك، فقال: واجهتني مشكلة، وعندما فكّ اللّه عقدتي قطعت على نفسي عهداً أن أقوم ليالي الجمع حتّى آخر عمري. فسألته: ما كانت مشكلتك؟ (قد يتبادر إلى أذهاننا أنّ المشكلة التي دفعته إلى الالتزام بعمل شاقّ كهذا هي من قبيل الفقر أو المرض أو ما شاكل ذلك) فأجاب: ساورني الشكّ في عقيدتي لفترة من الزمن، وتزلزل إيماني بسببه، وكلّما حاولت التخلّص من الوساوس لم أوفّق إلى ذلك. راجعت أشخاصاً شتّى، وعرّفني كلّ على مجموعة كتب، ودخلت في نقاشات مختلفة كانت كلّها من دون جدوى، بل وزادت في اضطرابي أكثر، حتّى سمعت بعالم في مدينة مشهد المقدّسة اسمه الشيخ حسن عليّ الأصفهانيّ رحمه الله وهو من أصحاب الكرامات والمقامات المعنويّة الرفيعة ومعروف بحلّ

مشاكل الناس. فكتبت له شارحاً تفصيل حالتي. ولمّا كنتُ من أهل مدينة «الأهواز» فقد كتب لي: إذهب في اليوم الفلانيّ وفي الساعة الفلانيّة إلى شاطئ نهر «الكارون» واتّخذ لك مجلساً في ظلّ النخيل هناك لعلّ اللّه يفكّ عقدتك. فذهبت في اليوم المحدّد والساعة المعيّنة وجلست في زاوية تحت النخيل متحيّراً. وبينما أنا أرنو إلى النهر وإذا بجاموسة تسبح في وسط النهر. اقتربت الجاموسة شيئاً فشيئاً نحو الجهة التي أجلس فيها حتّى وصلت إلى الشاطئ، وخرجت من الماء، ووقفت هنيهة تحت النخيل إلى أن وضعت جنينها الذي كانت تحمله في بطنها، ثمّ شرعت بتنظيفه، ومن ثمّ أرضعته! إنّ مشاهدة هذا المنظر أزال عنّي كلّ شكّ، وأدخل السكينة إلى روحي. فعاهدت نفسي أن أحيي كلّ ليلة جمعة بالعبادة حتّى الصباح شكراً لنعمة عودة الإيمان إلى قلبي، وإزالة الشكّ والريبة منه.

إنّ أمثال هؤلاء ممّن حُرِموا نعمة الإيمان لفترة من الزمن ومن ثمّ مَنّ اللّه تبارك وتعالى عليهم بالإيمان من جديد يعرفون قدر هذه النعمة أكثر من غيرهم. فمَنْ وقف على التبعات السيّئة لانعدام الإيمان، وتزلزُل العقيدة، وأحسّ بعذابه، وذاق مرارته، سوف يقدّر وجوده. لكن، بما أنّنا لم نُسلَب الإيمان ولا مرّة، فإنّنا ـ مع ما يشكو إيماننا من ضعف ـ لا ندرك جيّداً كم هو نفيس؛ أو بعبارة أدقّ: إنّنا لم نتجرّع مرارة الكفر باللّه كي ندرك أيّ نعمة هي الإيمان به!

فلنجهد حتّى لا يتعرّض إيماننا للآفات الخبيثة، وأن يبقى راسخاً، ونغادر الدنيا مؤمنين إن شاء اللّه تعالى. فإن قطعت الأواصر بين الإنسان وربّه يوماً، وضلّ طريقه، وصار يبحث بكلّ ما أوتي من جهد

عن طريق الصواب وليس هناك من بصيص أمل، عندها سوف يفهم أيّ بليّة حلّت به.

المعصية وخطورة زوال الإيمان

لا ينبغي أن نتصوّر أنّ إيماننا، مع ما فيه من قيمة وأهميّة، ثابت وراسخ، بل إنّ هذه النعمة قد تزول كسائر النعم الأخرى. وعلينا أن نستعيذ باللّه من أن تُسلَب منّا هذه النعمة يوماً من الأيّام. فكم هم الذين تنعّموا بالإيمان، ومارسوا الكثير من صالح الأعمال، فضعف إيمانهم أو سُلِبوه بعد مدّة تطول أو تقصر نتيجة عوامل شتّى، ففارقوا الدنيا غير مؤمنين.

فاللّه سبحانه وتعالى لم يمنح أيّ أحد صكّ ضمان بعدم سلب إيمانه الذي مَنّ عليه به، بل قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1]. من هنا، فإنّه لابدّ من الالتفات إلى أنّ إيمان الإنسان معرّض للزوال وهجوم الآفات باستمرار. فالشبهات والوساوس الشيطانيّة من جهة، والأعمال القبيحة والمشينة من جهة أخرى تهدّد إيمان الإنسان تهديداً جدّياً. فقد جاء في الخبر عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت، حتّى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً**»[2].

ينبغي أن نسأل اللّه العليّ القدير أن يقوّي إيماننا، ويحفظه من

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٠، الباب ١٣٧، ص٣٢٧، الحديث ١٠.

الآفات وعبث شياطين الجنّ والإنس. وإن حصل ـ لا قدّر اللّه ـ وأذنبنا فلنعجّل في التوبة وجبران الخلل لنمحي ما يخرج في القلب من أثر الإثم من بقع سوداء. فاسوداد القلب له آثار سلبيّة على الإنسان لكنّه لا يشعر بها ويتخيّل أنّه سالم وليس فيه عيب.

إنّ من آثار المعصية قسوة القلب التي من تبعاتها عدم التذاذ الإنسان بالدعاء والمناجاة مع اللّه، وقراءة القرآن، والتوسّل بالأئمّة الأطهار عليهم السلام، ويبعث فيه الميل إلى الذنب والشهوة واللهو واللعب، فيحلّ التقرّب من أهل المعاصي والذنوب ومجالستهم محلّ مجالسة عباد اللّه الصالحين، وشيئاً فشيئاً يجد المرء في نفسه الرغبة في مجالسة من يشبهونه إلى حدّ مّا. كلّ ذلك علامة على قسوة القلب وانتشار الظُلمه فيه.

أمّا القلب النورانيّ المرتبط باللّه فهو لا يطيق أيّ شيء يبعده عن اللّه، ويشغله عن ذكره. فإن جالس من هو من أهل الدنيا واللهو واللعب، شعر وكأنّه أسير في سجن، وصار يعدّ اللحظات للتخلّص من هذه الرفقة؛

فترْكُ العشّ للعصفور غُنْمٌ إذا كان الغُراب له جليسا[١]

وبناءً على ما مرّ، ينبغي أن نعلم **أوّلاً**: أنّ الإيمان، مهما كان ضعيفاً، فهو جوهرة نفيسة جدّاً من اللّه، **وثانياً**: لا ينبغي الغفلة عن أنّ إيمان الإنسان معرّض للزوال. لذا فإنّ علينا باستمرار تقوية إيماننا، وتدعيم معتقداتنا بمقدار ما نستطيع، والابتعاد عن الشبهات

---

(١) في إشارة إلى بيت شعر بالفارسيّة:

چو طوطی کلاغش بود هم نفس غنیمت شمارد خلاص از قفس

ومسبّباتها. وإن طرأت في أذهاننا شبهة، فلنهرع إلى معالجتها، ولا نترك قلوبنا مسرحاً لوساوس الشيطان.

وكذا، علينا اجتناب المعاصي وكلّ ما يدنينا منها. وإن ارتكبنا الذنب ـ لا سمح اللّه ـ فلابدّ أن نسارع إلى التوبة منه، والأهمّ من ذلك كلّه أن نسأل اللّه بكلّ خضوع وتضرّع أن يحفظ إيمانا ويقوّيه، ولنتوسّل بالأئمّة الأطهار عليهم السلام من أجل ذلك أيضاً.

والفقرة المشار إليها من دعاء «أبي حمزة» ناظرة إلى تلك النقاط: «**اللّهمّ إنّي أسألك إيماناً تباشر به قلبي، ويقيناً** ...».

بعضٌ من آثار الإيمان

[أ] **اليقين**: عندما يترسّخ إيمان المرء في القلب، فإنّه يثمر آثاراً معيّنة يشير الإمام زين العابدين عليه السلام إلى اثنين منها؛ اليقين بما قدّر اللّه، والرضا بقضائه: «**حتّى أعلم أنّه لن يصيبني إلاّ ما كتبت لي**».

فاليقين هو اسمى وأكمل درجات الإيمان. والإيمان ذاتاً يتوقّف على المعرفة، والمعرفة الكاملة هي التي توجد صفة اليقين عند الإنسان. فالأمر بالنسبة للإنسان الواصل إلى مرحلة اليقين سيّان إن عاش في رخاء أو شدّة، وهو لا يبالي بما يحدث من نوازل الدنيا المادّية، إذ أنّ قلبه مشدود بإحكام إلى محلّ آخر. والمؤمن الذي كمل إيمانه، وبلغ درجة اليقين يوكل أمره إلى اللّه، وهو يعلم بأنّ مصلحته منحصرة في ما آتاه اللّه.

من هنا فإنّ المؤمن في راحة بال وطمأنينة لأنّ اللّه هو المتكفّل بمعيشته، وهو يعتقد أنّ خيره في ما آتاه اللّه. يقول جلّ وعلا في

حديث المعراج: «**فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح؛ بعسر أم بيسر**»[١]. وقد سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن معنى اليقين فنقل عن أبيه الباقر عليه السلام تفسيره لليقين بقوله: «**التوكّل على اللّه، والتسليم للّه، والرضا بقضاء اللّه، والتفويض إلى اللّه**»[٢].

من أجل ذلك، فأوّل ثمار الإيمان هو حصول اليقين عند الإنسان بأنّ ما لابدّ أن يأتيه فسيأتيه لا محالة، وأنّ ما لم يُكتَب له فهو لن يصل إليه. يقول الإمام جعفر الصادق نقلاً عن أمير المؤمنين عليهما السلام: «**لا يجد عبد طعم الإيمان حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئَه، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليُصيبَه، وأنّ الضارّ النافع هو اللّه عزّ وجلّ**»[٣].

إنّ الرؤية التي تقول: إنّ ما نحصل عليه بكدّنا وتعبنا هو من أنفسنا، هي رؤية مشوبة بالشرك. فعلى الإنسان الموحّد أن يعلم أنّ وجوده من اللّه، وأنّ طاقاته البدنيّة والعقليّة من اللّه، وأنّ الأشياء التي يتصرّف بها هي من اللّه، ومضافاً إلى كلّ هذا، فإنّ استعمال تلك الأمور هو في ظلّ تدبيره سبحانه، إذ ليست المسألة أنّ باستطاعة كلّ مَن جمع مالاً أو اكتسب ثروة أن يستعملها كما يشاء ومن دون إرادة اللّه، فلربّما تمكّن أشخاص من جمع ثروة (سواءٌ عن طريق الحلال أو الحرام) ثمّ لم يوفّقوا إلى التمتّع بها. من هنا نعلم أنّ الإفادة من المال مرتبطة بإرادة اللّه أيضاً.

بالطبع لابدّ من الالتفات إلى أنّه ليس من لوازم القبول باليقين

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، الباب ٢، ص٢٧، الحديث ٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٧، الباب ٥٢، ص١٣٨، الحديث ٤.

(٣) بحار الانوار، ج٦٧، الباب ٥٢، ص١٥٤، الحديث ١٢.

الاعتقادُ بالجَبْر؛ أي ليس الأمر أن يترك المرء السعي والعمل، ويركن إلى التقاعس والكسل، ويتّخذ المعتقدات الدينيّة ذريعة للقول بأنّ ما هو مقدّر سيصيبني حتماً، اشتغلتُ أم لم اشتغل.

وعلى الرغم من ضيق المجال لطرح بحث الجبر والاختيار بشكل مفصّل، لكنّنا نقول إجمالاً إنّ ما هو مقدّر هو: «تحقّق المسبّبات عن طريق الأسباب». ففي تقدير اللّه للأمور هيّأ سبحانه وتعالى أسباباً وعوامل جعل أحدها إرادة نفس الإنسان التي هي بدورها جزء من الأسباب والمسبّبات.

وعلى سبيل المثال، إذا كان من المقدّر لشخص أن يعيش خمسين سنة فهو بمعنى أنّ اللّه يعلم بما سيقوم به، وما لا يقوم به طوال عمره، وكم سيولي من أهمّية لكلّ ما يستوجب طول العمر أو قصره كصلة الرحم وقطعه، ومراعاة حقوق الوالدين، ورعاية أمور الصحّة والسلامة، وما إلى ذلك.

وبناءً على ذلك، فإنّ اللّه جلّ شأنه - وفقاً لعلمه المحيط بكلّ الأعمال والتصرّفات الاختياريّة لهذا الشخص - قرّر أن يكون عمره خمسين سنة مثلاً. لكن لا يعني هذا أن يقول الشخص بأنّه قُدّر لي أن أعيش خمسين سنة وليس لما أقوم به أيّ تأثير على ذلك؛ إذ أنّ ما قدّره اللّه تبارك وتعالى هو على أساس تلك الأفعال الاختياريّة للإنسان.

ولا منافاة لإسناد أفعال الإنسان الاختياريّة إلى اللّه مع إسنادها إلى الإنسان في الوقت ذاته؛ لأنّ هذه الإسنادات هي في طول بعضها البعض وليس من تزاحم فيما بينها. وبتعبير آخر، إنّ إسناد

الفعل إلى الفاعل الإنسانيّ يكون في مستوىً، وإسناده إلى اللّه تعالى في مستوىً أعلى حيث يكون (في هذا المستوى) نفس الإنسان، والوجود المادّي الذي يقع عليه فعله، ووجود الأدوات التي بواسطتها ينجز الفعل، كلّها مستندة إليه جلّ وعلا. إذن، تأثير إرادة الإنسان، باعتبارها «الجزء الأخير من العلّة التامّة»، في عمله لا تنافي إسناد وجود كلّ أجزاء العلّة التامّة إلى اللّه تعالى، إذ أنّ وجود الكون، والإنسان، وكلّ شؤونه الوجوديّة هي في قبضة اللّه، وهو الذي يبثّ فيها الوجود بشكل متواصل، وما من موجود، في أيّ حال أو زمان، بمستغنٍ أو مستقلّ عنه. بناءً على ذلك، فإنّ أعمال الإنسان الاختياريّة هي أيضاً ليست غنيّة عن اللّه، ولا خارجة عن نطاق إرادته؛ إذ ليست القضيّة أنّ العمل إمّا أن يكون مستنداً إلى إرادة الإنسان، أو مستنداً إلى إرادة اللّه لأنّ هاتين الإرادتين ليستا في عرض بعضهما كي لا تكونا قابلتين للجمع. بل إنّ إرادة الإنسان، كما هو الحال في أصل وجوده، مرتبطة بالإرادة الإلهيّة، وإنّ الإرادة الإلهيّة ضروريّة لتحقّقها؛ إذ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١). يقول اللّه في محكم كتابه المجيد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٢)، ثمّ يقول في الآية التي تليها: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(٣).

فإذا سُلِبنا في هذه الدنيا نعمة، كأن فقدنا شخصاً عزيزاً علينا أو

(١) سورة التكوير، الآية ٢٩.

(٢) سورة الحديد، الآية ٢٢.

(٣) سورة الحديد، الآية ٢٣.

ابتُلِينا بالفقر أو المرض أو ما شاكل، فلنعلم أنّ ذلك مقدّر ومكتوب كي لا نتأثّر أو نجزع. وعلينا أن نعلم أنّ تلك كانت نعمة أعطاها اللّه إيّانا ثمّ أخذها منّا لمصلحة مّا.

يقول اللّه تعالى لموسى عليه السلام وهو يناجيه: إنّ أحبّ خلقي إليّ هو مَن إذا أخذت منه محبوبه لم ينازعني وسلّم لي؛ «في مناجاة موسى عليه السلام: **أيّ ربّ! أيّ خلقك أحبّ إليك؟** قال: **مَن إذا أخذت حبيبه سالمني**»[1]. من أجل ذلك، لا ينبغي للإنسان المؤمن أن يتعلّق بنعم الدنيا، أو يغتمّ لفقدانها، بل أن يفكّر دائماً بالعبوديّة، والقيام بتكاليفه الشرعيّة، لا أن ينشغل تفكيره في ما أصاب وما فقد.

[ب] **الرضا بقضاء اللّه**: إنّ ثاني آثار الإيمان هو الرضا بقضاء اللّه؛ «**ورضّني من العيش بما قسمت لي يا أرحم الراحمين**».

يقدّر اللّه تعالى لعباده تقديرات تنسجم أحياناً مع رغباتهم ويرضون عنها، وأحياناً أخرى لا يقنعون بها. وما يريده اللّه هو أن يكونوا راضين بتقديراته، وخاضعين لقضائه.

وهذا التقدير يكون تارة في الأمور التشريعيّة، وتارة أخرى في الأمور التكوينيّة.

ففي الأمور التشريعيّة تأتي التقديرات الإلهيّة لتمثّل التكاليف الدينيّة؛ الواجبات والمحرّمات. والرضى هنا يتمثّل بفعل الواجبات، وترك المحرّمات.

أمّا في الأمور التكوينيّة فعلى الإنسان الرضا بما قسمه اللّه له،

(١) بحار الأنوار، ج٧٩، الباب ١٦، ص٩٠، الحديث ٤٣.

سواء في الشدّة أو في الرخاء. فالناس يُمتحَنون بالحوادث والمآسي الأليمة لتتبيّن ماهيّة ردود أفعالهم. فبعض الاختبارات تتعلّق بمراحل الإيمان الأولى ليُعلَم هل يبقى المرء ملتزماً بالأحكام الإلهيّة عند تعرّضه لابتلاءات صعبة، أم انّه يعصي؟ أمّا المرتبة الأعلى فمختصّة بعباد اللّه المقرّبين حتّى يُرى إن كانوا يشتكون من اللّه عند شديد النوازل، أم يتحمّلونها ولا ينبسون ببنت شفة؛ وهذا هو مقام «الصبر»، والأعلى منه مقام «الرضا»؛ فأهل الرضا إضافة إلى تحمّلهم الآلام والمآسي فهم راضون بما يصيبهم (ليس من ضجر ولا شكوى حتّى في أعماق قلوبهم) ذلك أنّ ما يحلّ بهم - حسب اعتقادهم - هو من قِبَل اللّه. وهذه هي أعلى مراحل الإيمان حيث يرضى المرء فيها - بمجامع قلبه - عن تقديرات اللّه عزّ وجلّ، ويؤمن بأنّ تقديراته إنّما تنبع من الحكمة. من هنا يجيب اللّه تبارك وتعالى رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم في ليلة المعراج عندما سأله: «**أيّ الأعمال أفضل؟**» بقوله: «**ليس شيء عندي أفضل من التوكّل عليّ والرضا بما قسمت**»[1].

وبالطبع، لا يعني ذلك أن يكفّ المرء عن العمل والكدّ، لأنّ كدّه وجهده هما من عوامل التقدير الإلهيّ أيضاً، بل المقصود هو الرضا بما يقع ويحدث، والاعتقاد بأنّ كلّ حادثة فهي مستندة إلى الحكمة.

قال اللّه عزّ وجلّ فيما أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: «**يا موسى! ما خلقتُ خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن، وإنّي إنّما ابتليته**

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، الباب ٢، ص٢١، الحديث ٦.

لما هو خير له»[١]. فمن المسلّم أنّ الأُمّ التي تعطي ولدها العليل دواءً مرّاً وغير مستساغ المذاق هي تحبّ ولدها وليس فعلها هذا بدافع عداوتها له، بل إنّ فعلها هو بسبب علاقتها بولدها ومحبّتها له، وفعل اللّه هو من هذا القبيل أيضاً.

وهناك أحاديث كثيرة تشير إلى أنّ اللّه أحياناً يرى صلاح العبد في فقره وفاقته، ولا سبيل إلى إصلاح أمر دينه غير الفقر وضنك العيش، فيبتليه بالفقر محبّة منه سبحانه لهذا العبد. والبعض الآخر لا طريق لحفظ إيمانهم سوى الثروة والغنى، فيغنيهم اللّه[٢]. بينما يكون الغنى والفقر أحياناً وسيلة لامتحان العبد.

وأُؤكّد مجدّداً على أنّه لا ينبغي للعبد أن يجلس واضعاً يداً على يد ويحجم عن العمل والمثابرة قائلاً: إلهي، اقسم لي ما تجده خيراً لي! بل إنّ العمل بالتكليف أمر، وإيكال الأمور إلى اللّه والرضا بقضائه أمر آخر.

وعلى أيّة حال، ينبغي للإنسان أن يرضى بما قسمه اللّه له، إن كان قليلاً أو كثيراً. إنّ لهذا الرضا معطيات دنيويّة وأُخرويّة؛ ففي الدنيا يشعر الإنسان بالهدوء والطمأنينة، وفي الآخرة ينال مقام أهل «الرضا».

---

(١) بحار الأنوار، ج١٣، الباب ١١، ص٣٤٨، الحديث ٣٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٩، الباب ١١٩، ص٣٢٧، الحديث ١٢؛ قال اللّه عزّ وجلّ: «إنّ من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاّ بالغنى والسعة والصحّة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحّة البدن، فيصلح عليهم أمر دينهم. وإنّ من عبادي المؤمنين لعباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاّ بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فيصلح عليهم أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين».

وممّا يؤسَف له أنّ معظم الناس غير راضين عن وضعهم المعاشيّ، ويشكون باستمرار، وليسوا بقانعين بما أعطاهم اللّه. فهم، لهذا السبب، لا يتمتّعون بأيّ راحة وطمأنينة، ويستحوذ القلق على كلّ جوانب حياتهم. بيد أنّ الإنسان المؤمن ملتفت إلى قضيّة أنّه لعلّ معظم الأشياء التي يأمل الناس في الحصول عليها، ويبذلون الغالي والنفيس من أجل الوصول إليها هي ليست في صالحهم، أو قد تكون من موجبات إيذائهم أو ازدياد مشاكلهم.

إنّنا نقرأ في دعاء الافتتاح: «**ولعلّ الذي أبطأ عنّي هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور**»؛ أي إلهي قد أسألك أحياناً أموراً، فترجئ الإجابة إلى حين آخر، فأضجر من هذا التأخير، غافلاً عن أنّ التأخير في استجابة الدعاء قد يكون خيراً لي، لأنّك خبير بعاقبة الأمور.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾[1]. إنّ مثل هذا الأمر يحدث كثيراً حتّى أنّ نفس الإنسان في بعض الأحيان يفهم أنّ الأمور التي كان يرغب فيها ويودّ لو ظفر بها، كانت ستضرّه إذا ما حصل عليها، وعلى العكس، فإنّه يلتفت إلى أنّ بعض الأمور، التي لم يكن راضياً بحصولها، وكان متنفّراً منها، تكون - عند تحقّقها - في صالحه وفيها خيره.

يحدّثنا القرآن الكريم بخصوص الأزواج قائلاً: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

(٢) سورة النساء، الآية ١٩.

وبناءً على ما تقدّم، ينبغي للمرء - في كلّ حال - أن يسلّم للّه كلّ أموره وشؤونه، ويرضى بكلّ ما قسمه اللّه له. ومن هذا المنطلق، فإنّ إحدى نتائج الإيمان الكامل هي اليقين، وثانيها الرضا بقضاء اللّه سبحانه وتعالى.

* * *

شرح مقاطع من دعاء مكارم الأخلاق

(١)

«اللّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد»

دعاء الصالحين

إنّ جميع الأدعية المأثورة عن أئمّتنا الأطهار عليهم السلام هي وسائل قيّمة للتقرّب إلى اللّه تعالى، إلاّ أنّ بعضها ينفرد بمزايا إضافيّة؛ فقد أودعت فيها كنوز من علوم ومعارف أهل البيت عليهم السلام، ومن خلال التدقيق والتأمّل فيها يمكن الانتفاع من هذه المعارف العميقة والنفيسة بما يتناسب وظرفيّة وفهم ومعرفة ودقّة القارئ، ودعاء مكارم الأخلاق[١] هو أحد تلك الأدعية، فكلّ مقطع من هذا الدعاء الشريف ينطوي على جملة من الدروس والعبر المهمّة للإنسان.

كما يبدو من اسم الدعاء، فإنّ موضوعه يتمحور حول المسائل

(١) الصحيفة السجّاديّة، الدعاء العشرون.

الأخلاقيّة، وعند سَبْر مضامينه يمكن العثور على نكات أخلاقيّة بالغة القدر والقيمة.

إنّ اسم الدعاء ينبّهنا إلى قضيّة وهي أنّه لا ينبغي للمرء، في مقام الطلب والمسألة من اللّه، أن يلتفت فقط إلى الأمور المادّية والدنيويّة. لعلّ التفات معظم الداعين أثناء الدعاء يكون منصبّاً على طلباتهم المادّية، والجسمانيّة، والاجتماعيّة، وما إلى ذلك وقلّما يلتفتون إلى حقيقة أنّ تحصيل الفضائل الأخلاقيّة يستدعي الطلب من اللّه أيضاً؛ بل لابدّ للدعاء من أجل نيل الفضائل الأخلاقيّة أن يكون أشدّ وأعمق بذات النسبة التي ترقى فيها مكارم الأخلاق على المسائل المادّية.

فنحن في العادة لا نتّجه إلى الدعاء، وطلب المعونة من اللّه إلاّ عندما نشعر أنّ السبل المادّية لتأمين حاجاتنا قد تقطّعت؛ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[1]. ففي وسط البحر، عندما يهيج، وترتفع أمواجه كالجبال، ويرى الإنسان نفسه قاب قوسين أو أدنى من الغرق، يرفع - حينئذ - يديه بالدعاء. وحينما يواجه معضلة مستعصية ويرى نفسه عاجزاً عن حلّها، يطلب - إذ ذاك - العون من اللّه عزّ وجلّ، في حين أنّ علينا أن نسأل اللّه بلوغ كلّ ما نطلبه، وبقاء كلّ ما في أيدينا؛ ذلك أنّ عالم الوجود بأسره في قبضته، وهو الممسك بزمام جميع الأسباب والمسبّبات، بل إنّ ما أعطانا إيّاه لا ضمانة لبقائه من ذاته، وإنّ بقاءه بيد اللّه وحده. فمن هذه الناحية، لا فرق بين الحاجات التافهة للإنسان، وحاجاته المعنويّة والأساسيّة.

إنّ على العامل، الذي يخرج من بيته صباحاً سعياً وراء لقمة

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

العيش الحلال، أن يفكّر في أنّ ما يملكه من يد وقدم وعين وعقل وحياة، وما إلى ذلك من نِعَم لا تعدّ ولا تحصى هي برُمّتها من عند اللّه جلّ شأنه، وأنّ أيّ خلل في أيّ من تلك الأسباب سوف يعوقه عن بلوغ مآربه وأهدافه. إذن، فعليه - زائداً على الكدّ والسعي - أن يطلب ما يحتاجه من اللّه.

كما أنّ على الطالب المنشغل في تحصيل العلم أن يسعى بجدّ واجتهاد في سبيل تحصيله، لكن ليعلم أنّ الأستاذ ورفيق البحث والكتاب والأذن التي يسمع بها والعقل الذي يدرك به والسلامة ...الخ جميعها من اللّه، وإذا لم يستقم أيّ منها فإنّه لا يتمكّن من الاستمرار في طلب العلم. إذن عليه أن يسأل اللّه أن يهيّئ له أسباب التعلّم.

إنّ من بين الحاجات الأساسيّة للإنسان هي اكتساب مكارم الأخلاق، والسجايا الإنسانيّة. وصحيح أنّ عليه أن يجدّ ويجتهد في تنظيف نفسه من الرذائل الأخلاقيّة، وإحلال فضائل الأخلاق محلّها، لكن لمّا كان زمام جميع الأسباب والمسبّبات بيد اللّه وحده وليس بيد غيره، فإنّ عليه أن يطلب التوفيق لاكتساب تلك السجايا من اللّه، فجميع الأسباب والوسائط المتوفّرة في نظام الخليقة هي مجارٍ للفيض الإلهيّ.

ذكر الصلوات من أجل استجابة الدعاء

إنّ ذكر الصلاة على محمّد وآل محمّد شعار للتأدّب تجاه النبيّ ﷺ، وهو من موجبات استجابة الدعاء. فقد جاء التصريح في بعض الأحاديث أنّه لاستجابة الدعاء عليكم بالشروع بالصلاة على

محمّد وآل محمّد، ذلك أنّ الصلاة على محمّد وآل محمّد مستجابة دائماً، وأنّ اللّه أكرم من أن يقضي الحاجة الأولى ويمنع الثانية(١). وروي أيضاً أن ابدأوا دعاءكم بالصلاة على محمّد، واختموه بها ليقع دعاؤكم بين دعاءين مستجابين فيجاب، لأنّ اللّه أكرم من أن يجيب أوّل الدعاء وآخره ويردّ وسطه(٢).

في هذا الدعاء الشريف أيضاً نرى أنّ الصلاة على محمّد وآل محمّد مذكورة في أوّله، وبعد كلّ بضع فقرات منه.

طريق الوصول إلى أكمل مراتب الإيمان وأفضل اليقين

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام بعد ذكر الصلوات: «**وَبَلِّغْ بِإِيمَانِي أَكْمَلَ الإِيمَانِ وَاجْعَلْ يَقِينِي أَفْضَلَ اليَقِينِ**».

عندما يسأل الإنسان اللّه الأمور المعنويّة فإنّ عليه أن يسأله أفضلها وأسماها. فإنّنا، فيما يخصّ حوائجنا المادّية والدنيويّة، نطلب في العادة الأفضل، ونسأل اللّه من ذلك أيضاً، إلاّ أنّنا نكتفي بأدنى مستوى إذا ما أتى الدور إلى اكتساب السجايا الإنسانيّة؛ فإن عَلَت همّتنا فغاية ما نفعله هو أن نحاول جهدنا أداء الواجبات، واجتناب المحرّمات كي لا نكتوي بنار جهنّم. لكنّ الإمام عليه السلام يعلّمنا هنا أن لا نكون ضعيفي

---

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا كانت لك إلى اللّه سبحانه حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله ثمّ سل حاجتك، فإنّ اللّه أكرم من أن يُسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويمنع الأخرى**»؛ نهج البلاغة، الكلمات القصار/ ٣٦١، ص٥٣٨.

(٢) عن أبي جعفر الصادق عليه السلام: «**من كان له إلى اللّه حاجة فليبدأ بالصلاة على محمّد وآله ثمّ يسأل حاجته ثمّ يختم بالصلاة على محمّد وآله فإنّ اللّه عزّ وجلّ أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط، إذ كانت الصلاة على محمّد وآله لا تُحجَب عنه**»؛ عدّة الداعي، ص٢١٠.

الهمّة وهابطي العزيمة، وأن نسأل اللّه في أدعيتنا إيماناً يوازي إيمان الأنبياء، ويقيناً يساوي يقين الصدّيقين، حتّى إذا لم نكن لائقين لبلوغ تلك المراتب، أعطانا اللّه منها ما يتلاءم مع ظرفيّتنا.

إنّ النِعَم المادّية الوافرة تكون باستمرار مصحوبة بالآفات؛ فكلّ ما عظمت النعمة المادّية، ازداد معها الإبتلاء، والإزعاج، والهمّ، والغمّ، على خلاف الآلاء المعنويّة؛ فهي كلّما تضاعفت، تعاظمت معها اللذّة، والسعادة، والكمال. من هنا ففي ميدان الأمور المعنويّة علينا أن نوجّه همّتنا إلى أسمى مراتب الإيمان واليقين، وأن نستعين باللّه لبلوغها.

إنّ للإيمان درجات، وهو قابل للزيادة والنقصان. يقول اللّه تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[1]. والإمام عليه السلام يطلب في هذا الدعاء من اللّه أعلى درجات الإيمان التي لا يشوبها أدنى نقص. ولعلّ العلّة من وراء استخدام الإمام عليه السلام لتعبير «أفضل» بالنسبة لليقين هو أنّ حقيقة اليقين هي الاعتقاد القطعيّ الذي لا يحتمل الشكّ؛ وبناءً عليه، لا يمكن الادّعاء أنّ لليقين مراتبَ، وأنّه يقبل الزيادة والنقصان، لكن من الممكن أن يكون له أنواع وصنوف تختلف فيما بينها من حيث الكيف؛ فالنوع الأوّل من اليقين هو ذلك الحاصل عن طريق الاستدلال ويسمّى «علم اليقين»، والنوع الآخر هو المتأتّي من الكشف والشهود ويدعى «عين اليقين»، أمّا النوع الثالث فهو الناتج من خلال وجدان الحقيقة والاتّصال بها ويقال له «حقّ اليقين».

(١) سورة الأنفال، الآية ٢.

ولتقريب الموضوع إلى الذهن يمكن تشبيه ذلك بشراب عذب سائغ في كأس، وشخص لم يره إلاّ أنّه علم بوجوده بإخبار مخبر صادق، وآخر شاهد الشراب في الكأس، وثالث شربه وتذوّق طعمه. فهنا كلّ واحد من الثلاثة متيقّن من وجود الشراب، إلاّ أنّ صفة اليقين وحالته تتفاوت من واحد لآخر. ولعلّ المقصود بـ «الأفضل» في الدعاء المذكور هو الصفة الأكمل والأحسن من اليقين التي يعبّر عنها علماء الأخلاق عادة بـ «حقّ اليقين».

تفاوت الإيمان والاعتقاد

إنّ حصول العلم والإدراك والاعتقاد ليس أمراً اختياريّاً. نعم قد تكون مقدّماته البعيدة اختياريّة، لكن مع توفّر المقدّمات يحصل الاعتقاد بمعزل عن إرادة الإنسان. فالمرء قد يرى شخصاً أمامه فيتيقّن من حضوره في هذا المكان، أو قد يضع يده على النار من دون اختيار فتحترق، فيحصل لديه اليقين أنّ النار محرقة. إذن قد يعلم الإنسان أموراً بدون أن تتدخّل إرادته في ذلك؛ حتّى أنّه من الممكن أن يشعر بالانزعاج من جرّاء علمه بتلك الأمور. لكن، من أجل حصول الإيمان، فزائداً على الاعتقاد اليقينيّ أو الظنّي، لابدّ من الاستعداد القلبيّ أيضاً؛ فعلى القلب أيضاً أن يكون مريداً لهذا الأمر ومنجذباً إليه.

إنّنا إذا اعتبرنا أنّ المحبّة صفة نفسانيّة، فإنّ هذا الانجذاب، والميل، والشوق، والمحبّة غير العلم. في هذا الجانب يتدخّل عنصر الاختيار؛ فمن الممكن أن لا يريد المرء شيئاً ولا يتقبّله، بالرغم من كونه متيقّناً منه. يقول القرآن الكريم عن آل فرعون:

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[١]. فبعد أن ظهرت الآيات الإلهيّة، وتلك المعجزات العظيمة على يد موسى عليه السلام، ومع أنّ آل فرعون كانوا قد أيقنوا من أنّ موسى نبيّ مرسل من قبل اللّه، وأنّ تلك المعجزات هي من عند الباري تعالى، إلاّ أنّهم أنكروها وجحدوها بدافع عنادهم وظلمهم واستعلائهم واتّهموا نبيّ اللّه بأنّه ساحر ومسحور. إذن فقد دخل اليقين إلى قلب هؤلاء، لكنّهم لم يؤمنوا وأنكروا؛ لأنّ نبيّ اللّه موسى عليه السلام يقول في خطابه لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾[٢]. في هذه الآية وردت أداتان للتأكيد هما «اللام» و«قد»؛ والمراد: إنّك تعلم حقّاً ويقيناً أنّ تلك الآيات لم يُنزلها إلاّ اللّه ربّ العالمين. فقال فرعون رغم ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[٣]، ولم يؤمن، إلاّ أنّه حينما أدركه الغرق في اليمّ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٤]. لكن لمّا كان كلامه هذا بدافع الاضطرار، فإنّه لم يُقبَل منه.

فالإيمان إذن لا يحصل بواسطة المقدّمات القهريّة، وإنّ لعنصر الاختيار في تحقّقه دوراً. كما أنّه لتحقّق الإيمان لا يلزم اليقين القطعيّ؛ فمن الممكن أن يؤمن المرء من خلال الظنّ القويّ أيضاً؛ أي إنّه فتح باب القلب لهذا الظنّ القويّ، ولم يلتفت إلى احتمال خلافه، فقَبِلَه. بيد أنّه لا يمكن الإيمان بالشيء بدون أن يكون لدى

(١) سورة النمل، الآية ١٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٠٢.

(٣) سورة القصص، الآية ٣٨.

(٤) سورة يونس، الآية ٩٠.

المرء علم، أو إحدى مراتب الظنّ. فالكثير ممّن آمن بالنبيّ ﷺ في صدر الإسلام لم يكن لديهم في البدء يقين كامل بالإسلام، ولهذا آل البعض، بسبب الشبهات التي كانت تتسرّب إلى أذهانهم مع مرور الوقت، إلى الارتداد، فخلعوا عن أعناقهم ربقة الإسلام.

إذن فالإيمان يحصل بالاعتقاد بأمر مّا والميل إليه. والاعتقاد يحتمل الشدّة والضعف، ويتراوح بين الظنّ حتّى أكمل أشكال اليقين. كما أنّ الميل أيضاً قابل للتغيير من الميل السطحيّ إلى أقصى مراتب العشق. هذان العنصران يؤثّران على قدرة الإيمان بحسب مقدار شدّتهما وضعفهما؛ فكلّما زاد اعتقاد الإنسان بأمر وتعاظم شوقه له، ازدادت قوّة إيمانه به بنفس النسبة، ومع انخفاض الاعتقاد والميل، تنقص شدّة وقوّة الإيمان كذلك.

واستناداً إلى ذلك، فمن أجل اكتساب الإيمان الكامل يتعيّن علينا تقوية اعتقادنا، وإيجاد أسباب أشدّ إتقاناً لإيماننا، وإزالة الموانع القلبيّة من أمامه.

علل مخالفة الأُمم للأنبياء

من بين العلل التي كانت توجب مخالفة معظم الأمم لأنبيائها في مطلع بعثتهم هي أنّ الأنبياء كانوا يدعون الناس إلى الإقرار بالمعاد، وكان القبول بهذه الدعوة بالغ الصعوبة بالنسبة للبعض. لقد صنع هؤلاء لأنفسهم آلهة وطفقوا يعبدونها، إلاّ أنّهم لم يؤمنوا بالإله الحقيقيّ؛ ذلك أنّ من لوازم قبول التوحيد هو الإقرار بالمعاد وبالحياة بعد الموت، ولمّا كان هؤلاء يتخيّلون أنّ قدرة الإله محدودة، فهم لم يستطيعوا التصديق بأنّ إلههم قادر على إحيائهم من جديد، وأنّهم

سيرون عواقب أعمالهم في عالم آخر. إنّ قبول المعاد يعني قبول أنّه سيأتي يوم يحاسَب الناس فيه على كلّ أعمالهم وتصرّفاتهم، ويُجزَون على تلك الأعمال إن كانت صالحة أم طالحة، والكفّار كانوا يتصوّرون أنّهم إذا أنكروا ذلك منذ البدء، فقد استراح بالهم واطمأنّوا، فيهنأون في إشباع نزواتهم ورغباتهم.

إنّ أفضل السبل لقبول المعاد هو التمعّن في قدرة اللّه عزّ وجلّ. فمثلما خلق البشر من العدم إلى الوجود، فإنّه سبحانه يمكنه أن يبعثهم من جديد. يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ * بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[1].

علامات اليقين

روي عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم صلّى بالناس الصبح فنظر إلى شابّ في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم : كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يارسول اللّه موقناً، فعجب رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنّ يقيني يا رسول اللّه هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعَزَفَت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نُصِب للحساب، وحُشِر الخلائق لذلك وأنا فيهم. وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون، وعلى الأرائك متّكئون. وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون**

(١) سورة القيامة، الآيات ٣ ـ ٥.

مصطرخون. وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي. **فقال رسول اللّه ﷺ لأصحابه: هذا عبد نوّر اللّه قلبه بالإيمان ...**»[١]. كما روي عنه عليه السلام قوله: «**من صحّة يقين المرء المسلم أن لا يُرضِيَ الناس بسخط اللّه، ولا يلومهم على ما لم يؤته اللّه**»[٢].

وممّا يُستشفّ من الآيات القرآنيّة أنّ الذين بمقدورهم الانتفاع من القرآن الكريم هم فقط أولئك المؤمنون بعالم الغيب، والموقنون باليوم الآخر؛ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * ... وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٣].

ومن أجل الظفر بعلم اليقين لابدّ من التمسّك بالإدلّة المحكمة الواردة في مجال معرفة اللّه وعالم الغيب. إنّ مزج اليقين بالعمل الصالح يزيح عن طريق الإنسان الموانع والظلمات، ويهيّئ نفس الإنسان لبلوغ عين اليقين وحقّ اليقين.

أحسن النيّات والأعمال

«**وَانْتَهِ بِنِيَّتِي إِلىٰ أَحْسَنِ النِّيّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلىٰ أَحْسَنِ الأَعْمٰالِ**»

ما يُستفاد من هذه الكلمات أنّ النيّة - كالعمل - فيها الأحسن وما دون الأحسن، وإنّ كمال ونقص الأعمال يتّبع كمال ونقص النيّات. فالنيّة الخالصة هي أن لايجد غير الحقّ إلى القلب سبيلاً، وإنّ نيلها أمر شاقّ للغاية. روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قوله: «**النيّة أفضل من**

---

(١) أصول الكافي، ج٢، باب حقيقة الإيمان واليقين، ص٥٣، الحديث ٢.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٧، الباب ٥٢، ص١٤٣، الحديث ٧.

(٣) سورة البقرة، الآيتان ٣ و٤.

العمل. ألا وإنّ النيّة هي العمل»[١]. ليس المراد من النيّة والعمل هنا الكمّ، بل الكيف. فالقرآن الكريم يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢]، ولم يقل: «ليبلوكم أيّكم أكثر عملاً».

أفضل العبادة

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**العبادة ثلاثة: قوم عبدوا اللّه عزّ وجلّ خوفاً؛ فتلك عبادة العبيد. وقوم عبدوا اللّه تبارك وتعالى طلب الثواب؛ فتلك عبادة الأُجَراء. وقوم عبدوا اللّه عزّ وجلّ حبّاً له؛ فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة**»[٣].

إنّ من غير الممكن توقُّع نيّة خالصة إذا كانت المعرفة والإيمان ضعيفين. فإنّ ما يدفع الإنسان إلى العمل هو الحافز الذي لديه، وإنّ الحافز يتبع معرفة المرء وإيمانه، وإنّ المعرفة والإيمان يشكّلان حقيقة النيّة. إذن فللحصول على النيّة الخالصة لابدّ من تقوية المعرفة والإيمان لدى الإنسان. كما أنّ النيّة الخالصة تأتي من خلال العمل الصالح، ذلك أنّ أفضل الأعمال هو ما رافقه أحسن النيّات. وبناءً على هذا، فإنّ مفتاح جميع الكمالات هو اكتساب المعرفة، وتقوية الإيمان.

ويستطيع الإنسان ـ إلى حدّ ما ـ أن يجلس فيسبُر غَور نفسه ويتفكّر بدوافعه ونيّاته من وراء أعماله، فيسأل نفسه: إذا لم تكن هناك جنّة ولا نار فهل كان سيَترُك وثير الفراش في جوف الليل ليقوم

(١) أصول الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، الحديث ٤.

(٢) سورة الملك، الآية ٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج١، الباب ٩، ص٦٢، الحديث ١٣٤.

فيصلّي صلاة الليل، أو يتحمّل جوع الصوم والحرمان من اللذّات المادّية في شهر رمضان من أجل رضا اللّه؟ أو هل كان سيعتزل الذنوب والمعاصي محبّة للّه وشكراً لآلائه؟

إنّ معرفة البعض تصل حدّاً تجعلهم يعبدون اللّه شوقاً إلى الجنّة ونعمها الوفيرة حتّى وإن لم يكن لجهنّم وجود. كما أنّ هناك من يعبد اللّه لا خوفاً من النار ولا شوقاً إلى الجنّة بل لأنّ اللّه أهل للعبادة، فيعبدونه لمزيد القرب إليه، ونيل محبّته، وشكر نعمائه.

إنّه لابدّ من الشروع بالسعي الحثيث والمتواصل من أجل الوصول إلى إخلاص النيّة. فلنُقوِّ إيماننا ويقيننا، ولنظفر بالنيّة الخالصة بالاستعانة باللّه ومن خلال العمل الصالح، والتفكّر بسرّ الوجود، وبحقيقة أنّ الوجود برمّته هو من عند اللّه، وأنّه ليس هناك مَن هو أكثر محبوبيّة من اللّه، ولا مَن هو أهل للعبادة غيره.

وبالطبع إنّ خلق الجنّة والنار، والوعد بالنعيم والإنذار من العذاب، لهو لطف عظيم من قبل اللّه على العباد، إذ أنّ القسم الأعظم من الناس لا يبلغون تلك المنزلة الرفيعة من المعرفة كي يعبدوا اللّه محبّة له فحسب، بل هم يعبدونه إمّا شوقاً إلى الجنّة أو خوفاً من جهنّم، وإذا لم تكن هناك جنّة ولا نار، فسوف يُسلب هؤلاء نتائج العبادة للّه والترك للمعاصي، فلا ينالون الكمالات المترتّبة عليها.

«اللَّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نِيَّتِي، وَصَحِّحْ بِمٰا عِنْدَكَ يَقِينِي، وَاسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ مٰا فَسَدَ مِنِّي»

إلهي! إنّني بضعفي لا أستطيع أن أنال الدرجات العالية من النيّة، فلابدّ أن تهيّئ أنت لي أسباب هذا الأمر. والمقصود من قوله:

«**بلطفك**» هنا هو النعم الإلهيّة الخاصّة؛ يعني، ينبغي أن تحوطني برأفتك ورحمتك كي أنال النيّة الصحيحة الكاملة. والنيّة الكاملة هي أن يُعبَد اللّه من أجل الشُكْر وأداء تكليف العبوديّة ليس غير؛ فنيّة العبادة في سبيل تحصيل الأجر والثواب، أو بسبب الخوف من عذاب الآخرة، وإن عُدّت نيّة صحيحة، إلاّ أنّها غير كاملة.

يستهلّ الإمام زين العابدين عليه السلام هذا الدعاء بفصل يتّخذ صفة المقدّمة التي تتضمّن الفهرست الجامع لمواضيع الدعاء أو المحاور الأساسيّة لمطالب الإمام عليه السلام التي يعرضها فيه. فمناط القيمة في الإسلام هو الإيمان والعمل الصالح، ومن أجل ترجمة ما نؤمن به، وتطبيقه في ميدان العمل، لابدّ من مقدّمات.

إنّ من لوازم الإيمان الكامل هو الاعتقاد اليقينيّ، وإنّ ما يربط الإيمان بالعمل هو النيّة. فالأكل، والسعي، والكدّ، والإمساك عن الطعام، والإقراض، والاقتراض، ...الخ ليست دائماً مرتبطة بالإيمان؛ فأيّ أحد بمقدوره القيام بتلك الأمور. فلا يصبح عمل الإنسان أفضل الأعمال ولا يتّصل بالإيمان إلاّ عندما تكون الواسطة نيّة إلهيّة. فأفضل النيّات تأتي بأحسن وأنفس الأعمال.

فالإيمان الكامل، والاعتقاد الذي يرتقي إلى أعلى مستويات اليقين، وأفضل ألوان النيّة الخالصة، وأنفس الأعمال هي المحاور الأساسيّة الأربعة، والعناوين الرئيسيّة لفصول دعاء مكارم الأخلاق.

ويمكن تشبيه مطالب الإمام عليه السلام في هذا الدعاء بهرم مربّع القاعدة. ففي مستهلّ الدعاء يلخّص محاور هذه الفضائل والقيم الرفيعة في أربعة مباحث، هي بمثابة الوجوه الجانبيّة لهذا الهرم،

وكلّ هذه الجوانب تنتهي بنقطة واحدة ألا وهي القرب من اللّه. إنّ جوانب هذا الهرم هي: أعلى مراتب الإيمان، وأفضل أنواع اليقين، وأنفس النيّات، وأحسن الأعمال. فهذا هو الشكل الخارجيّ للهرم. أمّا في داخل الهرم فترتبط هذه العناصر القيّمة الأربعة فيما بينها وتؤثّر إحداها على الأخرى فتنتج صفات قيّمة جديدة.

(٢)

بالنظر إلى أنّ فطرة الإنسان تميل إلى ما فيه خيره وسعادته، فعندما يلتفت الإنسان إلى أنّه لأيّ شيء خُلِق، ولأيّ هدف وُهِب رأس مال الحياة الذي هو تحت تصرّفه، وأيّ طريق عليه أن يسلك للوصول إلى سعادته، فسوف يبذل كلّ ما بوسعه لبلوغ أعلى درجات السعادة والكمال.

إنّ أوّل ما يجب الالتفات إليه، بعد المحاور الأساسيّة الأربعة التي سبقت الإشارة إليها، هو أن يجعل المرء كلّ همّه الوصول إلى غاية الخلقة؛ أي ما يوجب كماله وسعادته. من أجل ذلك، لاينبغي للفعاليّات اليوميّة، والدراسة، والسعي في طلب الرزق، والعلاقات مع الآخرين، وما إلى ذلك أن تؤدّي بالإنسان إلى الغفلة عن السير إلى اللّه.

في هذا الفصل يطلب الإمام عليه السلام من اللّه أن يوفّقه لبذل كلّ ما بوسعه من أجل الوصول إلى القرب الإلهيّ، وأن يؤَمِّن له ما يوجب الحرمانُ منه التوقّفَ عن المسير أو التباطؤَ فيه: «**اللّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّد وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَا يَشْغَلُنِي الاهْتِمَامُ بِهِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَداً عَنْهُ**».

إنّ الموانع الفكريّة والقلبيّة تعيق الإنسان عن التفكير في مسؤوليّاته تجاه اللّه عزّ وجلّ؛ فتأمين مستلزمات العيش، والشكليّات،

والمشاكل، و... الخ، من شأنها أن تحجب الإنسان عن التفكير بالوظائف الملقاة على عاتقه.

إنّ تأمين الحاجات الضروريّة للإنسان هو تكليف إلهيّ، وإنّ القيام بالتكليف بغية رضا اللّه هو عبادة، وللعبادة أثر في بلوغ الإنسان درجات الكمال. لكن، هل يكتفي كلّ من يسعى في طلب الرزق بأداء ما عليه من واجب؟ وهل إنّ نيّة سعيه خالصة في طاعة اللّه؟ هل إنّ مَن يتزوّج يكون اختياره للزوجة لمرضاة اللّه فحسب، ويتقيّد بلوازم ذلك؟ أم إنّ رغبته لها دخل أيضاً؟ ألا تسبّب له هذه الأمور انشغال القلب، وتكون حاجباً له عن العبادة والتوجّه إلى اللّه؟ وهل إنّ الهدف من كلّ النشاطات الاجتماعيّة والسياسيّة للمؤمن، الذي انخرط في سلك المجتمع والسياسة، هدف إلهيّ؟ أولئك الذين يدخلون معترك السياسة والمجتمع إذا شغلتهم الأمور السياسيّة والاجتماعيّة فلن يجدوا فرصة للنجوى مع اللّه والتوجّه إليه، فضلاً عن بذل كلّ ما أُوتوا من جهد وطاقة في عبادته سبحانه. إذن من أجل حلّ هذه المشكلة يتحتّم علينا أن نسأل اللّه ليؤَمّن لنا حاجاتنا، أو يوفّقنا لأن نؤَمّنها نحن بيسر وسهولة بحيث لا يمنعنا ذلك من القيام بوظيفة العبوديّة، والتوجّه إلى اللّه، وعبادته عبادة خالصة.

مسؤوليّة الإنسان

إنّ الإنسان مسؤول تجاه اللّه ليس غير، واللّه تبارك وتعالى فقط هو الذي من حقّه أن يسأل الإنسان؛ إذ أنّه هو ـ وليس غيره ـ منشأ كلّ الوجود. فاللّه هو الذي يعيّن مسؤوليّات الإنسان؛ مسؤوليّاته تجاه الوالدين، والجيران، والزوج، والناس، والحيوانات، ...الخ.

فهذه المسؤوليّات هي في الواقع مسؤوليّات للإنسان تجاه اللّه، وهو مسؤول عنها أمام اللّه. إنّ الحياة الدنيا هي محلّ امتحان واختبار للإنسان، وإنّ يوم القيامة هو الوقت الذي يُسأل فيه الإنسان عمّا أُوتي ووُضِع تحت تصرّفه. إذن عليه أن يستنفر كلّ همّته في سبيل أداء ما أُلقي على عاتقه من تكاليف، وأن يستعين باللّه من أجل أن لا تشغل حاجات المعيشة قلبه، وتجرّه إلى الغفلة عن ذكر اللّه وعن المسؤوليّات التي على عاتقه.

«وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ»

من أجل الاهتمام بالمسؤوليّات لابدّ أن تكون الانشغالات القلبيّة للإنسان محدودة، ولا ينبغي، حتّى لأداء الأمور الضروريّة، أن تجعل المرء يغفل عمّا على عاتقه من مسؤوليّات. فبالاهتمام بالمسؤوليّات، يقترب الإنسان من غاية الخلقة.

غاية الخلقة في القرآن

وردت في القرآن تعابير مختلفة بخصوص الهدف من خلقة الإنسان. فآية تقول: إنّ الهدف من خلقكم هو الامتحان: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]، وأخرى تعتبر الهدف من الخلقة عبادة اللّه جلّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، وثالثة تبيّن أنّ الإنسان خُلق لكي تشمله الرحمة الإلهيّة، ويبلغ قرب المولى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[3].

(١) سورة الملك، الآية ٢.
(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٦.
(٣) سورة هود، الآية ١١٩.

هذه الآيات وإن بدت في ظاهرها مختلفة، إلاّ أنّ هذه الآيات الثلاث تحصي مراحل حقيقة واحدة؛ أو بعبارة أخرى، إنّها تبيّن الهدف القريب والمتوسّط والنهائيّ لها. فالهدف الأساسيّ هو القرب من اللّه؛ أيّ إنّ الإنسان يوضع أمام العمل الاختياريّ والانتخاب، كي يختار عبادة اللّه، فينال القرب الإلهيّ نتيجة لذلك. فلو كان الإنسان مُجبَراً على سلوك الطريق الصواب، فإنّ مسيره لن يكون مسير التكامل الإنسانيّ. فالقرآن يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[1].

لقد جعل اللّه أمام الإنسان سُبلاً شتّى كي يكتشف ـ باختياره ـ السبيل التي توصله إلى كماله، فيسلكها. فإذا نجح في هذا الامتحان وانتخب السبيل الصواب، كان قد طوى مرحلة من مراحل التكامل الإنسانيّ.

ومن أجل أن تكون حياة المرء محبوبة عند اللّه، يجب عليه أن يخطو خطوة على طريق المراحل التالية للكمال، وأن يتصرّف بالشكل الذي يجعل العبوديّة للّه تهيمن على كلّ أبعاد حياته. فالحوائج الدنيويّة واللذّات المادّية هي ليست الغاية النهائيّة للإنسان، ولا ينبغي أن يعتني بها إلاّ بمقدار الضرورة، وأن يجعل من عبادة اللّه الوجهة لهمّته ليبلغ من خلالها مرتبة القرب الإلهيّ.

والعبادة مفهوم عامّ وهي لا تقتصر على الصلاة والصوم. فكلّ عمل مرغوب عند اللّه، ويُؤدَّى له وحده يعدّ عبادة؛ حتّى نوم الصائم في شهر رمضان عبادة، لأنّ الصائم يستريح كي يتفرّغ في السحر لمناجاة المولى وعبادته.

(١) سورة النحل، الآية ٩.

«وَأَغْنِنِي، وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ، وَلاٰ تَفْتِنِّي بِالنَّظَرِ»

في سبيل أن تكون حياة المرء مشبعة بعبادة اللّه عزّ وجلّ، فإنّه يجب أن لا تشكّل الحاجات المادّية (من مأكل، وملبس، ومسكن، ومحبوبيّة اجتماعيّة، وما شابه ذلك) عائقاً أمام حركته وسيره. فالكدّ وبذل الجهد لاكتساب الرزق الحلال هو بحدّ ذاته عبادة، إلاّ أنّ هناك بوناً شاسعاً بينها وبين العبادة التي تعطف قلب الإنسان إلى اللّه وحده، ذلك أنّ التفات الإنسان أثناء العبادة إلى غير اللّه يُبطئ من سيره نحو اللّه تعالى، إذ كلّما كان توجّه الإنسان إلى معبود الكون أشدّ، كان أسرع في سيره نحوه. فإن كان السعي وراء لقمة العيش الحلال لا يحرف انتباه الإنسان إلى غير الحقّ تعالى، ولا يقوده إلى الغفلة عنه، استطاع الإنسان أن يتفرّغ إلى عبادة الحقّ على نحو أفضل وأعمق، فيصل بذلك إلى التكامل الحقيقيّ.

إنّ من مقتضى الغنى والثروة، والتمتّع بالرزق الواسع، اغترار المرء بنفسه، وغفلته عن ربّه، والتمرّد على أوامره. لذا علينا أن نجهد، ونسأل اللّه في أن لا يؤدّي بنا السعي لكسب الرزق الحلال إلى غرورنا وغفلتنا عن المسؤوليّات التي أنيطت بنا.

«وَأَعِزَّنِي، وَلاٰ تَبْتَلِيَنِّي بِالكِبْرِ»

مثلما أنّ للإنسان حاجات بدنيّة (فسلجيّة)، فإنّ له بعض الحاجات الروحيّة والنفسيّة، التي من جملتها الإحساس بالحاجة لأن يكون محترماً. بالطبع ـ على الرغم من أنّ الواصلين إلى المقامات العالية من المعرفة لا يأبهون بما سوى اللّه وليسوا بحاجة إلى احترام

الآخرين لهم - فإنّ سدّ هذا النقص الطبيعيّ يدفع بالإنسان أحياناً إلى التكبّر، ويقف حجر عثرة أمام رُشده ورُقيّه.

وللتكبّر مفاسد جمّة، وهناك مفاسد أخرى تنتج عنه أيضاً، ولا سبيل إلى علاجها إلاّ بالتفكّر بحقيقة وجود الإنسان. فلو أدرك الإنسان حقيقة أنّه ليس له من نفسه شيء، وأنّ وجوده مرتبط بمُوجِد الكون، فأنّى له أن يرى نفسه أكبر من الآخرين.

«وَعَبِّدْنِي لَكَ، وَلاَ تُفْسِدْ عِبٰادَتِي بِالعُجْبِ»

إنّ مجرّد نيل التوفيق للعبادة غير كافٍ، فمن الممكن أن تُوجِد الوساوس الشيطانيّة شرخاً في عبادة المرء، فتبتليه بالعُجْب.

والعُجْب هو أن يحسب الإنسان العمل الصالح الذي قام به عظيماً وكثيراً، ويُسَرّ به، ويعتبر نفسه مستحقّاً للثواب عليه. وللعُجْب مراتب:

١. أن يَمُنّ الإنسان على اللّه بسبب أعماله الحسنة؛ وهذه أخطر مراتب العُجْب.

٢. أن يشعر بالنشوة من أعماله الصالحة في مقابل اللّه.

٣. أن يرى الإنسان نفسه مستحقّاً للثواب على أعماله.

٤. أن يعتبر نفسه أعلى مرتبة من غيره من المؤمنين.

إنّ لهذه الرذيلة العديد من المفاسد. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«من دخله العُجْب هلك»**[١].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١، الباب ٢٣، ص١٠٤، الحديث ٢٥١.

«وَأَجْرِ لِلنّاسِ عَلَىٰ يَدِيَ الخَيْرَ وَلاٰ تَمْحَقْهُ بِالمَنِّ»

قد يوفَّق الإنسان إلى مساعدة محتاج، أو مداواة مريض، أو إغناء فقير، أو أداء دين مدين، ...الخ، إرضاءً للّه، إلاّ أنّه يمنّ عليه بعد مدّة بقول أو فعل، كأن يقول له: لو لم أكن ولم أقدّم لك الخدمة الكذائيّة، لما كنتَ نجوت من تلك الورطة. إنّ هذا الكلام يبطل كلّ تلك الخدمات التي قام بها المرء. يقول اللّه تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[1].

«وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الأَخْلاٰقِ، وَاعْصِمْنِي مِنَ الفَخْرِ»

النكتة المهمّة والظريفة التي تستحقّ الالتفات هنا هي أنّ الرياء في العبادة، والمنّ في فعل الخير ليس هما الآفتين الوحيدتين اللتين تؤدّيان بالمرء إلى الهلاك، بل من الممكن أن يراقب الإنسان نفسه فلا يمنّ على الآخرين، ولا يرائي بعبادته، إلاّ أنّه يشعر في أعماق قلبه أنّه أكبر وأعظم من الآخرين، ويتخيّل نفسه أفضل منهم. إنّ إزالة مثل هذه الرذيلة يتطلّب جهداً جهيداً، وطلباً للعون والنصرة من الباري جلّ شأنه.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَلاٰ تَرْفَعْنِي فِي النَّاسِ دَرَجَةً إِلاَّ حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا»

كلّما زيد في علم العالِم انتبه أكثر إلى جهله. فلو سُئل أُمّي ممّن ليس له اطّلاع علميّ معتنى به: كم تجهل من المواضيع العلميّة؟ فقد

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

يشير إلى عشرة أو عشرين مورداً، إلاّ أنّه كلّما ازداد علمه، أصبح أكثر التفاتاً إلى جهله، فالشخص العالم ينظر إلى المجهول العلميّ غير المتناهي قدّامه.

وفقاً للرؤية المعرفيّة، فإنّه كلّما عرف الإنسانُ اللّهَ أكثر، ازداد التفاته إلى عدميّة نفسه، وجهله، وعجزه، وقلّة حيلته. فإن اعترف المرء بنقائصه نجى من الغرور، وإلاّ طغت نفسه، وألقت به في مهاوي الرذائل الأخلاقيّة. فهذا الإمام السجّاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثماليّ يعتبر نفسه أشدّ إثماً من الآخرين عندما يقول: «**فمن يكون أسوأ حالاً منّي**».

«وَلاٰ تُحْدِثْ لِي عِزّاً ظٰاهِراً إلاّ أَحْدَثْتَ لِي ذِلَّةً بٰاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهٰا»

كلّما ازداد أولياء اللّه من اللّه قرباً، اشتدّ تواضعهم. لكن في المقابل، إذا تعلّم الجهّال وقليلو البضاعة شيئاً، أو صنعوا معروفاً، أو قاموا بما يستوجب الثواب، تخيّلوا أنفسهم قد فاقوا الملائكة، أو إنّ خيرات الدنيا كلّها لا تداني فعلهم.

إذن مهما ازدادت معرفة عباد اللّه الصالحين، رأوا أنفسهم أكثر ذلاًّ في مقابل الباري عزّ وجلّ، فيشتدّ تواضعهم الحقيقيّ. والتواضع الحقيقيّ هو أن يرى الإنسان نفسه حقيراً حتّى في قرارة نفسه، لا أن يتظاهر بالتواضع أمام الناس، فهذا هو عين النفاق والرياء. غير أنّ التواضع الحقيقيّ لا يتيسّر إلاّ بلطف من اللّه، لأنّ ديدن النفس الإنسانيّة هو التمرّد والاغترار لأتفه الأسباب.

الهداية الثابتة

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَمَتِّعْنِي بِهُدىً صَالِحٍ لاٰ أَسْتَبْدِلُ بِهِ»

في هذا المقطع يطلب الإمام عليه السلام من اللّه دوام وبقاء هذه الكمالات حتّى آخر عمره من دون انحراف، وأن يثبّته دائماً على الصراط المستقيم.

جاء في شرح السيّد عليّ خان[١] لهذا الدعاء الشريف أنّه في إحدى النسخ القديمة من الصحيفة السجّاديّة بدلاً من قوله: «**بهُدىً** صالح» وردت العبارة على هذا النحو: «**بهَدْي صالح**»، والهَدْيُ بمعنى السيرة، والنهج. وبناءً على هذا النقل يكون معنى هذه الفقرة من الدعاء: «إلهي! اجعلني ممّن ينتهج نهجاً صالحاً لا يحيد عنه». أمّا إذا كانت على نحو «**بهُدىً صالح**» كان المعنى: «إلهي! اجعلني ممّن يهتدي هداية صالحة»؛ أي بالإضافة إلى كونها هداية فهي صالحة أيضاً، وقد لا يكون من المناسب التعبير بهذا القول. بالطبع من الممكن تبرير هذا المعنى، إلاّ أنّ «بهَدْي صالح» تبدو أكثر ملاءَمة إذ وردت عين هذه العبارة «الهَدْيُ الصالح» في بعض الأحاديث[٢].

«وَطَرِيقَةِ حَقٍّ لاٰ أَزِيغُ عَنْهٰا، وَنِيَّةِ رُشْدٍ لاٰ أَشُكُّ فِيهٰا»

ومن المحتمل أن يراد بالشكّ هنا معناه اللغويّ وهو الاضطراب،

---

(١) السيّد عليّ خان ابن الأمير نظام الدين أحمد بن محمّد معصوم الشيرازيّ المدنيّ (١٠٥٢-١١٢٠هـ.ق)، صاحب كتاب «شرح الصحيفة السجّاديّة» الذي يعدّ من أحسن الشروح وأغزرها وأطولها؛ الموسوعة الفقهيّة الميسّرة/ للشيخ محمّد علي الأنصاريّ، ص٥٣٥ ـ ٥٣٦.

(٢) قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**الهَديُ الصالح، والسَّمتُ الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوّة**»؛ بحار الأنوار، ج٦٨، الباب ٨٥، ص٣٤٣، الحديث ٢.

فيكون المعنى: «نيّة لا اضطراب فيها». لكن من الممكن أن يشكّ الإنسان في الأمر المنْويّ، أمّا نفس النيّة فلا تتّصف عادة بالشكّ واليقين.

في هذا المقطع من الدعاء يسأل الإمام زين العابدين عليه السلام اللّهَ ثلاث مسائل:

١. سيرةً صالحة وثابتة.

٢. طريقاً إلى الحقّ لا يزيغ عنه.

٣. إرادةً صلبة وثابتة على فعل الخير والصواب يداوم عليها ما بقي حيّاً.

وما يمكننا استخلاصه من هذه الجمل هو أنّ دوام وبقاء ما نطلبه من اللّه وما يهبنا اللّه إيّاه هو بيده، وأنّ علينا أن نسأل اللّه ذلك أيضاً. إنّ منزلة هذا المقطع من الدعاء توازي منزلة الدعاء الشريف: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[1]؛ فبعد أن كانت الهداية من اللّه، فلابدّ للاستقامة والثبات على الطريق الصواب أن تأتي منه أيضاً. يقول جلّ شأنه في محكم كتابه العزيز: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]. فمن جملة الأدعية التي كان يدعو بها أولئك الذين قدّموا كلّ ما لديهم في سبيل اللّه، وضحّوا بأموالهم

(١) سورة آل عمران، الآية ٨.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان ١٤٦-١٤٧.

وأنفسهم اتّباعاً للأنبياء هو هذا الدعاء: «إلهي! ثبّت أقدامنا على الصراط المستقيم».

إنّ الإنسان معرّض في كلّ لحظة إلى الخطأ والانحراف. فابن مُلجِم المراديّ كان ممّن يصلّي صلاة الليل، لكنّه في الوقت ذاته، لم يتوان عن قتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وضرب رأسه الشريف بالسيف. والزبير كذلك كان ابن عمّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام، وقد قاتل لأعوام بين يديّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، حتىّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دعا لسيفه وساعده، إلى أن صار من كبار المجاهدين ومن أصحاب بيعة الرضوان. لكن، بعد رحيل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم دفعه حبّ الجاه والمقام إلى أن يشهر سيفه بوجه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في حرب الجمل.

يقول المرحوم الحاج الميرزا عبد العليّ الطهرانيّ (رضوان اللّه تعالى عليه): «عندما كنت شابّاً كنت أسأل اللّه المراتب العليا من المعرفة ولم أكن أُعير اهتماماً لمراتبها الدنيا. كنت دائماً أطلب من اللّه أن يبلغني جواره وقربه ورضوانه. أمّا الآن، وقد طعنت في السنّ، فإنّني أطلب منه سبحانه وتعالى أن يميتني على الإسلام». فالرحيل عن الدنيا بحالة من الإيمان ليس بالأمر اليسير، إذ من المحتمل أن يفقد المرء إيمانه جرّاء شبهة واحدة ليس غير. إذن فمن المناسب أن نطلب من اللّه قائلين: إلهي! إنّك إذ هديتنا وعرّفتنا السبيل الصواب فثبّت أقدامنا على هذه السبيل، كي لا تتزلزل فيه. فإذا أصاب المرء الشكّ والتحيّر في العقيدة في آخر لحظات حياته قبل الموت، ذهبت كلّ أعماله الصالحة أدراج الرياح. يقول القرآن الكريم في هذا

المضمار: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

«وَعَمِّرْنِي مَا كَانَ عُمُرِي بِذْلَةً فِي طَاعَتِكَ، فَإِذَا كَانَ عُمُرِي مَرْتَعاً لِلشَّيْطَانِ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ مَقْتُكَ إِلَيَّ أَوْ يَسْتَحْكِمَ غَضَبُكَ عَلَيَّ»

نحن لا نملك القدرة على إدراك بواطن الإمام السجّاد عليه السلام، ولا نستطيع أن نتصوّر بشكل دقيق بأيّ حال ولأيّ دافع صدرت منه مثل هذه الكلمات. لكن، بصرف النظر عن حيثيّة صدور هذا الكلام، وهل إنّ افتراض مثل هذا الفرض بالنسبة للإمام عليه السلام أمر ممكن أم لا، أو إنّ دعاء الإمام عليه السلام كان نابعاً من المفروضات في نفسه أو لتعليم الآخرين، علينا الانتباه إلى أنّ مثل هذا الفرض بالنسبة لنا أمر ممكن. فنحن لسنا بمعصومين، ومن الممكن أن يصبح عمرنا مرتعاً للشيطان. فأعمارنا، وأرواحنا، وقلوبنا هي كأرض يدخلها الشيطان بكلّ يسر. فإذا امتلأت كل لحظة من أعمارنا بالآثام والانحطاط، وجرّ ذلك إلى سحق الكمالات التي سبق أن حصلنا عليها، فمن الأفضل أن يُختتَم هذا العمر بأسرع ما يمكن.

إذا اعتقد الإنسان بوجود الآخرة، فإنّه يتعيّن عليه أن يدعو بهذا الدعاء بمجامع قلبه. فلربّما وقع المرء يوماً فريسة المعصية، وتسلّطت الشهوة، والغضب، والتعلّق بمقامات الدنيا على نفسه، وأُسدِل حجاب الغفلة على قلبه، فعمي بذلك قلبه وبصره، ولم يعد

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٧.

يرى أو يعرف غير نزواته ورغباته النفسانيّة، حينها لن يكون هناك سبيل للأوبة والعودة. فحريّ بالإنسان قبل أن يُبتلى بمثل هذه الحالات أن يبادر فيتوسّل إلى اللّه بأنّه إذا كان من المقرّر أن يأتي عليه مثل هذا اليوم، فليختم عمره في نفس تلك اللحظة كي لا تتدهور حاله إلى مثل هذا الوضع.

وهذا الدعاء بحدّ ذاته يوجب إصلاح أعمال الإنسان، فهو يدفع بالإنسان إلى التفكّر في هذا الأمر فلا يدع للشيطان سبيلاً ليسيطر على قلبه، ويُحكم سيطرة نفسه على منافذ قلبه كي لا تنفذ إليه الشكوك والشبهات. يقول القرآن الكريم في هذا الخصوص: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1]. يريد القرآن أن يقول هنا: إنّ من المناسب إسداء هذه النصيحة حتّى لشخص كالرسول الأكرم ﷺ ذلك أنّه من الممكن أن يكون للكلام الباطل أثر حتّى عليه.

هذا الكلام ـ بالطبع ـ لا يتنافى مع الحرّية. بالضبط كما لو قيل لشابّ يافع: لا ترفع ثقلاً بزنة ٢٠٠ كيلو غرام فيقصم ظهرك، وإذا رغبت أن تكون رافع أثقال تحتّم عليك أن تتدرّب لسنين طوال من أجل أن تكتسب ـ شيئاً فشيئاً ـ القدرة على رفع الأوزان الثقيلة، فإنّ ذلك لا يتعارض مع الحرّية أيضاً.

الآن وقد شخّصنا طريق الحقّ، فإنّه لا ينبغي أن نتّبع ـ من الآن فصاعداً ـ الكلام الباطل، فلن نجني من ورائه سوى الاضطراب،

(١) سورة الأنعام، الآية ٦٨.

والشكّ، والتحيّر. وفي هذا الدعاء يطلب الإمام عليه السلام من اللّه أنّه إذا كان ولابدّ أن تنقلب حياتي إلى مرتع للشيطان، فاقبض روحي واختم عمري قبل أن يَحِلّ عليّ غضبك، وإذا غضبت عليّ فأعنّي على أن أُنيب فأجبر ما به استوجبتُ غضبك، حتّى لا يدوم غضبك عليّ. يقول عزّ من قائل في كتابه الكريم: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾[1].

«اللَّهُمَّ لاٰ تَدَعْ خَصْلَةً تُعٰابُ مِنّي إلاّ أَصْلَحْتَهٰا، وَلاٰ عٰائِبَةً أُؤَنَّبُ بِهٰا إلاّ حَسَّنْتَهٰا، وَلاٰ أُكْرُومَةً فِيَّ نٰاقِصَةً إلاّ أَتْمَمْتَهٰا»

والمقصود من الصفات والعيوب التي تجلب انتقاص الآخرين ومذمّتهم هي الصفات التي لا تكون محطّ قبول ورضى الصالحين، وليس الصفات الحسنة التي يتخّذها البطّالون والفُسّاق غرضاً لسخريتهم وتقريعهم.

(١) سورة طه، الآية ٨١.

(٣)

من وجهة نظر الإسلام فإنّ الإنسان موجود اجتماعيّ، وليس بمقدوره نيل الكمال الحقيقيّ عن طريق الاكتفاء بعباداته الفرديّة. بل إنّ لبلوغ جميع مراتب الكمال لابدّ له من العيش بين الناس، والاحتكاك مع المجتمع، وعبادة اللّه في كلّ جوانب حياته الاجتماعيّة؛ من علاقة مع الزوج، والأولاد، والأصدقاء، والأعداء، والجيران، وصولاً إلى المعاملات، والجهاد، والدفاع، والحكومة، وعلاقات الشعب مع الحكومة، ...الخ، وذلك من خلال الطاعة لأوامر اللّه عزّ وجلّ، من أجل الوصول إلى القرب الإلهيّ.

لكنّ هذه الارتباطات والعلاقات تؤدّي أحياناً إلى الانزعاج، أو انشغال القلب، أو المواجهة مع الآخرين. هذه المواجهات تكون تارة مع الأشخاص الذين يضمرون للمرء خصومة، قد تكون نابعة من أمور دنيويّة أو دينيّة، وتارة أخرى تنشأ تلك العداوات والانشغالات القلبيّة من حسد الآخرين للإنسان بسبب النعم التي أسبغها اللّه عليه. وهذا الحسد يخلق للإنسان خصوماً، ويزرع في مسيره العراقيل.

وفي أحيان أخرى قد لا تكون للمرء عداوة مع أحد، ولا يضمر الطرف المقابل الحسد تجاهه، إلاّ أنّهما يختلفان في الذوق ولا يفهم كلّ منهما الآخر بشكل صحيح، فيبعث ذلك على سوء تفاهم ونوع من المواجهة فيما بينهما.

إذن هناك العديد من الأمور القلبيّة كالعداوة، والبغضاء، والحسد، وسوء الظنّ، والظِنَّة، والتشاؤم، وسوء الفهم، والاختلاف في الأذواق، من شأنها أن تعوق قدرة الإنسان على إقامة علاقات سليمة وودّية وحميمة مع الآخرين، وهو الأمر الذي يبعث على الكدورة، والقلق، وانشغال القلب لدى الإنسان، ولعلّها تكون سبباً في إضعاف حضور القلب عنده أثناء العبادات. ويشير الإمام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع لمثل هذه الأمور.

استبدال الحسنات والخيرات بالشرور والآفات

«**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَأَبْدِلْنِي مِنْ بِغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَآنِ المَحَبَّةَ، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ البَغْيِ المَوَدَّةَ، وَمِنْ ظِنَّةِ أَهْلِ الصَّلاحِ الثِّقَةَ، وَمِنْ عَدَاوَةِ الأَدْنَيْنَ الوَلايَةَ**»

المراد من «الأدنين» هنا هم الأرحام الأقربون. فعلاقة الإنسان مع مختلف الأشخاص متفاوتة، فكلّ من الارتباط مع الأرحام الأقربين، وأولئك الأبعدين، والجيران، وغيرهم يتطلّب علاقات خاصّة.

«**وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الأَرْحَامِ المَبَرَّةَ**»

فلابدّ أن تكون بين الأرحام الأقربين روابط خاصّة لا تنفصم، وأن يكونوا رحماء فيما بينهم، ولا يُسيئوا معاملة بعضهم البعض.

«**وَمِنْ خِذْلانِ الأَقْرَبِينَ النُّصْرَةَ**»

فقد يحتاج الإنسان أحياناً إلى معونة أرحامه الأقربين ونصرتهم لكنّهم لا يهبّون لنصرته ومساعدته.

«**وَمِنْ حُبِّ المُدَارِينَ تَصْحِيحَ المِقَةِ**»

أيّ، إلهي! أبدل المحبّة التي يتظاهر بها البعض والتي لا تكون من أعماق قلوبهم إلى محبّة حقيقيّة.

«وَمِنْ رَدِّ الْمُلاٰبِسِينَ كَرَمَ الْعِشْرَةِ»

فهناك أشخاص ممّن تربطني معهم علاقات إلاّ أنّهم لا يقبلون باقتراحاتي وآرائي فأبدل اللهمّ تصرّفاتهم هذه تجاهي إلى معاشرة كريمة.

«وَمِنْ مَرٰارَةِ خَوْفِ الظّٰالِمِينَ حَلاٰوَةَ الأَمَنَةِ»

فالظلمة وأهل الجور يهدّدون حياة الناس، وهم ـ وإن لم يترجموا تهديداتهم على أرض الواقع ـ يزرعون في قلوب الناس الذعر والهلع، وإنّي أسألك يا إلهي أن تبدّل هذا الخوف والذعر إلى أمن وطمأنينة.

الاستعانة في دفع الشرور وجلب الخيرات

يتعلّق القسم الآتي من الدعاء بوقت يكون فيه ظالم، أو حسود، أو ما شابه في صدد إبداء ظلم، أو إجحاف، أو تَعَدٍّ. هنا يطلب الإمام زين العابدين عليه السلام من اللّه أن لا يكون لظلم هذا الظالم أثر سوء عليه، فيقول:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاجْعَلْ لِي يَداً عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنِي»

أي، أن أتمكّن من الصمود بوجه ظلم من يريد بي السوء.

«وَلِسٰاناً عَلَىٰ مَنْ خٰاصَمَنِي»

كي أستطيع أن أردّ على من خاصمني وبادرني بكلام بذيء (بما يتناسب طبعاً مع الأخلاق الإسلاميّة).

«وَظَفَراً بِمَنْ عٰانَدَنِي»

فلا أقع تحت تأثير مكر الماكرين وحيلة المحتالين.

«وَهَبْ لِي مَكْراً عَلَىٰ مَنْ كٰايَدَنِي»

أي قوّة لإبطال كيد الكَيَدة.

«وَقُدْرَةً عَلَىٰ مَنْ اضْطَهَدَنِي، وَتَكْذِيباً لِمَنْ قَصَبَنِي»

أي القدرة على الردّ على انتقاصات الآخرين الباطلة لي.

«وَسَلاٰمَةً مِمَّنْ تَوَعَّدَنِي، وَوَفِّقْنِي لِطٰاعَةِ مَنْ سَدَّدَنِي وَمُتٰابَعَةِ مَنْ أَرْشَدَنِي»

وفي المقابل وفّقني لأن أطيع من هداني وأتّبع من دلّني على سبيل السعادة.

الاحسان في مقابل إساءة الآخرين

هذا المقطع يحدّد وظيفتنا بعد حصول الظلم والتعدّي على حقوقنا. فهل ننتقم من الظالم ونردّ عليه بما يشابه فعله؟ أم أن نصفح عنه ونعفو عن ظلمه وإثمه؟ يقول اللّه تعالى في قرآنه الكريم: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(١).

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْنِي لأَنْ أُعٰارِضَ مَنْ غَشَّنِي

(١) سورة فصّلت، الآية ٣٤.

بالنُّصْحِ، وَأَجْزِيَ مَنْ هَجَرَنِي بالبرِّ، وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بالبَذْلِ، وَأُكافِيَ مَنْ قَطَعَنِي بالصِّلَةِ، وَأُخالِفَ مَنْ اغْتابَنِي إِلىٰ حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الحَسَنَةَ وَأُغْضِيَ عَنِ السَّيِّئَةِ»

حفظ ماء الوجه

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَصُنْ وَجْهِي بِاليَسارِ، وَلا تَبْتَذِلْ جاهِي بِالإِقْتارِ فَأَسْتَرْزِقَ أَهْلَ رِزْقِكَ»

وردت في نهج البلاغة تعابير تشبه إلى حدّ كبير الجمل الأولى لهذا المقطع، فجميع المعصومين عليهم السلام نور واحد، وإنّ إنشاء دعاء واحد من عدد من المعصومين عليهم السلام ليس بالأمر الغريب أبداً، ولعلّ الإمام زين العابدين عليه السلام قد تعلّم هذا الدعاء من جدّه أمير المؤمنين عليه السلام.

إنّ عبارة «ماء الوجه» تتكوّن من مفردتيّ «ماء» و«وجه»، ومثل هذا النوع من التعابير مستخدم تقريباً في جميع الثقافات.

إنّ كلّ امرئ يرغب في أن يحفظ جاهه وماء وجهه في المجتمع؛ أي عندما ينظر الناس إلى وجهه يظهرون له الاحترام ولا ينظرون إليه نظرة الاحتقار. فإن كان شكل الإنسان، ولباسه، وسلوكه، وطباعه، وتصرّفاته في مجال القِيَم مجلبة لإطراء الآخرين، كان وجيهاً في المجتمع. أمّا إذا كان شكله، وطبعه، وتصرّفاته في مجال القِيَم ممّا يوجب تنفّر الآخرين منه، فلن تكون له وجاهة في ذلك المجتمع، ولن يحترمه أحد من أفراده.

يعتقد بعض المتصوّفة أنّه يجب أن لا يتزيّن المرء في ظاهره،

وأن يمتنع عن الاستحمام، وحلاقة شعر الرأس والوجه، وتنظيف الملابس، فتؤدّي الرائحة النتنة التي تنبعث من أجسادهم وملابسهم وشعرهم الأشعث إلى نفور الآخرين منهم. إنّهم يتخيّلون بعقولهم الساذجة أنّهم، بهذا التصرّف، إنّما يجاهدون أنفسهم من أجل الوصول إلى نوع من الكمال الروحيّ، في حين أنّ مثل هذه الأعمال والتصرّفات تؤدّي إلى إقامة ضرب من ضروب العلاقة مع الشيطان، بل وإنّ الشيطان قد يمدّ لهم يد العون في بعض أمورهم ممّا يبعث على ارتياحهم وسرورهم، لاعتقادهم أنّ هذه الإعانات هي دليل على كون مسلكهم حقّاً.

وما يُستشَفّ من القرآن الكريم وأخبار الأئمّة الأطهار عليهم السلام أنّ هذا العمل مذموم جدّاً. بل إنّ القرآن يمتدح الفقراء والمعوزين الذين لا يُظهرون فقرهم وعوزهم على الملأ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[1].

وحسب الرؤية الإسلاميّة، فإنّ على الإنسان في ارتدائه للثياب، والتعامل مع الآخرين - سواء مع الأسرة أو في التعاملات الاجتماعيّة - أن يتصرّف بالشكل الذي يؤدّي إلى احترام الناس له. فروايات أهل البيت عليهم السلام ليس فقط لم تذمّ الأفراد الذين يحتفظون بلباسين - فاللباس الأفضل والأنظف يبقونه لأيّام العيد والجمعة واجتماعات المسلمين، ولباس آخر يخصّصونه لأوقات العمل - ولم تَعُدّ عملهم هذا شكلاً من أشكال حبّ الدنيا، بل إنّها امتدحت هؤلاء الأشخاص وأطرت عليهم. كما أنّ على أفراد المجتمع

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

الإسلاميّ أن يتعايشوا ويوطّدوا علاقاتهم مع بعضهم أكثر فأكثر، وأن يتحابّوا، وهذا من شأنه أن يهيّئ سبل ترقّيهم وتكاملهم على الصعيدين المادّي والمعنويّ. فقد جاء التأكيد في الأحاديث أنّ على المؤمنين أن يغمزوا الأيدي عند المصافحة، ويحبّ بعضهم البعض. فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**إنّ المؤمنَين إذا التقيا فتصافحا أدخل اللّه عزّ وجلّ يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدّهما حبّاً لصاحبه**»[1].

كلّ هذه الوصايا وهذا التشجيع هو من أجل توثيق العلاقات بين المؤمنين وتقوية أواصر المحبّة والألفة بينهم. إنّ من لوازم هذا التعاطف والارتباط والمحبّة هو الابتعاد عن الأمور التي توجب نفور الآخرين. فما من شخص يحبّ أن يصافح إنساناً وسخاً عفن الرائحة أشعث الشعر، بل قد لا يرغب المرء حتّى بالنظر إلى مثل هذا الشخص، فضلاً عن أن يجالسه ويتحدّث إليه ويسمع كلامه. بناءً على هذا، فإنّ النظافة هي مقدّمة الصداقة والمودّة.

ومن سيرة نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان إذا خرج لملاقاة أصحابه سرّح شعره بالمشط وساك أسنانه ورتّب ثيابه. ثمّ ينظر بعدها في المرآة ليتأكّد من عدم وجود أيّ نقص في زينة ثيابه أو وجهه أو شعر رأسه، فإن لم يجد مرآة نظر في إناء فيه ماء[2]. هذا التقيّد بالنظافة والترتيب

(١) أصول الكافي، ج٢، باب المصافحة، ص١٧٩، الحديث ٣.

(٢) «عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه كان ينظر في المرآة ويُرَجِّل جُمَّتَه (مجتمع شعر الرأس) ويمتشط، وربّما نظر في الماء وسوّى جمّته فيه. ولقد كان يتجمّل لأصحابه فضلاً عن تجمّله لأهله. وقال: **إنّ اللّه يحبّ من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيّأ لهم ويتجمّل**»؛ وسائل الشيعة، ج٥، الباب ٤، ص١١، الحديث ٥٧٥٦.

وتشجيع الناس عليها هو من أجل أن يتّحد أفراد المجتمع مع بعضهم أكثر ويتحابّوا، كي يجنوا فائدة أكبر من أنوار بعضهم البعض. إنّ أحد الفوارق التي تميّز المؤمن عن الكافر هو أنّ المؤمن يطلب ماء الوجه والجاه كوسيلة للقيام - في ظلّه - بالوظائف الاجتماعيّة التي عيّنها له الشارع، بيد أنّ الكافر يسعى وراء الجاه كغاية.

إنّ عقل معظم الناس يكمن في أعينهم، فعامّة الناس لا يكترثون للإنسان الفقير، ومن الصعب على مثل هذا الشخص أن يحصل على مكانة اجتماعيّة حتّى بين المؤمنين. أمّا بالنسبة للإمام عليه السلام فليس للمال والثروة عنده أيّ قيمة، إلاّ أنّه يطلب المال من اللّه من أجل حفظ ماء وجهه وكرامته، فيتمكّن من خلال المكانة الاجتماعيّة التي حصل عليها أن ينجز تكاليفه الإسلاميّة والإيمانيّة.

والإنسان المحتاج للآخرين يكون مجبراً على مدّ يد الحاجة والعوز إليهم، فإن ساعدوه صار حقيراً، وإن ردّوه تحمّل انكساراً أكبر، والحال أنّ خزائن السماوات والأرض بيد اللّه وأنّ بإمكانه، بلطفه وكرمه الذي لا حدّ له، أن يقضي حاجة الإنسان بنفسه كي يبقى ماء وجهه مصوناً.

«وَأَسْتَعْطِيَ شِرَارَ خَلْقِكَ، فَأَفْتَتِنَ بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُبْتَلَىٰ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيُّ الإِعْطَاءِ وَالمَنْعِ»

أحياناً يكون الإنسان صاحب حاجة ولا يكون سدّها في عالم المادّة إلاّ بيد امرئ شرّير دنيء. لذا على الإنسان أن يتوسّل إلى اللّه دائماً أن يجعل تلبية مثل هذه الحوائج بيده ومن خزائنه الغيبيّة حتّى لا يضطرّ إلى مدّ يد الحاجة إلى شرار خلقه. يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾(١).

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْنِي صِحَّةً فِي عِبَادَةٍ، وَفَرَاغاً فِي زَهَادَةٍ»

ليست الصحّة والراحة مطلوبتين بذاتهما عند الإمام عليه السلام، بل إنّه يطلب السلامة وفراغ البال من الضغوط اليوميّة والمراجعات والأعمال الشاقّة من أجل عبادة اللّه؛ أي لابدّ لهذه الصحّة والطمأنينة أن تكونا مشفوعتين بالعبادة والزهادة.

«وَعِلْماً فِي اسْتِعْمَالٍ، وَوَرَعاً فِي إِجْمَالٍ»

هناك أشخاص يحبّون أن يكونوا من المتّقين والزهّاد، إلاّ أنّ ذلك يجرّهم إلى احتياط في أمور ليست هي محلاً للاحتياط، بل إنّ احتياطهم قد يحول بينهم وبين أداء الواجبات أحياناً. لذا، من الضروريّ أن يعرف المرء حدود الزهد والتقوى بشكل جيّد قبل أن يضع قدمه في هذا المضمار.

«اللَّهُمَّ اخْتِمْ بِعَفْوِكَ أَجَلِي، وَحَقِّقْ فِي رَجَاءِ رَحْمَتِكَ أَمَلِي»

فحينما ينظر المرء إلى ذنوبه يفقد كلّ أمل بالعفو والمغفرة، إذ ذاك يلوح له الرجاء برحمة اللّه عزّ وجلّ على هيئة أمل في ذلك.

«وَسَهِّلْ إِلَىٰ بُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلِي، وَحَسِّنْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِي عَمَلِي»

(١) سورة يونس، الآية ١٠٧.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَنَبِّهْنِي لِذِكْرِكَ فِي أَوْقَاتِ الغَفْلَةِ»

علاوة على أنّ الإنسان مبتلى بالغفلة باستمرار، تحدث أحياناً حوادث تجعله ينسى ذكر اللّه بشكل كامل. إذن علينا أن نسأل اللّه أن يغيثنا في مثل تلك المآزق، وينبّه قلوبنا، ويلهمنا ذكره.

«وَاسْتَعْمِلْنِي بِطَاعَتِكَ فِي أَيَّامِ المُهْلَةِ»

أي فيما بقي من عمري.

«وَانْهَجْ لِي إِلَىٰ مَحَبَّتِكَ سَبِيلاً سَهْلَةً، أَكْمِلْ لِي بِهَا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»

إنّ هدفي هو الوصول إلى محبّتك، لكنّ الطريق لبلوغ هذه المحبّة وعر ومليء بالمنعطفات. فارسم لي طريقاً سهلة لذلك، فإنّك إن استجبت دعائي، ودللتني على طريق سالكة إلى محبّتك، تكون قد أكملتَ لي خير الدنيا والآخرة.

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ كَأَفْضَلِ مَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ قَبْلَهُ، وَأَنْتَ مُصَلٍّ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَهُ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنِي بِرَحْمَتِكَ عَذَابَ النَّارِ»

(٤)

اتّصاف بعض الأزمنة والأمكنة في القرآن بالشرف

لقد منح اللّه سبحانه وتعالى بعض مخلوقاته شرفاً وفضلاً زائداً عن غيرها، وأعدّ لها مقاماً وعزّة وشرفاً وكرامة لا تليق بغيرها من الموجودات.

وما يُستشَفّ من القرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشريفة، وروايات أهل البيت عليهم السلام أنّه، علاوة على بعض الموجودات العينيّة التي تمتاز بمراتب من الفضل على غيرها، فإنّ لبعض الأزمنة والأمكنة أيضاً خصوصيّات معيّنة.

وفي القرآن الكريم ذُكرَت أسماء بعض الأمكنة باحترام وإجلال خاصّين. من جملة تلك الأمكنة «الكعبة المكرّمة»: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

والمكان المقدّس الثاني هو «المسجد الأقصى» وقد ذُكر اسمه في القرآن جنباً إلى جنب مع المسجد الحرام: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[2]؛ بل إنّ الباري جلّ وعلا يقول هنا: إنّنا لم نبارك المسجد فحسب، بل وما

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١.

حوله أيضاً. وفي آية أخرى يقول عزّ من قائل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(١).

والمكان الثالث هو «طور سيناء» الذي عبّر عنه القرآن بـ«طور سينين»: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾(٢)، وجبل الطور هو المكان الذي كان النبيّ موسى عليه السلام يناجي فيه ربّه، وفي هذا المكان الشريف نزل أوّل وحي إلهيّ عليه.

ومن المحتمل أن تكون لهذه الأمكنة خصوصيّة تكوينيّة، وأنّ قداستها قداسة ذاتيّة، وفي هذه الحالة فلربما يأتي زمان يتوصّل البشر فيه إلى خصوصيّتها. إلاّ أنّه من الممكن أيضاً أن تكون قد اكتسبت قدسيّتها من الأحداث التي وقعت فيها. ومهما كان السبب، فإنّ لهذه الأمكنة قدسيّة وشرفاً خاصّين.

علاوة على الأمكنة، فإنّ بعض الأزمنة أيضاً تحظى في القرآن الكريم باحترام مميّز. فالمستفاد من النصّ القرآنيّ أنّ تنظيم الأيّام وفقاً للشهور القمريّة هي من اهتمامات الإسلام؛ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾(٣). لقد جعل اللّه عزّ وجلّ من بين هذه الأشهر الاثني عشر أربعة أشهر وعدّها حُرُماً (هي ذو القعدة، وذو الحجّة، ومحرّم، ورجب)، وأوجب احترام تلك الشهور الأربعة، وحرّم فيها القتال حتّى على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام إلاّ أن تُشَنّ

(١) سورة المائدة، الآية ٢١.

(٢) سورة التين، الآية ٢.

(٣) سورة التوبة، الآية ٣٦.

الحرب من قبل الكفّار والمعاندين ويكون المسلمون في موضع الدفاع عن أنفسهم. كلّ ذلك بسبب الاحترام الذي جعله اللّه سبحانه وتعالى لهذه الأشهر.

كذلك فقد سمّى القرآن الكريم شهر ذي الحجّة والشهرين السابقين له (وهما شوّال وذو القعدة) - التي يستعدّ فيها الحجيج عادة لسفر الحجّ - بأشهر الحجّ، وهناك سورة في القرآن باسم «سورة الحجّ». إضافة إلى ذلك، فقد ورد الحديث عن مناسك الحجّ في سور قرآنيّة أخرى إلاّ أنّ أسماء تلك الشهور لم ترد في أيّ موضع من القرآن الكريم.

فضيلة شهر رمضان وليلة القدر

من بين أشهر السنة [الهجريّة] لم يرد في القرآن الكريم اسم لأيّ شهر عدا شهر رمضان المبارك. وعلى الرغم من أنّ شهر رمضان لا هو ضمن الأشهر الحُرُم ولا هو من أشهر الحجّ، إلاّ أنّ القرآن ذكره بإجلال خاصّ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[1]. كما أنّ الليلة التي نزل فيها القرآن على قلب النبيّ الكريم ﷺ، والتي هي من ليالي هذا الشهر، عبّر عنها القرآن بالليلة المباركة: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[2].

إنّ لهذا الشهر الشريف خصوصيّة تكوينيّة، والدليل هو أنّ التشريعات الإلهيّة لا تُشرَّع من دون ملاحظة مصالحها ومفاسدها.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٢) سورة الدخان، الآية ٣.

إذن ففي هذا الشهر مصالح أدّت إلى تفضيله من قبل اللّه تعالى على بقيّة الأشهر. ففيه ليلة القدر، كما أنّ الحكم بتشريع الصيام جاء في هذا الشهر. يقول القرآن الكريم في هذا الجانب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[1]، ثمّ يتبعه بالقول بعد ذلك: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[2].

والذي نستشفّه من هاتين الآيتين أنّ الصيام الذي أُوجِب على الإنسان إنّما أُوجِب في نفس شهر نزول القرآن. ولعلّ بمقدورنا الاستنتاج من البيان القرآنيّ المذكور أنّ اللّه جلّ وعلا قد أوجب الصيام فيه على الناس من باب الشكر على نعمة نزول القرآن. وحتّى إذا لم يمكن الادّعاء بأنّ العلّة التامّة لوجوب الصيام في هذا الشهر الشريف هو نزول القرآن الكريم، فمن المتيقّن أنّ نزول القرآن لم يكن عديم الأثر في العلّية لوجوب الصيام.

يصرّح القرآن في هذه الآية: «إنّ القرآن نزل في شهر رمضان»، ويقول في الأخرى: «إنّ القرآن قد نزل في ليلة مباركة». إذن، فهو قد نزل في ليلة واحدة من هذا الشهر ألا وهي «ليلة القدر»؛ فهو تعالى يقول: ﴿حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾[3]، و«يُفرَق» هنا بمعنى يُفصَل، ولازم الفصل هو التميُّز، ولازم التميُّز هو التعيُّن والتقدير. والتعيُّن والتقدير كلاهما يعطي مفهوم القياس والقَدْر، وهو المفهوم

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٥.
(٣) سورة الدخان، الآيات ١ ـ ٤.

المعروف في الثقافة الإسلاميّة والقرآنيّة أيضاً. فمتى ما عُرف قَدْر الشيء، حُدِّدت حدوده، ومُيِّز عن غيره، وخرج عن الإبهام. إذن الآية ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فيها دلالة على هذا المعنى؛ وهو أنّ ليلة نزول القرآن هي ليلة القدر.

وفي سورة القدر أيضاً عدّ اللّه سبحانه وتعالى هذه الليلة من الليالي العظيمة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[1]؛ فالقدر هنا بمعنى التقدير، ثمّ أتبعه بالقول: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾[2]. لعلّ المقصود هنا من قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ليس شخص النبيّ الكريم ﷺ، مع أنّ هذا الخطاب إن كان موجّهاً للرسول الأكرم ﷺ لكان فيه دلالة أقوى على عظمة هذه الليلة.

ومن أجل أن تتجلّى أهميّة هذه الليلة، تكرّرت لفظة «ليلة القدر» ثلاث مرّات في ثلاث آيات قصار. فلم يقل القرآن: «إنّا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما هي، هي ليلة ...»، إذ لعلّ من غير الممكن الإشارة إلى عظمة شيء من خلال تعبير مقتضب. فهذا النوع من البيان القرآنيّ يحكي عن مدى عظمة هذه الليلة. ومن أجل أن يلمس الناس هذه العظمة أكثر يقول: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾؛ أي، إنّ ليلة القدر هي حقيقة تتجاوز إدراك الناس العاديّين، ثمّ يقول بعدها: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[3]، وألف شهر تساوي أكثر من ثمانين عاماً؛ أي أكثر من عمر كامل لإنسان بدون حساب ليالي القدر من كلّ عام فيه.

---

(١) سورة القدر، الآية ١.

(٢) سورة القدر، الآية ٢.

(٣) سورة القدر، الآية ٣.

إنّ هذه الأفضليّة تأتي من ناحيتين: **الأولى**: إنّ رحمة اللّه تعالى لعباده في هذه الليلة تفوق رحماته العاديّة على مدى ثمانين عاماً - إذا ما استثنينا ليالي القدر من كلّ عام -. **والثانية**: إنّ أعمال الناس في هذه الليلة أفضل من أعمالهم على طول ثمانين عاماً - إذا ما طرحنا ليالي القدر منها -. وهذا هو نصّ القرآن الكريم وليس فيه أيّ مجال للشكّ والشبهة، حتّى وإن لم يكن معلوماً لدينا أيّ ليلة من الشهر هي.

إنّ الذهن الإنسانيّ يدرك أهميّة الأشياء من كمّيتها أكثر ممّا يدركها من كيفيّتها. فمن أجل إبراز أهميّة ليلة القدر للإنسان، يبيّن اللّه عزّ وجلّ أنّها أفضل من ألف شهر، بيد أنّ حقيقة هذه الليلة شيء آخر لا يعرفه أمثالنا، لكنّنا موظّفون بأن نؤمن بهذه الحقائق. فعندما يقول القرآن الكريم: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1]، فلأنّ اللّه أمر، فإنّه يتحتّم علينا أن نؤمن بالآخرة، والملائكة، والكتاب السماويّ، والأنبياء، وإلاّ فعقلنا قاصر عن إدراك موجودات كالملائكة ودورها في الخليقة. وإذا لم تكن لدينا بيانات الوحي وأولياء اللّه في هذا الخصوص، ما كنّا لنحصل على أيّ معرفة بهذه الموجودات. فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾[2]. إذن، فما دام اللّه يقول، فنحن نقبل ونذعن. إذ من الممكن فهم بعض الأمور عن الملائكة من خلال الآيات القرآنيّة أو أحاديث أئمّتنا الأطهار عليهم السلام، غير أنّ حقائقهم أعلى من مستوى

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٧.

إدراكنا. فحقيقة المَلَك ومقامه والدور الذي يضطلع به في الكون ومعنى نزوله ...الخ كلّ ذلك غير معلوم لدينا.

إنّ لفظة «النزول» في أذهاننا تطلَق على الهبوط من الأعلى إلى الأسفل، أمّا كيفيّة هبوط الملائكة فهو أمر مجهول بالنسبة لنا، بل إنّنا عاجزون حتّى عن تصوّره. جُلّ ما نعلمه هو أنّ الملائكة موجودات غاية في علوّ المقام، وأنّهم يديرون شؤون الكون بإذن اللّه عزّ وجلّ، وهم الواسطة في نزول الأرزاق وقبض الأرواح وهم كُتّاب أعمال العباد و...الخ. جاء في كتاب اللّه العزيز: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا * وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا * فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا * فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾[2]. ومع ذلك فإنّ الحقيقة الوجوديّة للملائكة هي غيب بالنسبة لنا، فالقرآن يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[3].

لقد ثبت في عصرنا الحاليّ، مع تطوّر العلوم الفضائيّة، أنّ لهذا العالم الجسمانيّ عظمةً تفوق الفهم والوصف. فوصول ضوء بعض النجوم إلى الأرض يحتاج إلى مليارات من السنين، في حين أنّ ضوء الشمس يستغرق ثماني دقائق للوصول إلى سطح الكرة الأرضيّة. بل إنّ بعض علماء الفلك يعتقدون أنّ بعض الأنوار التي تصلنا من الفضاء هي لنجوم انتهى عمرها وقد فنيت منذ زمن طويل. هذا العالم، بكلّ هذه العظمة، والذي يُكتشَف كلّ يوم جانب من عظمته

(١) سورة النازعات، الآيات ١ ـ ٥.
(٢) سورة فاطر، الآية ١.
(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

وامتداده، لا يعدو كونه حلقة أُلقيت في فلاة إذا ما قورن بالعوالم الأخرى التي لا يبلغها إدراك الإنسان. يروى عن النبيّ الأكرم ﷺ قوله: «... **يا أبا ذرّ! ما السماوات السبع في الكرسيّ إلاّ كحلقة ملقاة في أرض فلاة ...**»[1].

ولمّا كان الناس - بصرف النظر عن الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام (أو حتّى بعض أولياء اللّه) الذين حباهم اللّه بعلم لَدُنّي - لا يمتلكون القدرة على إدراك عظمة العالم المادّي، فأنّى لهم أن يفهموا المفاهيم المعنويّة التي لا يمكن إدراكها بواسطة حواسّ الإنسان، والتي هي أعقد وأعظم بكثير من العالم المادّي. إذن فنزول الملائكة من العالم الأعلى على قلب النبيّ ﷺ أمر خارج عن نطاق فهم الإنسان العاديّ. إذن ما علينا إلاّ أن نقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[2]، وفي هذا منتهى الفخر بالنسبة لنا؛ أي إنّ اللّه سبحانه وتعالى هدانا لهذا، فقبلنا هدايته طائعين خاضعين لكلّ ما يقوله، وقابلين بوجود الملائكة، وبنزولهم على قلب النبيّ ﷺ في ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وإنّ الركعة فيها أفضل من ثلاثين ألف ركعة في غيرها من الأوقات. لقد أعطى اللّه تعالى هذا الشرف لهذه الليلة وفتح الباب على مصراعيه أمام عباده كي يغنموا الربح الأوفى في الوقت الأقصر.

رفع استبعاد نزول القرآن في ليلة واحدة

قد يتبادر السؤال التالي إلى الذهن: كيف يتيسّر للقرآن المكوّن من ثلاثين جزءاً أن ينزل على النبيّ الأعظم ﷺ في ليلة واحدة؟ هل

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، الباب ٤، ص٧٢، الحديث ١.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٧.

هذا ممكن؟ وكيف نوفِّق بين هذا الأمر ونزول القرآن الذي استغرق ثلاثة وعشرين عاماً؟

إنّ من جملة الإشكالات التي كان يطرحها أعداء الإسلام على النبيّ ﷺ هي: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة؟؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾[1]، فيستدرك القرآن على الفور فيقول في نفس الآية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾. فالقرآن الكريم يضمّ ما يزيد على ستّة آلاف آية، ومن المستحيل تصوّر أنّ جبرئيل الأمين عليه السلام قد قرأ كلّ تلك الآيات على النبيّ ﷺ بشكل طبيعيّ في غضون ليلة واحدة.

ومن جملة الطرق التي يستخدمها القرآن الكريم في الإجابة على أمثال هذه الأسئلة هو «رفع الاستبعاد». فعلى سبيل المثال، عندما يتساءل المشركون: كيف يمكن لعظام الإنسان أن تُبعث ثانية بعد اندثارها وتفسّخها؟ يجيب القرآن على هذه التساؤلات بطرق شتّى، أحدها هو «رفع الاستبعاد»؛ فيقول: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[2]؛ أيّ إنّ اللّه القادر على أن يُخرِج من الأرض المَيتة نباتات حيّة، يستطيع أن يبعث الحياة ثانية في الأموات والأبدان المندثرة التي تحوّلت إلى تراب. هذا النوع من البيان، وهو رفع الاستبعاد، يعدّ بحدّ ذاته ضرباً من الاستدلال. وفي القرآن أمثلة أخرى من هذا النوع كالحيوانات التي قطّع إبراهيم الخليل عليه السلام رؤوسها ثمّ عادت لها الحياة ثانية، وبقرة بني إسرائيل التي بُعثت فيها

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٢.

(٢) سورة الروم، الآية ١٩.

الحياة بعد ذبحها. فمثل هذه الموارد تثبت أنّ إحياء المخلوقات في عالم الآخرة أمر غير مستبعد على اللّه عزّ وجلّ.

في مثالنا أيضاً يمكن اللجوء إلى رفع الاستبعاد لحلّ هذه القضيّة. ولابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ حكمنا على الأمور يستند إلى المقاييس التي نألفها؛ فالقراءة والسماع في نظرنا هما القراءة والسماع المألوفان لدينا بشكل طبيعيّ في حياتنا اليوميّة. فحسب تصوّرنا لو أراد شخص التحدّث فلابدّ أن يتحدّث على شاكلتنا، ويستغرق الوقت الذي نستغرقه نحن في حديثنا. في حين أنّ هناك أمثلة في هذا العالم الذي نعيش فيه يمكننا أن نعلم فيها أموراً جمّة خلال وقت قصير، منها الرؤيا في المنام. فقد يرى المرء في منامه رؤياً لفترة قصيرة بحيث لو أمكن لأحداثها أن تقع في اليقظة لاستغرقت أيّاماً. فبمقدورنا أن نشاهد في المنام أحداثاً كثيرة ونسمع كلاماً طويلاً خلال مدّة قصيرة لا تتجاوز بضع دقائق. ولو أردنا أن نكرّر نفس ذلك الكلام في اليقظة لاحتجنا إلى ساعات من الوقت.

المبحث الآخر هو أنّه ليس المراد من نزول القرآن في ليلة واحدة هو نزوله على النبيّ ﷺ بشكل ألفاظ تُسمَع بواسطة الانتقال عبر أمواج الهواء. يقول القرآن الكريم: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[1]، ولم يقل: «على سمعك» أو «على أُذنك».

ولرفع هذا الاستبعاد يمكننا أن نضرب من الحاسوب مثلاً. فمن الممكن أن توضع موسوعة ضخمة تضمّ العديد من المجلّدات في قرص مُدمج (CD) واحد، وبامتلاكنا لهذا القرص تكون كلّ

(١) سورة الشعراء، الآيتان ١٩٣ و١٩٤.

المعلومات المذكورة في الموسوعة تحت تصرّفنا، ويصبح بإمكاننا - من خلال استعمال أيّ جهاز حاسوب - الوصول إلى أيّ موضوع فيها متّى شئنا. ولا يعني هذا بالضرورة أن جميع ألفاظ الموسوعة سوف تقرأ على مسامعنا بشكل مفصّل. إذن، يمكن العثور في عالم المادّة على موارد يتمّ من خلالها ضغط مجموعة من المباحث المقروءة أو المسموعة في مجال ضيّق. فإن كان هذا الأمر ممكناً في هذا العالم، وهو الموصوف بعالم التفرّق والكثرة، فمن الأولى أن يكون بالإمكان جمع مجموعة من الحقائق مع بعضها في عالم ما فوق المادّة، المتّصف غالباً بالوحدة.

وبالطبع فإنّ كيفيّة تحقّق هذا الأمر مخفيّة عنّا، إلاّ أنّنا نعلم أنّه ليس بالمحال وأنّ له أمثلة في هذا العالم. إذن فمن الممكن أن ينزّل كلّ القرآن على القلب المقدّس للنبيّ ﷺ في ليلة القدر خلال وقت قصير جدّاً (قد يكون بضع دقائق أو أقلّ من ذلك)، وأن يكون النبيّ ﷺ قد فهمه واستوعبه أيضاً.

يقول المرحوم العلاّمة الطباطبائيّ قدّس سرّه في تفسير الميزان في معرض بحثه في طريقة نزول القرآن (ما مضمونه): إنّ القرآن الكريم نزل على النبيّ ﷺ بطريقتين؛ بالنزول الدفعيّ والنزول التدريجيّ. فالنزول الدفعيّ للقرآن - الذي عبّرت عنه الروايات بـ«النزول إلى البيت المعمور»، و«النزول إلى السماء الدنيا»، و«النزول على قلب النبيّ ﷺ» - هو غير النزول الذي كان يحصل بشكل آيات متفرّقة في مناسبات خاصّة. فالعلاقة بين النزولين هي علاقة «الجمع والتفريق»؛ إذ أنّ نزول القرآن على قلب النبيّ الأكرم ﷺ على طول

ثلاثة وعشرين عاماً كان نزولاً تفصيليّاً، أمّا نزوله في ليلة القدر جملة واحدة فهو النزول الدفعيّ أو الجمعيّ، الذي يتجاوز معناه حدود إدراكنا، إذ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

في ليلة نزول القرآن تتنزّل الملائكة، فهذه الليلة ليلة عزيزة جدّاً ومدعاة لأمل العباد ورجائهم. إنّ الملتفت إلى بيانات الرسول الأكرم ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام يُعدّ نفسه لسنة كاملة من أجل إدراك ليلة القدر. فلو استطاع الإنسان أن يصنع في ليلة واحدة ما من شأنه أن يمنحه من القدر والقيمة ما يعادل ثلاثين ألف يوم وليلة، فإنّ ذلك يستحقّ من الإنسان أن يُجهد نفسه خلال عام كامل من أجل إدراك هذه الليلة.

إنّ من جملة الأمور التي لها الأثر في إدراك الإنسان لليلة القدر هو قراءة سورة «القدر» على مدار السنة، وقراءتها ألف مرّة في ليالي شهر رمضان المبارك، أو قراءة سورة «الدخان» مائة مرّة في الليالي المذكورة.

* * *

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

المحتويات